جماعة الصادعون بالحق

الفصل الثالث

شروح

كتاب

معالم في الطريق

نشأة المجتمع المسلم وخصائصه

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
الموكب الكريم والرسالة الخاتمة: وحدة الهدف والعقيدة والمنهج ١
تاريخ الإنسان وخطورة داء الكبر ٣
بساطة ووضوح دعوة الحق على مدار التاريخ ٤
ليس المطلوب من الدعاة إثبات الحق وإنما الثبات على الحق ٧
صور الشرك بالله في واقعنا المعاصر ٨
إسلام العباد لرب العباد هو هدف الدعوة ٨
الاستسلام لله يضمن التناسق بين الجانب الإرادي والجانب الفطري في الإنسان ١٢
ضرورة نشأة المجتمع المسلم ١٤
الجاهلية واقع حي وليست مجرد نظرية فلن تقوضها فكرة مجردة ١٥
قاعدة الإسلام النظرية "لا إله إلا الله" بمدلولها الشامل تمثل ثورة على الباطل ١٨
الرسل جاؤوا ليردوا السلطة إلى الإله الواحد ٢٠
مدلول الجاهلية ٢١
المنهج الإلهي وحده يحقق التوازن للإنسان ٢١
مصطلح الجاهلية في القرآن وإسقاط ذلك على الواقع ٢٤
سمات المجتمع الجاهلي ٣٣
شرعية قيام المجتمع المسلم ٣٧
الجاهلية تجمع بشري عضوي يقوم على أساس باطل ٣٨
التدافع والصراع بين الحق والباطل لا يتم بنظريات مجردة ٣٩
قاعدة الإسلام "لا إله إلا الله" بحقيقتها المتكاملة ٤١
كيف عالج منهج الأنبياء هذه القضية ٤٢
الإيمان بالله بدهية عقلية وضرورة فطرية ٤٦
الدليل الشرعي على الألوهية الواحدة ٤٩
أقوال علماء السلف والخلف والمعاصرين حول قضية الحاكمية ٥٤
معنى كلمة الحكم ٥٧
القوانين المعاصرة ومخالفة شرع الله ٦٥
الشبهات والمغالطات في مسألة كفر من ترك الحكم بما أنزل الله ٦٧
متى يكون الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا كفرا لا يخرجه من الملة؟ ٧٥
موقف عامة الناس ٧٨

عوامل ترويج المبطلين لقضية الحكم بغير ما أنزل الله ٨٠
ما الذي يجب أن نفعله إزاء قضية الحكم بما أنزل الله؟ ٨١
قضايا هامة متعلقة بنشأة المجتمع المسلم ٨٣
المسلم النظري والانخراط في الجاهلية ٨٤
حكم المجتمعات القائمة اليوم والعقبات أمام الدعاة ٨٦
هل الحجة قائمة على هذه المجتمعات؟ وقضية العذر بالجهل ٨٨
شروط شهادة ألا إله إلا الله ٩٨
تطبيق القواعد السابقة على الواقع المعاصر ١٠٢
الخاتمة: كيف يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى في واقع الأرض ١٠٣

نشأة المجتمع المسلم وخصائصه

مقدمة

نتحدث في هذا الفصل عن نشأة المجتمع المسلم، وعن خصائصه.. ولا شك أن هذا موضوع جديد، تتجسم من خلاله العقيدة، وتتجسم من خلاله طريقة القرآن في إيجاد المجتمع الإنساني الذي يتلقى هذه العقيدة، ثم ينشغل بها وينفعل، ويتجاوب معها. ومن خلال هذا التفاعل وهذا التجاوب يتحقق ارتفاع البشرية -كما يريد لها الله عز وجل أن ترتفع- من حمأة الجاهلية، ومن مستنقع الجاهلية، ومن سفح الجاهلية، إلى قمة جديدة يريد الله أن تُحقَق من خلالها أشياء عديدة وجديدة سيأتي ذكرها في الحديث عن نشأة المجتمع المسلم وعن خصائصه. وحينما نتحدث عن نشأة المجتمع المسلم وخصائصه نحس أننا نقف على مشارف التاريخ الإنساني.. كيف بدأ؟ وكيف تحقق من خلاله ومن خلال حركته الهدف الرباني الذي من أجله خلق الله الإنسان؟ فالتاريخ الإنساني بدأ منذ اللحظة الأولى بداية صحيحة، حينما خلق الله عز وجل آدم -عليه السلام- وحواء لكي يكونا أول ممثلين للمجتمع الإنساني.

وكما نعلم من خلال العرض القرآني كيف أن الله عز وجل كلف آدم وحواء منذ اللحظة الأولى بتكوين الجماعة المسلمة ودعاهما إلى اتباع المنهج الرباني، وبين لهما من خلال التجربة الأولى التي عاشاها في الجنة كيف يتعرفان على نقاط القوة ونقاط الضعف فيهما، وكيف يتعرفان أيضا على العدو المتربص بهما؛ سواء من داخل نفوسهما، أو من خارجها ممثلاً في إبليس، وكيف أن آدم وحواء تعلما من خلال هذا الدرس حقائق كثيرة جدا يجب أن نذكرها حينما نتحدث عن المجتمع المسلم وعن خصائصه وكيف تكّون هذا المجتمع المسلم. ففي الحقيقة هذا الفصل يقف بنا على مشارف التاريخ البشري منذ اللحظة الأولى التي كُلف فيها آدم أن يقود المسيرة البشرية، أو دُعي ليكون هو الأب الأكبر الذي قامت ذريته بعد ذلك لتؤدي هذه المهمة إلى يوم الدين.

الموكب الكريم والرسالة الخاتمة: وحدة الهدف والعقيدة والمنهج

يقول الأستاذ سيد هنا في بداية الفصل **"إن الدعوة الإسلامية على يد محمد رسول الله ﷺ إنما تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام.. وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً: هو تعريف الناس بإلههم الحق وربهم الحق.."**

فهذه الدعوة الأخيرة على يد هذا الرسول الخاتم ﷺ كانت تمثل الحلقة الأخيرة لهذا الموكب الطويل المتطاول لحياة الدعوة الإسلامية. وهذا ما يدعونا أن نتحدث عن تاريخ الإنسان، وكيف أنه منذ أن خلق.. خلق ليكون خليفة في الأرض. وهذه

الحقيقة تدحض وتبطل ما يسمى بعلم تاريخ الأديان وتاريخ مقارنة الأديان كما يدّعونه ويفرضونه في الجاهلية، وتبطل أيضا التاريخ الذي يقولونه عن نشأة الإنسان؛ من أن الإنسان لم يخلق منذ اللحظة الأولى إنسانا، وأنه لم يُخلق أيضا ليكون منذ اللحظة الأولى متميزاً بإنسانيته، وأنه تطور في سلم الأحياء، أو تطور في التصور العقلي، أو تطور في إدراكه الديني إلى أن وصل في مرحلة من المراحل إلى تصور الإله الواحد وفكرة التوحيد.. هذا الكلام الذي يقوله علماء مقارنة الأديان، ويقوله فلاسفة الغرب، ومن يسير وراءهم من المضللين في العالم الإسلامي.

هذا القول باطل، لأن الله عز وجل الذي خلق الإنسان.. قرر من قبل أن يخلقه أن يكون له دور ضخم جدا في الأرض، وأن هذا الدور دور متميز لم تكلف به خليقة أخرى، لذلك بدأت سلسلة النبوات بآدم -عليه السلام- وانتهت برسول الله محمد ﷺ، ليكون الموكب كله قد جاء ليحقق نفس الهدف ونفس العقيدة ونفس المنهج، لكي يتحقق مراد الله عز وجل حينما خلق هذا الإنسان. وكما جاء في سورة البقرة بعد أن استعرض القرآن أحوال أصناف البشرية؛ المؤمنين والكافرين والمنافقين، ثم بيّن الله لنا في صدر السورة أن الناس مدعوّون إلى عبادة الله عز وجل لعلهم يتقون، ومنَّ عليهم بخلقهم، وأنه سبحانه قد هيأ لهم هذا الكون كله ليكون في خدمتهم، ثم تحداهم بهذا الحق وبهذا القرآن أن يأتوا بمثله، ويأّسهم يأسا كاملا من أن يستطيعوا أن يفعلوا بعد هذا كله فقال سبحانه:﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، فكانت هذه القضية منذ اللحظة الأولى واضحة بينة.. ثم عقَّب بعد ذلك بالحديث عن آدم -عليه السلام- وعن خلق آدم -عليه السلام- ليقرر أن هذه الأصناف الثلاثة، وهذه الحقائق الأولى التي عرضها القرآن كانت مقدمة للحديث عن مهمة آدم ومهمة الكائن الإنساني.. ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].. إلى آخر الآيات التي انتهت بقوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].. فالمنصب الذي كُلِّف به آدم -عليه السلام- هو منصب الخلافة في الأرض، وهو منصب متميز.. لم تدرك الملائكة معناه في أول الأمر.. وحتى لو أدركت معناه وأدركت خطورته فهي لم تر أن ذلك الجنس البشري الذي يسفك الدماء ويفسد في الأرض جدير بهذا التكريم. ولكن الله عز وجل رد عليهم ردا مقتضباً واضحاً وحاسماً ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣٠-٣١].. وهذا العلم هو العلم المطلوب الذي يريد الله أن يتحلى به آدم وذريته، وهو العلم الذي يمكِّنهم من القيام بالخلافة في الأرض.. والملائكة ليسوا مهيئين لهذا الأمر، ولذلك لم يؤتَوْا العلم الذي يهيئهم لهذه الخلافة.. ولكن آدم وذريته هم الذين كان عليهم أن يتعلموا.. فيعلمهم الله عز وجل ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].. فالله هو الذي علم آدم الأسماء كلها. وكما يقول المفسرون أنه علَّمه كل شيء مما كان يحتاجه في نزوله إلى الأرض.. فليس الأمر -كما تقول الجاهلية وعلماء الأديان المقارنة- أن الإنسان كان لا يعرف اللغة وأنه كان يتكلم بالإشارة.. كل هذا باطل.. فكما أخبرتنا السنة النبوية أن آدم منذ أن نفخت فيه الروح كان أول ما فعل أنه عطس، فألهمه ربه أن قال الحمد لله، فقال له ربه يرحمك الله[١]..

١ الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

تاريخ الإنسان وخطورة داء الكبر

فالإنسان متميز منذ اللحظة الأولى. وكما رأينا أن الله عز وجل بيّن لآدم أن له عدوا هو إبليس، وأن هذا العدو أبى واستكبر، وأن أول جريمة، أو أول داء ركّز الله عليه في بداية الحياة البشرية هو داء الكبر.. داء الاستكبار على الله عز وجل.. لأن إبليس قد ارتكب أول معصية لتكون معروضة على الجنس البشري؛ وقد ارتكب إبليس جريمته العظمى هذه على الرغم من أن كل دواعي الاستسلام والتعظيم والعلم، الباعثة علي العبادة كانت عنده.. إلا أنه استكبر.. فقد كان إبليس من العلم وكان من العبادة حتى نافس الملائكة في هذا، وكان يخاطب الله رب العالمين، وكان يعلم أن الله هو الذي كلّفه وأمره بالسجود لآدم -عليه السلام- ومع كل هذا العلم وكل هذه العبادة وكل هذا المقام، كان هناك ذلك الكبر في نفس إبليس، والذي لم يقف أمامه أي حاجز من هذه الحواجز التي كان ينبغي أن تخيفه حينما يعلم أنه يخاطب رب العالمين، وأن الله هو الذي أمره، وأن الملائكة كلهم سجدوا، وأن هذا مراد الله عز وجل، وهو على علم بهذا.. إلا أن هذا كله لم يمنعه أن يتجاوز حده، وأن يستكبر، وأن يعارض الله عز وجل، ويحتج على الله ويقول ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].. ثم بعد ذلك حينما يصر على ألا يسجد يستنظر الله، ويصر على أن يتحدى الله عز وجل ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]..

فمهم جداً أن نفهم كيف بدأ التاريخ الإنساني بهذه الجولة الأولى.. جولة الكبر على الله، لكي نفهم ونحن في خضم السير في هذه الأرض وكما كررت دائما قبل ذلك أن من أخطر أدواء البشرية الكبر.. الذي هو الإحساس بالذات.. أو هو تضخم الذات كما نعبر عنه. فلا شك أن هذا الأمر لا يوقفه شيء.. لا العلم يوقفه، ولا ممارسة العبادة توقفه، ولا أي شيء يوقفه. فحينما تنتفخ في نفس الإنسان ذاته، وحينما تتطلع إلى شيء تريده فإنه لا يوقفها شيء ويغذيها الحسد والحنق والحقد، فتقف معارضة لله عز وجل. وهذا ما نراه دائما في المستكبرين، وفي المنحرفين، وفي الذين يلبسون الحق بالباطل من أجل ذاتهم ومن أجل نفوسهم..

لذلك كان هذا الدرس، وكان هذا الترتيب في أولويات المخالفة، كان ترتيبا طبيعيا يعرضه الله عز وجل على البشرية منذ اللحظة الأولى، قبل أن يكلف آدم وقبل أن ينزله إلى الأرض.. فعرض عليه كيف أن إبليس استكبر، وكيف أنه خان الأمانة.. ثم بعد ذلك كيف وسوس لآدم لكي يوقعه في مخالفة الله، ونجح حينما أغراه واستثاره من نقطتين أساسيتين ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠].. هاتان الشهوتان؛ شهوة حب البقاء، وشهوة الملك والسيطرة، شهوتان ضخمتان جدا تعْرِضان للإنسان في كل وقت. والشيطان يوسوس للإنسان منهما باستمرار.

وبيّن الله عز وجل لرسوله آدم -عليه السلام- ولزوجه ولذريته أن هذا عدو، وأنه سيظل عدوا إلى أبد الدهر.

بيَّن الله هذا كله لكي نعرف كيف بدأت الرسالة، وكيف أن الرسل جميعا جاءوا ليحذروا البشرية من هذا العدو، ولكي يعلموا البشرية كيف تخضع لله ربها. وأنهى الأمر بأن أعلم آدم أنه سينزل إلى الأرض، وأن له وقتا معينا في هذه الأرض، متاع ومستقر إلى حين، ثم إنه إذا أخطأ فإن باب التوبة والرجوع مفتوح، فتاب الله عليه بعد أن علّمه كيف يتوب، ثم كلفه بعد ذلك

بالرسالة، وأصبحت الرسالة مفهومة من خلال معرفة طبيعة آدم وطبيعة العدو وطبيعة الأرض التي نزل إليها وطبيعة المعصية وألوانها، ثم ينتهي السياق بقوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].. وكما جاء في سورة طه ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]..

هذه البداية كان لا بد أن نقف معها على مشارف التاريخ الإنساني، لكي ندرك ما هو ذلك المجتمع الذي يريده الله، وما هي القضية التي قام ذلك المجتمع ليؤديها. ولذلك حينما يقول الأستاذ سيد هنا **"إن الدعوة الإسلامية على يد محمد رسول الله ﷺ إنما تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام.."** فإنه يريد بذلك أن يربطنا في نفس الوقت بالحلقة الأولى، فلا ننسى ونحن نتحدث عن الحلقة الأخيرة أنها ليست حلقة منقطعة، وليست حلقة مستقلة، وليست حلقة انقطعت الأواصر بينها وبين من سبقوها.. وإنما الموكب متواصل، وموصول بعضه ببعض، والحلقة الأخيرة هي نتاج للحلقة الأولى وللحلقات التي بعدها.

بساطة ووضوح دعوة الحق على مدار التاريخ

"وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً: هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق، وتعبيدهم لربهم وحده، ونبذ ربوبية الخلق.." هذه القضية التي جاء لها الأنبياء جميعا كما يقول الأستاذ سيد، وهذا حق، أنهم كانوا جميعا يستهدفون أمرا واحدا، وهو تعبيد الناس لربهم الحق.. وهي قضية بسيطة، قضية محددة، ومن هنا تأتي عظمتها؛ فعلى الرغم من عظمتها، ومن ضخامتها، فإنها في نفس الوقت قضية بسيطة جدا، بسيطة بساطة البداهة، وبساطة الفطرة، وبساطة الحقيقة حينما تكون متجلية.. فهذه هي الحقيقة؛ أن الأنبياء جميعا جاءوا ليقرروا هذه الحقيقة البسيطة الواضحة، رغم أن الناس كانت الشياطين تجتالهم دائما فتغبش عليهم هذه الحقيقة وتعمي عنها أبصارهم، وكانت القضية تتعقد في نفوس البشر بما تدخله الشياطين إلى قلوبهم وإلى مفاهيمهم، فتزين لهم الباطل بما تدخله من عقائد وأفكار ما أنزل الله بها من سلطان.

لكن هذه العقائد الباطلة -مع وضوح بطلانها- إلا أن الشيطان كان يحقق بها وعيده الذي قاله من أنه سيضل الناس جميعا ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]..

لكن الحقيقة أن القضية بسيطة جدا.. قضية أن هناك رباً وعبداً.. هناك خالق ومخلوق.. وهي قضية لا تحتاج إلى كلام كثير، ولذلك كان عرض الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- للقضية عرضا مبسطا وهادئا، وكانوا يكررون هذا العرض باستمرار، وكانوا دائما يصرون على قضية واحدة، بتعبير يكاد يكون واحدا. كان جميع الأنبياء يأتون بنفس القضية ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].. فقد جاء الأنبياء ليعرّفوا الناس بقضية وحدة الربوبية ووحدة الألوهية وتعبيد الناس لربهم، لا لأنهم لا يعرفون الله، وإنما كما يقول الأستاذ سيد: **"ولم يكن الناس -فيما عدا أفراد معدودة في فترات قصيرة- ينكرون مبدأ**

الألوهية[٢] ويجحدون وجود الله البتة، إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى: إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والاتباع.. وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله، الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول، ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد.. ويرتَدُّون إلى الجاهلية التي أخرجهم منها، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى. إما في الاعتقاد والعبادة، وإما في الاتباع والحاكمية. وإما فيهما جميعا.." وهذه هي القضية.. وهي قضية لا بد أن نفهم ونستيقن أنها قضية لا تحتاج إلى حشد من الأدلة، ولا إلى مزيد من العلم المعقد.. فالرسل جاءوا ليخاطبوا الناس خطابا مبسطا.. ولذلك كان هذا الدين مُيسراً..

قضية تيسير هذا الدين قضية من أساسيات الاعتقاد الإسلامي، ومن أساسيات الدعوة والبلاغ.. كثير من الدعاة يوحون للناس أن قضية هذا الدين قضية صعبة، أو قضية معقدة، أو قضية لا يعرفها إلا متخصصون وأفذاذ من الناس.. وهذا صد عن سبيل الله.. لأنه معارض لما يريده الله عز وجل، ومعارض لتقرير الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فالله عز وجل قد كلف الناس جميعاً بهذه الحقيقة، وما دام قد كلف الناس جميعاً بهذه الحقيقة ولم يفرق بينهم في هذا فلا بد أن تكون هذه الحقيقة على مستوى الناس جميعاً، وإذا كان الذين كُلفوا بهذه الحقيقة لم يشترط فيهم إلا أن يكونوا عقلاء بالغين، فمعنى ذلك أنه لا يشترط درجة من العلم معينة، ولا درجة من الثقافة معينة، ولا درجة من الحسب أو النسب، ولا درجة من الخبرة والتجربة.. وإنما الذي طولب من خلاله الناس بالتكليف هو أن يكونوا بالغين وعقلاء.. والعقل هو ذلك العقل الأساسي والبديهي الذي يتعامل مع الضرورات العقلية، وليس المقصود به ذلك العقل المتفلسف، ولا العقل المتبحر، وإنما يقصد بالعقل القدرة العقلية على إدراك الحقائق الضرورية والبدهيات العقلية التي تدرك أبسط الأمور؛ مثل أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد في مكانين اثنين في وقت واحد.. فهذه القضايا التي يدركها الإنسان الذي وصل إلى سن البلوغ بطريقة يقينية لا تحتاج إلى دليل متخصص، ولا تحتاج إلى دليل من خارجها.. لذلك يؤكد القرآن في سورة كاملة من سوره وهي سورة (القمر) أن القرآن ميسر.. ويكرر هذه القولة وراء كل نبي، ومع نهاية قصة كل نبي ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

هذه الحقيقة، إذا لم يؤمن بها الدعاة ولم يؤمن بها المبلغون عن الله، فهم ابتداءً يعقّدون الأمر على أنفسهم، ثم يعقدونه على الناس.. فلا بد أن يكون أسلوب البلاغ أسلوباً ميسراً، حتى لا يحدث تناقض بين واقع الحقيقة التي يريدها الله، وبين طبيعة الكتاب الذي أنزله الله، وبين أسلوب البلاغ الذي ينتهجه المبلغون. فلا بد أن تتساوق هذه الأمور كلها في منظومة واحدة.. ولن يكون ذلك إلا إذا كانت القضية بسيطة، وتعرض بطريقة سهلة مبسطة، وأن يكون الدليل عليها أيضا دليلاً فطرياً مبسطاً..

٢ هناك خلاف قديم بين علماء المسلمين في مدلول توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وأيهما ركز الأنبياء الدعوة إليه، والأستاذ سيد – رحمه الله – كالإمام الطبري – رحمه الله – يري أن تحكيم غير شرع الله هو إشراك في الربوبية بينما يرى الإمامان ابن تيمه وابن القيم أن ذلك شرك في الألوهية والخلاف نظري لأنه لا بد من توحيد الألوهية والربوبية والذات المتصفة بهما واحدة. فالله هو الاله وهو الرب ولا مشاحة في الاصطلاح. وقد أشبع هذه النقطة بحثاً الدكتور / صلاح عبد الفتاح الخالدي في رسالة للدكتوراه: في ظلال القرآن في الميزان. (جدة: دار المنارة، ط الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨١) ج٣. ص١٥٢-١٧٢.

وبهذا نكون قد بلّغنا عن الله البلاغ الحق، واستعنا في هذا بكل الأسباب التي ركزها الله في فطرة الإنسان وفي عقل الإنسان وفي واقع الإنسان.

فهذه القضية.. قضية لا بد أن نؤمن بها وهي تيسير ويسر البلاغ.. ويسر الحقيقة التي يواجَه بها الناس. ولذلك حينما استقل الإنسان بفكره وبمنهجه وبطريقته ليتعرف على حقائق الوجود أنتج ما يسمى بالفلسفة، وأصبحت الفلسفة قضايا معقدة لا يفهمها إلا فريق متخصص من الناس، وقد لا يفهمونها أبدا، فضلّ الناس.. ضلَّ الفلاسفة، وضلَّ من يأخذون عنهم.

وعندما وقع المسلمون في المأزق الذي صنعه لهم الفلاسفة حينما أثاروا قضايا عقلية على مستوى معين من التعقيد، فأراد المسلمون المخلصون أن يردوا عليهم باستخدام نفس المنهج ونفس القوالب، فأنشأوا ما يسمى بعلم الكلام.. كان هذا العلم مضيعة للوقت، ومضيعة للفهم، بل ومضيعة للعقيدة والدين. ولذلك نرى أن السلف الصالح من المسلمين كانوا يرفضون علم الكلام، وكانوا يبدّعون الذين يقومون بهذا العلم أو الذين يعرضون الدين بهذه الطريقة.. فهذا الإمام الشافعي -رحمه الله- كان يقول: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام[٣].

وقال تلميذه المزني: كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم الشافعي، فلما قدم الشافعي أتيته فسألته عن مسألة في الكلام فقال لي: تدري أين أنت؟ قال: قلت: نعم أنا في المسجد الجامع بالفسطاط.

فقال لي: أنت في تاران "وتاران موضع في بحر القلزم لا تكاد تسلم منه سفينة" قال: ثم ألقى علي مسألة في الفقه فأجبت فيها، فأدخل شيئاً أفسد جوابي فأجبت بغير ذلك فأدخل شيئا أفسد جوابي، فجعلت كلما أجبت بشيء أفسده قال ثم قال لي: هذا الفقه الذي في الكتاب والسنة وأقاويل الناس يدخله مثل هذا فكيف الكلام في رب العالمين الذي الزلل فيه كفر. فتركت الكلام وأقبلت على الفقه[٤].

فهذا الدين لا يُعرف إلا بطريقة واحدة.. وهي التي عرض الله بها دينه وبينه سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.. ودعى بها رسوله العظيم ﷺ. صورة ميسرة سهلة تتحدث عن الإنسان من خلال عقله ووجدانه وتجربته وفطرته وما ركز في هذه الفطرة من حقائق بدهية وضرورات عقلية..

هناك ما يسمى بالضرورات العقلية.. فالإنسان لا يحتاج دليل على وجودك ما دمت أنت الذي تكلمه وتقول له أنا موجود، فلا يقول لك اثبت لي أنك موجود.. والفلسفة تقول لك اثبت لي أنك موجود.. وحينما يغيب إنسان عن نظرك فيقال إن هذا غاب تقول لك الفلسفة اثبت أنه غاب.. من أدرانا أنه موجود.. فهذا التلاعب بالعقل البشري يؤدي إلى بعثرة هذه الطاقة العقلية التي ما جاءت لكي يُتلاعب بها، أو لكي تكون أداة للعبث أو أداة للضلال، وإنما لتكون أداة للعلم.. لذلك زودت بالعلم الضروري الذي لا يحتاج إلى دليل.. فكما أن الشمس إذا كانت في رابعة النهار فإنك تتعجب ممن يقول لك اثبت لي

---

٣ سير أعلام النبلاء. ج٨. ص٢٤٥.

٤ المصدر السابق. ج١٩. ص٢٥.

أن الشمس موجودة، فلا ترد عليه لأنك تعتبره -بهذا الشكل- إما عابث، وإما مستهزئ بك، وإما أعمى لا يرى.. فمثل هذا لا يمكن إثبات الحقيقة له وقديماً قالوا:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فكذلك هذه القضية.. قضية أن هذا الدين يسر، وأن هذه العقيدة فطرية، وأن الطريقة التي تعرض بها هذه العقيدة لا بد أن تكون ميسرة لكي تصل إلى الناس، ولنكون قد صدقنا الله عز وجل في أننا مبلغين عنه ولسنا مبلغين عن أنفسنا ولا عن عقولنا ولا عن أهوائنا.. فنحن نريد أن نبلغ كلام الله، ونبلغ مراد الله، ونبلغ رسالة الله.. فلنتمسك بمنهج الله في العرض وفي البلاغ وفي الأداء وفي الطريقة، ونؤمن أن هذا هو الطريق الوحيد في عرض هذه القضية..

ليس المطلوب من الدعاة إثبات الحق وإنما الثبات على الحق

هذا الأمر كله من وحي هذه القضية.. قضية أن التاريخ الإنساني قد بدأ بآدم، وأن تاريخ الرسالة الإنسانية قد بدأت بآدم وانتهت بمحمد ﷺ، وأن هذا الموكب جميعه كان موكبا يعرض القضية بأسلوب واحد بسيط، يخاطب الفطرة ويخاطب الوجدان ويخاطب الضرورات العقلية، ومن ثم فليس هناك تعقيد في عرض قضية الإسلام.. والذي يصد الناس عن الإسلام ليس هو الجهل، وليس هو عدم القدرة على الفهم، وليس هو عدم العلم.. وإنما الذي يصد الناس دائما أنهم يُعرضون عن الحق، ويعطون للحق ظهورهم، أو يسدون آذانهم، أو يضعون أيديهم في أفواه الدعاة لكيلا يسمعوا الحق، وليس لأن القضية معقدة، وليس لأن فيها صعوبة.. ويترتب على بساطة القضية وعلى يسر القضية وعلى سهولة القضية أن المعركة بين الدعاة وبين المدعوين، أو بين الدعاة وبين الجاهلية ليست قضية إثبات أن هذا حق، وإنما القضية هي القدرة على الثبات على الحق في مواجهة عناد الجاهلية..

فمجرد الثبات على الحق في مواجهة الجاهلية هو الدعوة الحقيقية للإسلام.. وحينما يُستدرج الدعاة إلى حوارات وإلى مناقشات على طريقة الجاهلية فإنهم يكونون -منذ اللحظة الأولى- قد انهزموا، وقد تخلوا عن القاعدة التي ينبغي أن ينطلقوا منها.. وتركوا قاعدتهم وذهبوا إلى قاعدة العدو ليخاطبوه منها.. وهذه هي بداية الهزيمة، ونهايتها في نفس الوقت.. فلا بد أن يقف المسلم عند قاعدته ويدعو الناس، ويصر ألا ينتقل هو إليهم.. ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].. لكن أن تتنازل أنت عن منهجك أو عن طريقتك أو عن ترتيب أولوياتك، فهذا كله نزغ من الشيطان ليحرفك عن الصواب. فإذا استجبت له سهل جرّك بعد ذلك إلى أي هاوية من مهاوي الضلال.

الذي نريد أن نؤكده أن الناس كانوا يعرفون -وهم دائما يعرفون- ربهم، ويعرفون خالقهم، ويعرفون أنهم نبت مخلوق، لم يخلقوا أنفسهم ولم يصنعوا أنفسهم.. فهذه قضية يجمع عليها الناس كلهم، حتى الماديون الذين يقولون لا إله والحياة مادة، فهم -في الحقيقة- يستبدلون العقيدة الصحيحة بعقيدة باطلة.. هم يقولون إن المادة هي التي خلقت، والمادة ليس لها أول وليس لها آخر.. والمادة أزلية أبدية.. المادة تخلق ولا حد لقدرتها على الخلق.. وكل هذه صفات الإله.. ولكنهم يريدون أن ينزعوا عن الإله أن يكون حيا سميعا بصيرا قادرا جبارا، لكي يعيثوا في الأرض فسادا، ويبعدوا أنفسهم عن التكليف، أو ما يتصورون

أنه تكليف صعب عليهم، أو أنه تكليف يصادم أهواءهم وشهواتهم.. فالحقيقة أن الناس كلهم مجمعون على أنهم مخلوقون، وأنهم جاءوا نتيجة خلق من خالق أوجدهم.. ولكنهم لا يرتبون على هذه القضية ما ينبغي أن يكون..

فعندما يأتي الرسل ليقولوا للناس: ارجعوا إلى الله، وأعطوا الله ما يستحقه من العبادة وما يستحقه من الانقياد والخضوع.. فهي إذن مهمة واضحة بسيطة.. ولكنها مهمة الإنسان كله على الأرض.. أن يعرف أن له ربا، وأن هذا الرب هو صاحب السلطان، وأن هذا السلطان له مظهر معين وله حقائق معينة يتحقق من خلالها.. فإذا انحرف الناس عن معرفتهم بربهم.. وعن معرفتهم بصفاته.. أو بأسمائه.. أو بحقوقه.. أو بشرعه.. أو بقيمه.. يأتي الأنبياء ليردوا الناس إلى الله.. فالقضية بسيطة وليست صعبة.. وكما يقول هنا.. أن الناس **"إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى: إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والاتباع.."** وهذه الأمور إنما هي وجوه لحقيقة واحدة.. وجوه لحقيقة الخروج عن عبودية الإنسان لهذا الإله الحق؛ إما في الاعتقاد.. فيعتقدون أن له شركاء، أو يعددون الخالقين، أو يعددون صفاتهم أو أسماءهم.. وإما في صور العبادة وأشكالها.. وإما في أمر المقتضيات لحقوق الله عز وجل..

صور الشرك بالله في واقعنا المعاصر

الاعتقاد مفهوم، وهو التعرف على الله عز وجل، وعلى مقام الألوهية وصفاتها وأسمائها، والاعتقاد بحقائق الأشياء الموجودة حول الإنسان؛ حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان.. فكل هذه تصورات عقدية مطلوب من الإنسان أن يدركها وأن يعرفها..

والعبادة هي مجموعة النسك والأعمال التي يتقدم بها العبد تقرّبا إلى الله عز وجل، واسترضاء له واستدفاعا لغضبه سبحانه.

أما الاتباع والحاكمية فهي قضية الالتزام السلوكي والاجتماعي والواقعي في الحياة من خلال إعطاء الله حق إدارة الحياة، وحق تقرير كل شيء في حياة الإنسان..

فالناس إما أنهم يشركون في الاعتقاد، أو يشركون في العبادة، أو يشركون في قضية الاتباع والحاكمية..

وقد يكون الاتباع والحاكمية أمران يتباينان قليلا.. فقد يقرر الناس مبدأ الحاكمية، ولكنهم يتبعون في هذه الحاكمية أهواءهم أو مشايخهم أو بدعهم أو انحرافاتهم.. فيقررون ويؤكدون مبدأ الحاكمية، ولكنهم يحققون هذه الحاكمية بأهوائهم، كما يحدث حينما يشرع الناس أو يبتدعون في دين الله ما لم يقرره الله.. فهناك خطوط رفيعة بين هذه الأمور..

إسلام العباد لرب العباد هو هدف الدعوة

يقول الأستاذ سيد **"هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري. إنها تستهدف "الإسلام".. إسلام العباد لرب العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، بإخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة.."**

كثيرا ما نتكلم عن أن الدعوة إلى الله، أو هذا الدين إنما يستهدف إقرار إسلام العباد لرب العباد.. والكلمة حق في ذاتها.. ولكن الذي أريد أن أوجه النظر إليه هو كيفية فهم هذه القضية.. كيف يفهم الإنسان معنى إسلام النفس لله عز وجل؟ وكيف يتذوق هذه الحقيقة؟ ولعلنا لمسنا جزءاً من هذه القضية حينما تحدثنا عن الجيل الأول، وكيف كان يتذوق الإسلام، وكيف كان يعيش مع الله سبحانه وتعالى، وكيف كان يتعامل مع هذا الرب الذي عرفه بعد ضلاله.. فلا شك أن طريقة إدراك الصحابة لهذه الحقيقة، وطريقة تذوقهم لها، والذي نتج عنهما طريقة تعاملهم مع هذه الحقيقة انعكس على طريقتهم في الحياة، وعلى مشاعرهم وعلى قيمهم وعلى سلوكياتهم في كل صورة من صور الحياة.. هذه القضية التي نريد أن يفهمها الناس حينما نقول لهم: أن الهدف هو إسلام العباد لرب العباد، أو خروجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. فليس الهدف هو الخروج من عبادة الطواغيت فقط.. فليست القضية فقط هي أن أرفض حكم الطواغيت.. القضية أعمق من هذا؛ وهي كيف أتعامل مع هذا الإله؟ كيف أعرفه؟ كيف أوقره؟ كيف أفهم طبيعة المسافة التي بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى؟ وهي في أعماقها قضية شعورية وقضية وجدانية.. وليست قضية عقلية فقط، وإنما بدايتها لا بد أن تكون عقلية.. حينما يحدد الإنسان المسافة بينه وبين الله.. المسافة بين المخلوق وبين الخالق.. بين صفات المخلوق وصفات الخالق.

وهذه القضية لا بد أن نقف عندها طويلا.. وقد تحدثت كثيرا قبل ذلك عن أننا في حاجة أن نقف طويلا لنتفكر في: ما معنى أنني مخلوق؟ ومعنى أن الله هو الخالق؟ ما معنى أنني كائن خُلق ونشأ بعد عدم، وأنه لم يكن في يوم من الأيام شيئا مذكورا؟ وما معنى أن الله هو الخالق السرمدي الأبدي الأزلي.. القائم بذاته، الذي لا يعتريه نقص ولا فناء ولا موت ولا غفلة ولا نسيان ولا جهل؟ كل هذا لا بد أن نقف طويلا أمامه لنفكر في حقيقة النسبة والمسافة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، وبين حقيقة الألوهية وحقيقة العبيد، بين مقام الله سبحانه وتعالى ومقام البشر المخلوقين.. هذه القضية بداية رئيسة لكي ندخل إلى دائرة الإيمان الحق، وإلى دائرة الإيمان الحي المتوهج.. والذين يأخذون القضية على أنها قضية رياضية أو فلسفية؛ أنني بما أنني موجود إذن هناك مُوجد.. وتنتهي القضية بهذا الشكل الفلسفي بأنني وُجدت وهناك من أوجدني، وتنتهي العلاقة بيني وبين هذا الخالق بهذه الصورة الباهتة الجافة التي لا تحرك الوجدان، ولا يترتب عليها أي حقوق ولا أي تصورات.. الذين يأخذون القضية على هذا النحو ضَّلُّوا عن المدخل الصحيح الموصل إلى الحقيقة.

فمهم جدا أنْ نعرف أنّ الدعوة إلى الله التي جاء بها الأنبياء لم يكن القصد منها تعريف الناس بأن لهم خالقاً أو أنهم مخلوقون.. هذه قضية فطرية، وقضية واقعية، بل كما أقول دائما أنها من الضرورات العقلية للإنسان وللعقل البشري.. فالإنسان العاقل لا يمكن أن يفلت من هذه القضية.. ولا يستطيع أن يلقيها وراء ظهره أبدا.. فبما أنه موجود لا بد أن هناك موجِداً له.. والإنسان لم يَدّعِ أبداً أنه قد خَلق نفسه.. وإلا لو أنه ادعى ذلك لطولب أن يُغير من واقعه إلى ما هو أفضل.. ولكن ما من إنسان منا إلا ويشعر أنه ناقص، وأنه لا يستطيع أن يكمل هذا النقص.. ولا أن يُغيره.. الذي خُلق قصيرا يريد أن يكون طويلاً فلا يستطيع.. والذي خُلق قبيحاً يريد أن يكون جميلاً فلا يستطيع.. والذي خُلق فقيراً يريد أن يكون غنياً فلا يستطيع.. ولو أنه هو الذي خلق نفسه لفعل.. وهذه مقولة -أصلا- فلسفية باطلة لا تتمشى مع البدهيات العاقلة، لأن الشيء لا يستطيع أن

يخلق نفسه، لأنه لا بد أن يكون موجودا قبل وجود نفسه لكي يخلق نفسه.. قضية بيزنطية لا ينبغي أن يقف الإنسان عندها أبداً، ولا يقولها إلا مجنون أو عابث أو هازل، أو يريد تضييع وقت نفسه، أو أن الشيطان يتلاعب به فيستجيب للشيطان..

القضية البدهية التي توجد عند العقل البشري العاقل الهادئ الذي يحترم ذاته أنه لم يوجِد نفسه، وبالتالي لا بد أن يكون قد أوجده خالق وقوة أخرى أعلى منه.. فإذا نظر إلى ما حوله من هذا الوجود وتلك الموافقات التي يُسِّرت له لكي يعيش فإنه يدرك ذلك، لأن الإنسان ليس قائما بذاته، وليس مستكفيا بذاته.. ولو أنه وجد نفسه مستكفيا بذاته لكانت القضية أكثر تلبسا وأكثر صعوبة.. وقضية الموت والحياة كفيلة وحدها بأن تقرر أنه مخلوق وحادث، وحتى لو كان قائما مكتفيا بذاته وعنده ما نسميه بالتحكم الذاتي، أو أنه فيه كل مقومات الحياة من داخله.. لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بهذا الإنسان حتى لا يقع في هذه الضلالة، وحتى لا يقع في هذا الغرور فيظن أنه قد خلق نفسه، أو أنه مخلوق مكتف بذاته، جعله محتاجاً لكل شيء.. محتاجاً للهواء وللضوء وللأكل وللشراب.. بحيث يشعر الإنسان -دائماً- أنه لا يمكن أن يكون قد خلق نفسه، ولا يمكن أن يكون قد أعد لنفسه كل هذا المسرح بكل ما يحتويه من ضرورات أساسية ومن كماليات.. فتتحقق في حِسّه الضآلة والحاجة، ويتحقق في حِسّه الفقر.. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]..

ثم يأتي بعد ذلك مهانة التكوين البشري، ومهانة النشأة البشرية؛ سواء النشأة الأولى حينما نشأ من طين، أو النشأة الأخرى وقد نشأ من ماء مهين.. كلتا النشأتين لا تعطي الإنسان حق الاغترار ولا حق الاستكبار ولا حق الإحساس بذاته، وإنما هو كائن هزيل حقير ضعيف مهين، بدايته نطفة مذرة، ونهايته جيفة قذرة.. فهذا الإنسان من أين يأتيه الغرور؟ من أين يأتيه الإحساس بالذات؟ ذلك الذي أراد إبليس في أول الأمر أن يغر آدم بها.

هذه القضية لا بد أن تكون واضحة؛ قضية أن الإنسان.. هذا الكائن المخلوق.. لا بد أن يعرف خالقه.. هذه القضية الذي جاء الأنبياء ليعلموها للناس.. جاؤوا ليقولوا للناس: عودوا لربكم، أعطوا حق العبودية لخالقكم الذي تقرون به، والذي تؤمنون به، والذي تعيشون من نعمائه، والذي خلقكم بعد أن لم يكن الإنسان شيئا مذكورا، والذي يتحول بعد ذلك إلى أن يكون جيفة.. إن لله خالقكم عليكم حقا.. هذه هي مهمة الأنبياء.. وهذه هي مهمة الدعاة.. فليست القضية قضية حشد أدلة.. ولا قضية فلسفة، ولا جدل على مستوى الأساتذة أو الأكاديميين.. فالقضية تتميز بالبساطة السهلة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].. وكما خاطب الله عز وجل الناس في سورة الطور ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٩].. هذا الإله الذي يقول عن نفسه سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۞ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۞ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۞ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ [النجم: ٤٣-٤٨].. كيف تضحك؟ ما معنى أن تضحك؟ هذه قضية عندما يقف أمامها الإنسان يمكن أن يصاب بحالة من لوثة العقل.. لأنه لا يستطيع أن يفهم ما معنى الضحك، وما معنى أنه يستطيع أن يضحك، وما هو التعبير بالضحك لكي يفهم الناس أنني سعيد.. إنه هو الله الذي أضحك وأبكى، وكما أضحك هو الذي أبكى.. كيف نبكي؟ وكيف نضحك؟ هو الذي فعل ذلك سبحانه.. قضايا مباشرة يفهمها الإنسان الذي لا يعرف

القراءة والكتابة، ويفهمها العالم الكبير.. فهي قضايا بدهية لا تحتاج إلى نظر، ولا تحتاج إلى مزيد من إعمال العقل الفلسفي، وإنما تقتضي فقط إعمال العقل الضروري.. فتتحقق القضية.. فليس لنا من أنفسنا شيء، ولذلك يجب أن نكون عند ما يريده الله عز وجل.. بل أن نأوي إلى الله.. وهذه هي مهمة الأنبياء أن يدخلوا الناس إلى حظيرة الألوهية، وأن يُرجعوا العباد إلى رب العباد، إلى خالقهم، ويخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده..

فالذي أريد أن أقوله: إن كلمة إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ليست قضية سياسية.. فهي ليست قضية إخراجهم من شريعة إلى شريعة، ولا من نظام إلى نظام.. وإنما هي إخراجٌ من سلطان إلى سلطان.. ثم إن هذا الخروج إلى هذا السلطان لا بد أن يكون ممزوجا بالحب والإجلال، لذا فإنه لا بد منْ مزيد منَ التعرف على هذا المقام الكبير.. وهذا يتأتى من التفكر الطويل في النسبة والمسافة بين الخالق والمخلوق، بين البشر وبين الله سبحانه وتعالى..

فلا شك في أهمية أن ندرك ما هي روح الدعوة إلى الله عز وجل، والدعوة إلى سلطان الله وحاكميته.. فحينما يطالب الله عز وجل الناس أن يخرجوا من سلطان العباد وشريعتهم وتقاليدهم وأفكارهم وشرائعهم وقيمهم إلى سلطان الله وحاكميته لا بد أن نفهم أن القضية ليست قضية شكليات، ولا قضية نظم، ولا قضية شرائع فقط.. وإنما القضية قبل ذلك، وبعد ذلك، هي الإحساس بأن الإنسان هو أثر من كلمة "كن" التي شاءها الله سبحانه وتعالى.. فهو بكل كيانه.. بكل ما فيه من طاقات.. بكل ما فيه من قدرات عظيمة.. وبكل ما سُخِّر له من هذا الكون هو عطاء من الله، ونعمة من الله. هذا الشعور لا بد أن يسبق التعرف على حقوق الله وعلى شرائع الله.. فالإنسان لن يكون مؤمنا حقا إلا بعد أن يتعرف ابتداءً على الله، ثم يتعرف بعد ذلك على حقوق الله.. فيدخل من باب الإحساس بالضآلة أمام عظمة الألوهية.. فإذا أحس بذلك فإنه سيتلقى من الله كما ينبغي، ويتواضع لألوهية الله كما ينبغي.. ويتذلل ويخضع لهذه الألوهية... ذلك التذلل الذي يعني عدم القدرة على القيام بدون عون الله عز وجل.. وعدم الحركة بدون أمر الله عز وجل.. فليس هناك شيء في هذا الوجود يتحرك أو يقوم إلا بأمر من الله عز وجل.. هذا هو الذل.. وليس معنى الذل فقط هو معنى الخضوع.. أو معنى الانقياد.. فالبشر يأتون إلى الله أذلاء يوم القيامة لأنهم عرفوا حقيقة الألوهية بكافة عظمتها وضخامتها في ذلك اليوم، ولأنهم حينذاك يكونون قد عرفوا الحقيقة كاملة.

فالمطلوب منا في الدنيا أن نرتفع إلى مستوى هذا الإدراك.. الذل مع الله عز وجل بمفهومه الواسع، الذي يخرجنا من سلطان العباد، لأنهم ليس لهم حق علينا، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته.. وهذه قضية شعورية ابتداء.. فنحن لا نستطيع أن نقدم الإسلام للناس على أنه فلسفة، ولا على أنه مطلب اجتماعي، ولا على أنه مجرد نظم وشرائع.. وإنما نقدمه لهم ابتداء على أنهم عبيد لله.. عبيد بكل معنى العبودية.. ضئيلون بكل معنى الضآلة.. أذلاء بكل معنى الذل.. فقراء بكل معنى الفقر.. فإذا دخل الإنسان الإسلام من هذا الباب كانت بقية الأمور سهلة ميسرة.. أما إذا دخل من باب الجدل، أو من باب التعايش، أو من باب وزن التكاليف، أو من باب نفع هذه التكاليف، أو من باب أن الإسلام يحقق للناس السعادة.. فهذه القضايا كلها لا تدخل الناس الإسلام.. ولا تذيقهم طعم الإسلام..

الاستسلام لله يضمن التناسق بين الجانب الإرادي والجانب الفطري في الإنسان

"وفي هذا جاء الإسلام على يد محمد ﷺ، كما جاء على أيدي الرسل الكرام قبله.. جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس، فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده.."

وهذه قضية أخرى.. قضية أن الإنسان ليس هو المخلوق الوحيد.. فهذا الكون بكل ما فيه، مما نعلم وما لا نعلم ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].. هذا الكون كله خاضع لله عز وجل ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].. فعلى الناس أن يكونوا أذكياء، وأن يكونوا على مستوى الإدراك الإنساني الذي مُيِّز به الإنسان، وهو أعقل المخلوقات وأذكاها، بل هو سيد المخلوقات.. فإذا كانت المخلوقات كلها خاضعة لله عز وجل فلماذا يندّ هو عن هذا الخضوع؟ ولماذا يخرج عن هذا القانون؟ فلا بد أن يعرف الناس أنهم بما أنهم مخلوقون، وأن هذا الكون كله بما فيه مخلوق، فلا يجوز لهم أن يشذوا عن القاعدة العامة.. قاعدة أن هذا الكون عابد لله، ويجب أن يكونوا هم أيضا عبيداً لله كذلك الكون، فيتساوق الكل في نسق واحد. فما كان الله عز وجل ليخلق خلقا ليتمرد عليه أو ليشذ عنه أو ليستكبر عليه.. إنما خلق الخلق ليكون خاضعا لألوهيته.. وهذا هو معنى السلطة الشاملة الذي لا ينبغي أن تكون إلا لله عز وجل.. فلا يشذون هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذي يصرف الكون كله.. بل الذي يصرف وجودهم هم أنفسهم في غير الجانب الإرادي هو الله.. فالإنسان قلبه يدق لا يستطيع أن يوقف قلبه.. هذا القلب له طريقة معينة في النبض، وفي عدد النبضات التي ينبضها في الدقيقة.. ولا يتحكم في هذا إلا الله عز وجل، وكل شيء في هذا الإنسان مسخر لله، ومسلم له سبحانه وتعالى.. فالإنسان له جانبان.. جانب مستسلم لحكم قدري يغلبه، فهو لا يستطيع أن يغيره، شأنه في ذلك شأن كل الكائنات الأخرى التي استسلمت لله عز وجل.. والثاني هو الجانب الإرادي الذي ميز الله به الإنسان، والذي جعله تكريما له، وليس تقليلا من شـأنه، حينما جعله مسئولا عن أفعاله، وحينما أعطاه قدرة على التمييز، وقدرة على الاختيار، وقدرة على الرفض، أو قدرة على الطاعة.. وكل هذا تكريم للإنسان، وليس تقليلا من شأنه، وليس تقييدا له بمسئولية لا يقدر عليها.. فالله عز وجل حينما خلق الإنسان لهذه المهمة.. خلقه ليكون قادرا عليها.

فلا بد أن يعرف الإنسان مكانه وقدراته وطاقاته في هذا الكون.. ففيه جانب شأنه شأن بقية المخلوقات؛ جانب مستسلم لله تماما لا يستطيع أن يخرج عنه في حياته وموته.. في مرضه وفقره.. في خلقته وشكله ولونه.. فكل هذا أمر قدري لا يخرج عنه. وجانب آخر؛ وهو ذلك الجانب الذي كرمه الله به، وهو أن يكون مختارا.. يختار الله عز وجل عن وعي وعن حب وعن إجلال وعن ذل لله عز وجل، ليتحقق من خلال ذلك الجزاء الأكبر الذي جعله الله عز وجل لعباده المؤمنين.. فكما يقول الأستاذ سيد هنا عن ذلك القانون الفطري.. **"بل الذي يصرف وجودهم هم أنفسهم في غير الجانب الإرادي من حياتهم. فالناس محكومون بقوانين فطرية من صنع الله في نشأتهم ونموهم، وصحتهم ومرضهم، وحياتهم وموتهم،**

كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعهم وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها.." فحتى الحركة الاختيارية هي أيضا خاضعة للسنة الثابتة.. فإذا تحركوا بحركة اختيارية فهم راجعون في النهاية أيضا إلى قانون الله الذي يحدد عواقب هذه الحركة الاختيارية.. فالذي يختار أن يرمي نفسه من حالق سيتحدد مصيره من خلال سنة الله أيضا.. ليس هو الذي يقرر أن يسقط من حالق ثم لا يموت.. فهذه سنة إلهية.. فحينما يمتنع عن الأكل، أو يشرب أو يأكل زيادة عن حاجته باختياره.. فهو أيضا محكوم بقانون الله عز وجل.. فحتى الجانب الإرادي هو مردود في النهاية إلى قدر الله عز وجل، وهم لا يملكون تغيير سنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا الكون وتصرفه.. ومن ثم ينبغي أن يثوبوا إلى الإسلام في الجانب الإرادي من حياتهم، فيجعلون شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن من شؤون هذه الحياة، تنسيقا بين الجانب الإرادي في حياتهم والجانب الفطري.. وتنسيقا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني..

وفي الحقيقة هذا من أكبر الحوافز للإنسان أن يتبع دين الله عز وجل.. لأنه إذا اتبع دين الله فسيتم تناسقه. لأنه لا يمكن أن يتبع الله في حياته اللاإرادية -وهو خاضع بالضرورة لقوانين الكون وسننه في حياته- ثم يجعل حياته الأخرى الاختيارية مستقاة من مصدر آخر.. فهذه الحقيقة حافز حقيقي، وهي في ذاتها دليل على ضرورة أن يستسلم الإنسان لله، وأن يعبد الله عز وجل.. حتى وإن لم يُدع إلى ذلك فإنه كان عليه أن يتساءل: يا ربي ماذا أفعل في حركتي الاختيارية؟ فأنا هناك في حركتي اللاإرادية مطمئن لأنك أنت الذي تسيرني.. فكيف أصنع في حركتي الاختيارية؟ لماذا تتركني بلا دليل؟ هكذا كان ينبغي للناس أن يتساءلوا.

لكن الله عز وجل أكرمهم بأن أرسل رسله، وأنزل كتبه، وفطرهم على أن يشتاقوا إلى الله عز وجل، وأن يبحثوا عن الله سبحانه وتعالى، لكي يكونوا عبيدا له سبحانه، ولكي ينسقوا بين هذين الوجودين؛ بين الجانب الإرادي والجانب اللاإرادي.. فبغير هذا لا تتحقق حقيقة الوجود الإنساني كوحدة متناسقة ومتكاملة.

فإذا حدث هذا الفصل بين الجانب غير الإرادي والجانب الإرادي بأن سيَّر الجانب الإرادي إله وسيَّر الجانب غير الإرادي إله آخر فإنه لا بد أن يحدث الفساد والتصادم.. وهذا ما يحدث للبشر حينما يخرجون عن دين الله ويسلمون أنفسهم لآلهة أخرى.. فهم حينما يعبّدون أنفسهم للعباد، فإنهم يتخذون آلهة أخرى، والله عز وجل أمرهم بغير ذلك.. ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].. فهذا التنسيق هو تنسيق بدهي.. وهذا التوحيد هو توحيد بدهي.. والمفروض أن يسعى الإنسان إليه حتى ولو لم يُدع إليه، لأن هذا هو الذي يُحدث في نفسه التكامل، ويُحدث في نفسه التناسق، ويُحدث في نفسه السكينة وعدم التصادم بين جانبين، فلا يكون بين مطرقتين.. ولذلك يقول الله عز وجل في كتابه العزيز في سورة الزمر ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر: ٢٩].. لا يستويان.. لأنه حينما يكون الإنسان عبدا لإله واحد فإنه يتلقى أوامر متناسقة من إله واحد لا تتعارض، لأن الإله الواحد هذا لا يمكن أن يأمر أمرين متعارضين في وقت واحد.. لكن حينما يكون هناك إلهان أو أكثر فلا بد أن يحدث التعارض؛ هذا يريد له السعادة والآخر يريد له الشقاء، هذا يريده غنيا والآخر يريده فقيراً.. فكيف يعيش الإنسان.. ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].. فلا شك أن هذا التنسيق هو تنسيق فطري ينبغي أن يسعى إليه الإنسان.

ضرورة نشأة المجتمع المسلم

"ولكن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر للبشر، والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني، والتصادم بين منهج الجانب الإرادي في حياة الإنسان والجانب الفطري.. هذه الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة إلى الإسلام لله وحده، والتي واجهها رسول الله ﷺ بدعوته.."

واجهها بماذا؟ واجهها بالدعوة إلى الإسلام وحده.. لكي يخرجها عن هذا الشذوذ.. يخرجها عن التحاكم إلى غير الله.. لأن التحاكم إلى غير الله يسلمها إلى آلهة متعددة.. فهو يريد أن يخرجها وينجيها من التصادم بين الجانب الإرادي وبين الجانب الفطري فيها.. هذه الجاهلية واجهها كل رسول، فهذا كان دأب البشرية دائما حينما تجنح عن دين الله فتدخل في العبادة لشركاء متشاكسين، فلا بد أن يأتي رسول ليقول لهم: عودوا مرة أخرى إلى إلهكم الواحد لكي تنعموا بهذا التناسق، ولكي تنعموا بهذه السكينة، وتنعموا بهذا التوحيد، وتنعموا بهذا التواؤم والتناسق بين الجانبين، فيترتب على ذلك السعادة في الدنيا وفي الآخرة.

فكل رسول واجه الجاهلية بالدعوة إلى الإسلام وحده، وكذلك واجهها رسول الله ﷺ بدعوة هذه الجاهلية إلى الإسلام..
"هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في "نظرية" مجردة.. بل ربما أحياناً لم تكن لها "نظرية" على الإطلاق!.."
كانوا ينطلقون من أهوائهم، ولذلك كانوا يغيرون كل يوم في حياتهم بصورة أو بأخرى.. إنما كانت متمثلة في واقع حي.. في تجمع حركي.. في أناس، وفي مجتمع.. هذا المجتمع خاضع لقيادة، وخاضع لتصورات، وخاضع لقيم وتقاليد ومفاهيم ومشاعر وعادات.. **"هو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك -بإرادة واعية أو غير واعية- للمحافظة على وجوده، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أية صورة من صور التهديد."** هذا الكلام كله تمهيد إلى ضرورة أن ينشأ مجتمع مسلم، وهذا المجتمع المسلم لكي ينشأ لا يمكن أن ينشأ لكي يدعو إلى نظرية، وإنما لا بد -لكي ينشأ- أن يكون مجتمعا عضويا فيه كل مقومات الكيان العضوي.. وفيه كل مقومات الترابط العضوي، لكي يواجه كيانا عضويا آخر.. فالجاهلية لم تكن في يوم ما نظرية.. وإنما كانت واقعا عضويا حيا.. كانت مجتمعا مكونا من أفراد.. وهؤلاء الأفراد تربطهم علاقات، وتربطهم تصورات، وتربطهم فلسفات، وتربطهم أهداف، وتربطهم حقوق وواجبات، وتربطهم قوانين تنظم حياتهم.. ولهم أهدافهم ومصالحهم التي يعكفون عليها والتي يدافعون عنها.. ومن ثم لا يسلّمون فيها بسهولة.. وإنما يعيشون ليدفعوا عنها كل خطر يهدد هذا الوجود -سواء كانوا واعين أو غير واعين-.

هذا المجتمع الذي هذا شأنه؛ ما كان ليواجَه بنظرية مجردة كما يدعو كثير من الناس؛ أن نكتب ونؤلف كتبا نبين فيها الإسلام فقط.. وليس هذا ممكناً ولا صحيحاً في واقع الحياة، لأننا لا نواجه نظرية مجردة، ولا فلسفة فقط، وإنما نواجه واقعا، بكل

ما في هذا الواقع من عناصر الوجود وعناصر الحياة، وما في هذا المجتمع أو هذا الواقع من حرص على ذاته وعلى نفسه وعلى وجوده، وحرص على أن يرد كل خطر يهدد هذا الوجود.. هذا المجتمع لا يسلّم إلا إذا كان هناك قوة أخرى تواجهه، تأخذ نفس النمط؛ أن تكون مجتمعا عضويا حركيا، تتآلف أعضاؤه، وتكون بينهم تصورات ومفاهيم وعلاقات ومصالح، ويتكاتفون على رد الخطر الذي يهدد وجودهم..

ومن هنا كانت ضرورة نشأة المجتمع المسلم استجابة لدعوة الرسل، واستجابة لطبيعة الخلق الرباني لهم، ثم استجابة لتحقيق التناسق وعدم التصادم بين جانبهم الإرادي وغير الإرادي، ثم لكي يواجهوا المجتمع الجاهلي الذي لم يكن يوما ما متمثلا في نظرية فقط.. وإنما كان متمثلا دائما في مجتمع عضوي، له كل عناصر الكائن الحي، وكل مقوماته.

الجاهلية واقع حي وليست مجرد نظرية فلن تقوضها فكرة مجردة

الجاهلية لم تكن في يوم من الأيام نظرية مجردة، ولا يمكن أن تكون كذلك في أي وقت.. والجاهلية هي الوجه المقابل للإسلام.. وهي الواقع المقابل دائما للإسلام.. وهذه الجاهلية تتمثل دائما في واقع حي، فيه أناس يتحركون ويتدافعون، وينظمون أنفسهم، ويحرصون على ما يبدعون في حياتهم.. كما أنهم يحرصون أيضا على تحقيق أهدافهم التي تقوم على قيم وتصورات معينة، وتبدو من خلال سلوك معين. وهم ينظمون حياتهم ويخضعون نظامهم لتحقيق هذه الأهداف التي آمنوا بها، أو التي يريدون أن يكونوا عليها، ومن ثم فإنهم أحرص ما يكونون على الدفاع عن وجودهم من أي خطر يهدد هذا الوجود..

هذا التجمع العضوي الذي يسمى الجاهلية لا يمكن للإسلام حينما يريد أن يغيره أن يقابله بنظرية مجردة.. فالإنسان لا يستطيع أن يتغلب على خصم له إلا إذا كان في قوته أو أقوى منه.

والجاهلية تتمثل في واقع حي، يقوم على فلسفة أو نظرية، أو لا يقوم، وتحكمها قوانين وقيم تنظم عناصر هذا المجتمع، لأن الحقوق والواجبات لا تقوم إلا من خلال نظام.. فلا بد للجاهلية أن تكون منظمة.. حتى ولو كان الهوى هو أساسها.. وهو بالفعل أحد أساسيات كل جاهلية -كما سنبين فيما بعد- ولكن لا بد أن يكون هذا الهوى منظما بصور معينة ليتعامل الناس من خلاله بصور معقولة وثابتة، وبطريقة تحفظ للناس في الجاهلية حقوقهم وتحقق أيضا أمانيهم..

هذه الصورة الواقعية لا بد أن يقابلها الإسلام- الذي يريد أن يغير هذه الجاهلية ويقوضها- لا بد أن يواجهها بواقع حي أقوى من هذا الواقع.. وهذا ما يقوله سيد قطب في هذا النص الواضح:

"ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في "نظرية" مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية، ورد الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز -ولا يجدي شيئاً- أن تتمثل في "نظرية" مجردة. فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاً والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلاً على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي

منهجه وفي كلياته وجزئياته. بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلاً."

ولا شك أن هذه المحاولة ضخمة جدا، لأن من طبيعة أي محاولة أو أي فكرة جديدة أن تكون غريبة عن المجتمع الذي نبتت فيه.. بل تكون معادية له أصلا.. ومتناقضة مع أسسه وأهدافه ووسائله..

فوجود مثل هذه الفكرة وتطورها في هذا المجتمع يعتبر أمرا أقرب إلى المستحيل.. ولكن هذا المستحيل مطلوب أن يقوم به أصحاب الدعوة الإسلامية. بل إن البشر أيضا يقومون به حينما يؤمنون بفكرة ويريدون أن يشيعوها في وسط معاد.. يضحون كثيراً، وينظمون أنفسهم، ويبلغون هذه الفكرة وهذا الأمر. فإن كان مكتوباً لهم النجاح فإنهم سيصلون في النهاية إلى إلغاء الوجود القائم، وتغلب فكرتهم، ويسيطرون من خلالها.

وهذا قد حدث في التاريخ مرارا. وأقرب مثال لنا هو الشيوعية حينما قامت في روسيا.. وروسيا لم تكن هي البلد المرشح أيديولوجيا واجتماعيا، ولم تكن هي المهيأة لتقبل الشيوعية، لأن ماركس تنبأ بأن الشيوعية ينبغي أن تقوم في مجتمع صناعي، حيث إن النظرية قائمة أساسا على الصراع بين العمال ورأس المال.. وروسيا كانت قيصرية، وكانت مجتمعا زراعيا تعيش على صور قريبة من الإقطاع.. ولذلك لم تكن هي تلك البقعة من الأرض المرشحة لتقبل الشيوعية.. ولكن الذي حدث أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا الشيوعية في بريطانيا، فحاولوا أن يقيموها في روسيا.. ومن أجل أن يقيموها في روسيا بذلوا جهودا جبارة.. وضحوا تضحيات هائلة. والذي يقرأ قصة الأم لمكسيم جوركي يعرف كيف ضحى الشيوعيون، رجالا ونساء وأطفالا، صغارا وكبارا، بصورة يقف الإنسان أمامها معجبا بهذا القدر من الإصرار وبهذا القدر من التحمل والتضحية في سبيل إقامة هذا الصرح الباطل الذي عذَّب البشرية بعد ذلك حتى سقط.. فلا بد أن يحدث الصراع بين الفكرة الجديدة وبين الواقع الذي تريد هذه الفكرة أن تقوضه وأن تنتزعه من جذوره.. فإذا كانت هذه سنة بشرية لكل فكرة جديدة تنبت بين مجتمع معاد.. فالإسلام بفكرته التي سنفصِّل فيها هو أشد غربة وأشد بُعداً عن واقع الجاهلية وعن فكر الجاهلية وعن احتمال الجاهلية أن تقبله.. لأن الأفكار البشرية والجاهلية مهما كانت معادية للأفكار الجاهلية الأخرى.. فإنها تلتقي معها في مساحات واسعة، بل في واقع الأمر لا تكاد تغير من حياة الناس إلا في أشكال قليلة.. الشيوعي والرأسمالي كلاهما رجلان متحللان من كل القيم ومن كل الأخلاق، يتبعان شهواتهما، ولا يقيمان الحق، ولا يحرصان عليه.. فالإنسان الرأسمالي لن يخسر في مجاله الفردي شيئاً كثيراً.. قد يكون الاختلاف في المستوى المادي، أو في طريقة التعبير وطريقة الحرية أو شكلها.. لكن الواقع الحقيقي أن الإنسان لن يطَالَب بأن يتغير تغيرا جذريا من حالة الرأسمالية الذي كان فيها يعربد ويفسق إلى حالة شيوعية تجعله مثاليا.. بل إن الشيوعية تدعوه إلى مزيد من العربدة ومزيد من الشهوة.. بل تعطي له شرعية التحلل وسهولة التحلل كما نعرف.. فالشيوعية تحارب الأخلاق من جذورها، وتعتبر أن الجنس والأكل والشرب أشياء بيولوجية طبيعية لا بد أن تكون مشاعة بين الجميع، ونعرف أن الشيوعية في صورتها المثالية تعتبر الأولاد إنتاجا طبيعيا، بمعنى أنهم أولاد الدولة، وأن العلاقات الجنسية ينبغي أن تكون حرة، فإذا جاء أولاد فالدولة عليها أن تؤويهم لأن الدولة عليها أن تؤوي الجميع..

فالواقع أن الرأسمالي لا يفقد شيئا كثيرا في خاصة نفسه حينما يصبح شيوعيا، إلا تلك الصور التي يحرص عليها البشر من الغنى، أو من الكلام وحرية التعبير، كمطالب فطرية عند الإنسان تجعله يحس بكرامته وبحريته وبرغبته في التعبير عن نفسه.. هذا هو الفارق.. وهو ليس فارقا كبيرا كذلك الفارق الذي يحدث عندما ينتقل الرأسمالي أو الشيوعي أو الجاهلي -في أي صورة من صوره- لكي يكون مسلما.. حينئذ يحتاج أن يغير كل لبنة في وجوده.. فكل خلية في حياته لا بد أن تأخذ شكلا جديدا مناقضا تماما لما كان يمارسه هذا الإنسان في جاهليته..

فإذا كانت الفكرة الجاهلية الجديدة الغريبة تجد صراعاً ودفعاً من الجاهلية.. فما بالنا حينما تكون هي فكرة الإسلام التي تحول الناس من قيادة إلى قيادة، ومن أخلاق إلى أخلاق، ومن تصور إلى تصور، ومن واقع إلى واقع، يختلف اختلافا جذريا -كما يقول هنا- في كل شيء؛ في كلياته وجزئياته على السواء، حتى وإن تشابهت بعض الجزئيات فالتشابه عرضي، ولكنه مختلف في جذوره، ومختلف في مذاقه، ومختلف في طريقة أدائه، ومختلف أيضا في نتائجه.

فهذا هو الأمر إذن حينما تحاول أي حركة بعث إسلامية أن تقيم الإسلام وأن تنشر هذا الدين، فلا بد أن تواجه الجاهلية؛ ليس بفكرة مجردة، وليس بنظرية مجردة، ولكن بتجمع عضوي قادر على أن يحطم ويقوض جذور المجتمع الجاهلي. وهذا لا يتأتى إلا حينما تكون الحركة الإسلامية أقوى من المجتمع الجاهلي. لأن رد الفعل المساوي للفعل يجعلهما يقفان في نقطة متساوية فلا يتحركان، فلا بد أن تكون المقاومة أكبر من القوة لكي تغلبها.. فلا بد لرد الفعل الذي يريد أن يغير أن يكون ردا أقوى وأكثر قدرة وأكثر تأثيرا. ونحن نعرف أن المعارك الكبرى في التاريخ، والتي غيرت مجرى التاريخ، غيرته حينما استطاع الغالب في النهاية أن يكون عنده سلاح جديد أقوى من سلاح عدوه، وبذلك كسب المعركة.. فنوعية السلاح أهم جدا من كثرة الرجال أو خطط الأعداء.. فكذلك بالنسبة للحركة الإسلامية، لا بد أن يكون رد الفعل أقوى وأشد، لكي يستطيع أن يدفع الجاهلية إلى الوراء فتظل تتقهقر حتى تسلّم وتختفي..

هذه الحقيقة لا بد أن تكون واضحة، وأن تملأ كيان الإنسان المسلم؛ أنه ليس من الممكن أن يكون مسلما بدون أن يكون صاحب قوة تغير الواقع.. وهذه نقطة مهمة.

ومهم أيضا أن نفهم أن ما يظنه كثير من الدعاة إلى الإسلام من أننا لا يجوز أن نواجه الجاهلية بالقوة، ولا أن ندخل معها في معركة، لأننا لا نملك القوة التي نواجههم بها، وإنما ينبغي أن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة وأن نجادلهم بالتي هي أحسن، وأن نقف عند هذا الحد.. مهم جدا أن نفهم أن هذا تصور مرحلي، وتصور غير نهائي.. فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن هي مرحلة ضرورية تمر بها الحركة الإسلامية في وقت من الأوقات، ولكنها لا تقف عندها.. وإنما لا بد أن تنتقل منها إلى محاولة الإلغاء بالقوة مهما كانت صور القوة.. ولكن علينا أن نعرف -كما سنقول في فصل الجهاد- متى تكون هذه القوة ومتى تستعمل.. لكن أن يقف المنظرون للحركة الإسلامية أو للدعوة الإسلامية عند تصور أننا ينبغي أن ندعو الجاهلية إلى الإسلام بطريقة نظرية بحتة، أو كما يدعي ويقول بعض العلماء المحدثين أنه لم يعد هناك ضرورة للجهاد، ولا ضرورة لدار الحرب ودار الإسلام لأن الإذاعات الآن والإنترنت تقوم بتوصيل البلاغ والدعوة إلى كل إنسان، وأنه ليس في

إمكان الدول الآن أن تمنع الناس أن يسمعوا صوت الإسلام، والجهاد شُرِّع لكي يوصل هذه الحقيقة إلى الناس فما دام صوت الإسلام يصل إلى الناس فلا ضرورة للجهاد!!..

الجهاد شُرِّع لكي يزيل العقبات من أمام الناس ليسمعوا دعوة الحق، وكذلك -وهو الأهم- أن يزيل الطواغيت ويحرر الأرض من عبوديتها لغير الله، لأنها أرض الله وملك لله، والمؤمنون جنود الله يريدون أن يحرروا أرض مليكهم التي ينبغي أن يحرروها لتكون له وحده.. فالذين يقولون هذا جاهلون، أو سيِّئوا النية، أو هما معا.. وهذا الذي يقولونه كله قائم على أساس الهزيمة أمام الإلحاح المستمر من أعداء الإسلام أن الإسلام دين سلاح، وأنه انتشر بالسيف وبالقوة، وأننا في عصر الديمقراطية وعصر الحوار.. بينما الواقع الذي يمارسونه -كما نرى في كل مكان- هو عكس ذلك تماما، فهم حينما يريدون يضربون ضرباتهم، ولا ينتظرون من الناس أي رد فعل، ولا يقبلون أصلا ردود أفعال، ولا يكلفون أنفسهم حتى مؤونة الاعتذار والتعليل.. والذي حدث في البوسنة والهرسك، والذي حدث في كسوفو، والذي يحدث في ألبانيا، والذي يحدث في السودان وفي أفغانستان، والذي يحدث في كل مكان هو منطق القوة والغلبة.. وهو المنطق الذي يخرس الآخرين..

أما منطق الدعوة فقط الذي يخلو من القوة ويخلو من السند فإنه لا قيمة له، لأنه لا يعطي صاحبه الفرصة للغلبة.. فالذين يقولون هذا الكلام؛ هم في الحقيقة يسلمون الإسلام لأعدائه، ويسلمون المسلمين لأعدائهم، ويريدون أن يلغوا ما قرره الله سبحانه وتعالى وما شرعه..

قاعدة الإسلام النظرية "لا إله إلا الله" بمدلولها الشامل تمثل ثورة على الباطل

"والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام -على مدار التاريخ البشري- هي قاعدة: "شهادة أن لا إله إلا الله" أي إفراد الله -سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.. إفراده بها اعتقادًا في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة. فشهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم."

في كل ما يكتب الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- نجد تلك الروح التي يتميز بها.. روح صاحب الحق المؤمن بقضيته، المستعلي بها، الذي لا ينتظر من الناس أن يرضوا عنها أو لا يرضوا، أو أن يوافقوه عليها أو لا يوافقوه.. هو يريد أن يهديهم إلى الحقيقة.. يريدهم أن يرتفعوا إليها، ولكنه ليس مستعدا أن يساومهم عليها، أو أن ينتظر رضاهم عنها، ولا يهمه ازدراؤهم لها أو غضبهم عليها.. والتعبير الذي يقرره هنا بكل ثقة وبكل وضوح وبكل بداهة، على الرغم من معرفته أن هذه الكلمات أشد إيلاماً من الرصاص في صدور أهل الجاهلية، بل في صدور المتمسلمين الذين يتصورون الإسلام بصورة أو بأخرى؛ حينما يقول **"فشهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم."** هذا التعبير كان يعرف يقينا أن كل كلمة منه ستعطي الجاهلية المبرر الكامل من جانبها لأن تقضي على هذا الذي يتكلم بهذه الكلمات.. لأن هذه ليست مجرد ثورة أو انقلاب.. إنما هي

أكثر من ذلك؛ إذ هي نقض لكل الأسس الذي يقوم عليها المجتمع الجاهلي كله في هذا الوقت الذي كتب فيه هذا الكتاب، سواء كان المجتمع الجاهلي الكافر في الغرب، أو الوثني، أو الشيوعي، أو حتى تلك المجتمعات التي تلوك لا إله إلا الله بلا معنى ولا مدلول.. وكما عبر الأستاذ المودودي في أحد كتبه: لو أن الذي يؤذن كل يوم خمس مرات ويقول أشهد أن لا إله إلا الله.. لو أن هذا القائل يعرف معناها، ولو أن الذين يرددون وراءه ما يقول يعرفون معناها ما تركتهم الجاهلية يوما واحدا، لأن هذا إعلان يومي متكرر من أعلى مئذنة بالثورة على السلطان الأرضي وعلى الملك الأرضي وعلى الواقع الأرضي.. فلو علمت الجاهلية أن القائلين هؤلاء يعنون بهذه الكلمات إعلان ثورة وإعلان تمرد وإعلان انقلاب وإعلان تغيير ما تركت الذي يقول يقول ما يقول.. ولا الذي يردد يردد ما يردد.. ولكن لأن الجاهلية تعلم أن هؤلاء هازلون وعابثون، بل هؤلاء جاهلون بما يقولون فإنها تتركهم يقولونها ألف مرة لو شاءوا، وليس خمس مرات فقط..

هذا المعنى لا بد أن يكون واضحا في أذهاننا وفي قلوبنا؛ إن المسلم هو جندي لله عز وجل في هذه الأرض، جاء ليغير ويدمر ويقلب الباطل والفساد والفسق والفجور، ويطهر الأرض من هذا كله، بكل وسيلة من الوسائل؛ بالكلمة وبالفعل وبالسلاح وبالقوة.. وبغير هذا لا يكون جنديا مخلصا.. وبغير هذا لن يستطيع أن يقيم دين الله، ولا أن يحقق ألوهية الله في الأرض، ولا أن يقيم التوحيد في واقع الحياة..

وحينما ترى الأستاذ سيد يقرر ذلك.. نفهم أن ما يقصده بمعنى الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ليس هو المعنى السياسي البحت.. كما أراد بعض الناس أن يدّعوا أن سيد قطب وأبا الأعلى المودودي أرادا الإسلام السياسي، وأنهما تجاهلا معنى العبادة ومعنى النسك ومعنى التقرب إلى الله.. فكلمات سيد قطب في هذا الأمر واضحة؛ أنه يعني بشهادة أن لا إله إلا الله ما عناه الأنبياء تماما؛ وهي إفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.. وهو كلام واضح لا يعطي لأشد الناس غباء، وأشد الناس عداء أن يفهم منها غير ما أراد أن يقول.. فإذا بدلوا وغيروا فهذا دأب أعداء أي فكرة.. وهم يفهمونها جيدا، ولأنهم يفهمونها جيدا فإنهم يغالطون فيها عن قصد..

يقول سيد قطب شارحاً ما هو هذا الإقرار بالشهادة؟ **"إفراده بها اعتقادًا في الضمير"** إذن هي اعتقاد وليست مجرد قول باللسان، ولا إعلان لفظي فقط ليدخل به الإنسان إلى دائرة جموع المسلمين.. وإنما لا بد أن يكون اعتقادا في الضمير، **"وعبادة في الشعائر"** إذن العبادة والشعائر جزء أساسي من هذا الدين ومن هذه الشهادة، وأنه لا يتم للعبد أن يكون مسلما دون أن يكون متنسكا بالشعائر التي قررها الله عز وجل.. **"وشريعة في واقع الحياة"** فالذين يريدون أن يلوثوا هذا الفكر لن يجدوا لهم سندا فيما يدعونه أو فيما يقولونه..

"ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية.. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله، لا يقضون هم في أي شأن من شؤونها، ولا في أي جانب من جوانبها، من عند أنفسهم، بل لا بد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه.. وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه، وهو رسول الله. وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام الأول: "شهادة أن محمداً رسول الله"."

وهذه تكملة ضرورية، لأن الإسلام ليس فقط الإيمان بالله وحده وإعطاء السلطة لله وحده، وإنما أيضا لا بد أن نؤمن برسل الله جميعا، ونؤمن بخاتم النبيين محمد ﷺ، واعتبار أن كل رسول -وعلى رأسهم هذا النبي ﷺ- قد جاءوا ليبلغوا الناس ما أوحي إليهم، وأن الناس مطالبون أن يتبعوا هذا الرسول ﷺ، وكل رسول جاء ليقول لقومه

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠].. تلك العبارة التي تكررت على لسان كل رسول كما جاء في سورة الشعراء.. وكما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]..

الرسل جاؤوا ليردوا السلطة إلى الإله الواحد

أما ذلك التصور المهلهل؛ أن الرسل مهمتهم أن يبلغوا، وأن الرسل جاءوا ليقولوا كلمتهم ويمضوا، وليس مهمتهم أن يقيموا الإسلام.. فهذا تصور عبثي حاول البعض أن يوهم الناس به، إذ لم تكن رسالة أي رسول هكذا.. وإنما جاء كل رسول ليبلغ، ويصر على قومه أن يغيروا، ويواجه قومه حتى يفصل الله بينه وبينهم على أساس هذه القضية.. فحينما تكون شهادة الركن الأول من الإسلام هي شهادة أن لا إله إلا الله، فلا بد أن يكون معها شطرها الثاني: وأن محمدا رسول الله.. ليتحدد من خلال ذلك وسيلة التلقي، وهو الرسول ﷺ. وهذا يعني كما قرر الله ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].. ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].. فالقضية لا بد أن تكون مترابطة متماسكة هكذا، حتى تتحقق هذه الصورة البينة التي لا لبس فيها، والتي لا تحتاج -كما قلت- إلى حشد كثير من الأدلة. فإذا كنا قد قررنا -من الجانب العقلي البحت- أنه لا بد أن يكون لهذا الوجود سيد وخالق ومصرّف وحافظ ومالك.. فمن الطبيعي أن يكون هذا الخالق هو المسيطر والحاكم.. ومن مصلحة الإنسان، بل ينبغي أن يكون من مطالب الإنسان وقد نظم الله حياته في شطر منها وهو الشطر غير الاختياري أن يسأل الله عز وجل ماذا أفعل في حياتي الاختيارية.. هذا هو الطلب الطبيعي المنهجي العقلي الذي يطلبه الإنسان العاقل إذا أراد أن يعيش حياة متناسقة.

ولكن إذا حدث العكس؛ أن يقود وينظم حياة الإنسان اللاإرادية إله، وينظم الحياة الإرادية إله آخر.. فإن الإنسان سيتمزق.. ككل إنسان يُشَد بين قوتين، لا بد أن يتمزق.. فهذا هو التصور العقلي البدهي الفطري.

ونضيف إليه أن البشرية توافقت -دون اتفاق ودون اجتماع- على أن أي تجمع بشري لا بد أن يقوده قائد واحد، وأنه إذا قاده اثنان فإنه لا بد أن يفقد استقراره ويفقد أمنه ويفقد مصالحه أيضا.

وإذا كان هذا هو اتفاق الحياة البشرية؛ على أنه لا بد أن تكون هناك سلطة واحدة لها كل صلاحيات التنظيم والإدارة والتوجيه والإصلاح والعقاب.. وإذا كان هذا ضروريا لمصلحة الناس على أي مستوى من مستويات الاجتماع، فإنه يكون بديهيا كذلك ألا يكون لهذا الكون إلا إله واحد يسيطر عليه ويصرفه. فإذا ادعى الناس أن هناك آلهة أخرى، أو اتخذوا شركاء آخرين، فإنهم يغالطون أنفسهم ابتداءً، ويخالفون بدهيات اتفقوا عليها في واقع حياتهم، وهم يمارسونها في الواقع فعلا. لكن حينما يأتي الشياطين ليزينوا لهم هذا التعدد في السلطة فهم لا يريدون بهم خيرا، وهم في الحقيقة لم يستطيعوا أبدا أن يقولوا إن الشركاء جميعا في مستوى واحد. ففي كل الأديان المنحرفة كان هناك دائما التصور بوجود إله أكبر، هو المقرر لكل شيء، وأن الشركاء

الذين يدعونهم إنما يقومون بإعانة الإله الأكبر، أو يأتمرون بأمره في تخصصات هو يعرفها ويحددها لهم. وكان العرب حتى مجيء الرسول ﷺ رغم كل شركهم الواضح وأصنامهم الكثيرة وآلهتهم المتعددة كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.. وهذا تقرير واضح لهذه الحقيقة. وفي كل الأديان البدائية وغير البدائية -كما يقول أصحاب علم مقارنة الأديان- كان هناك دائما كائن أسمى وأعلى يدين له الناس في كل وقت.. ففكرة الكائن الأسمى فكرة تاريخية، وحقيقة تاريخية في كل القبائل البدائية وغير البدائية.. ولكنهم يشركون مع الله آلهة أخرى بالمعنى الذي حكاه القرآن ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].. فلم يكونوا يعطونهم أبدا حق الألوهية الكاملة! ولم يكونوا يسوّون بين الآلهة.. وحتى العقيدة المثنوية عند الفرس؛ كان عندهم إلهان.. إله الشر وإله الخير، أو إله الظلام وإله النور.. وكان إله الخير هو الإله الأقوى والإله الأحب إلى الناس، وهو الإله الذين يدافعون عنه ويتمنون أن ينتصر، ويكرهون إله الشر.. فالناس دائما بفطرتهم لجأوا إلى إله واحد يحبونه، ذلك أنهم لا يعتقدون -حقيقة- إلا بألوهية واحدة حقيقية.. فهذه الحقيقة.. حقيقة أن السلطان كله لله والحاكمية كلها لله قضية عقلية ابتداء، وبدهية ابتداء، وقد أتى الإسلام وأتى الرسل جميعا ليقرروا هذه الحقيقة، حتى يكون للناس مرجع من عند الله يرجعون إليه.. فيقوِّي ذلك من إيمانهم ويعينهم..

"هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها.. وهي تنشئ منهجاً كاملاً للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية في داخل دار الإسلام وخارجها، في علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى."

فيقوم على هذه القاعدة -كما سنتحدث في فصل آخر- منهج كامل للحياة، يغذي كل جوانب الحياة الإنسانية، ولا يترك منها ركنا واحدا خارجا عن توجيه هذه القاعدة، ولا عن تغذية هذه القاعدة.. فكل حياة الإنسان على الأرض لا بد أن تكون مستمدة ومستنبتة من قاعدة لا إله إلا الله.. وأي شيء يقوم ويستنبت على غير قاعدة لا إله إلا الله فهو باطل شرعا، وليس له شرعية وجود ابتداء، بصرف النظر عن شكله أو لونه أو منافعه أو مضاره.. فالإسلام لا ينظر إليه ابتداء لأنه لم يولد ميلادا شرعيا، وبالتالي فهو لا حق له في الوجود ابتداء..

فهذه القاعدة النظرية يقوم عليها بناء متكامل ليحقق أهدافه النهائية؛ وهو تعبيد الناس لربهم، وإقرار ألوهية الله في الأرض..

مدلول الجاهلية

وقبل أن ننتقل إلى ما يترتب على هذه القاعدة من وجود ومن حياة ومن قيم وتقاليد وعادات.. نريد أن نقف وقفة عند معنى الجاهلية ومعنى الإسلام، أو مفهوم الجاهلية ومفهوم لا إله إلا الله..

المنهج الإلهي وحده يحقق التوازن للإنسان

وابتداء نقرر -بكل يقين- أن حياة الإنسان في الأرض هي صورة من صور الازدواج. فالإنسان إما أن يكون حيا أو ميتا.. إما أن يكون مريضا أو معافى.. إما أن يكون سعيدا أو شقياً.. إما أن يكون مسلما أو جاهليا.. هذه هي الصورة الازدواجية التي تتمشى

مع خلقة الإنسان.. فهو كائن مزدوج الطبيعة.. قابل للشر ونقيضه.. يعتوره ويعتلج في كيانه وفي أعماقه تلك الازدواجية باستمرار، وفي الجانب الإرادي منه تتصارع تلك الازدواجية باستمرار ليختار واحدا منها في كل وقت من الأوقات.. ففي كل وقت من الأوقات هو يختار.. ودائما هو على مفترق طريق.. ودائما عليه أن يختار؛ أن يكون في هذا الطريق أو في ذاك.. فالازدواجية هي طابع الإنسان.. والإنسان كما خُلق منذ البداية؛ نفخة من روح.. وقبضة من طين.. فهو يجمع بين جنبيه.. جانب معنوي وجانب مادي.. والإنسان يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الملائكة، بل قد يعلو عنهم.. أو ينزل إلى مستوى الحيوان، وقد يتسفل عنه. هذه الازدواجية هي طابع حياة الإنسان.. ولكي يعيش هذا الإنسان لا بد أن يمزج بين هذين الأمرين على نور من الله، وعلى ضوء ما اختاره الله له.

والله سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان حينما يواجه هذه الازدواجية سيقع صريعا بين قوتين دائمتي الشد نحو اتجاهين متعارضين.. ولكن الله عز وجل الذي خلق هذا الإنسان يعرف أن هناك طريقا ثالثا؛ وهو أن هذا الإنسان يستطيع أن يؤلف بين هاتين القوتين وهاتين النزعتين، ويجعلهما متكاملتين، ولا يجعلهما متصارعتين.. وحين يحدث هذا التكامل فإنه يكون في أقوى قوته وفي أكمل صورته..

والإسلام جاء ليحقق هذه المعادلة الصعبة التي لم ينجح فيها أي مذهب من مذاهب التاريخ البشري كله.. فالتاريخ البشري كله يحكي لنا أن المذاهب البشرية كانت دائما تنحو بالإنسان إلى أحد الطرفين وتخلصه لها تماما؛ إما أن تجعله ماديا شهوانيا حيوانا لا يرفع رأسه إلى السماء، وإما أن يكون إنسانا منعزلا بعيدا عن كل أشكال الدنيا، وقابع في مغارته أو في معبده أو في زاويته، لكي يمارس الجوانب المعنوية، ويعيش بالصورة المعنوية.

هذه الازدواجية التي هي طابع الإنسان تعين الإنسان أن يفهم موقعه في الأرض وموقعه في هذا الكون.. فهو ليس كائنا أحادي الاتجاه، ولا أحادي الطبيعة.. ومن أجل هذا لا بد ألا يقلد تلك الكائنات الأخرى ذات الطابع الأحادي.. وإلا فإنه سيسير في طريق غير طريقه، ولن يحقق ما خلق من أجله.

والله كان قادرا -إذا أراد- أن يخلق الإنسان أحادي الطبيعة؛ كالملائكة أو كالحيوانات.. أو في أي صورة من صور الأحادية شاء.. ولكن الله اختار للإنسان شيئا آخر.. اختار له ذلك الازدواج الذي رتب الله عليه مسئولية الإنسان، ورتب عليه أيضا كرامة الإنسان في الأرض، وكرامته في الآخرة..

والرسل كان من مهمتهم أن يحققوا في واقع البشرية ذلك التناغم والتناسق بين هذين الطرفين.. وبين هذين الجانبين.. وأن يحققوا -رغم الازدواج- التكامل، ويلغوا الصراع الدائم بين الإنسان وبين طرفيه أو جانبيه أو طبيعتيه.. فقضية إسلام العباد لرب العباد ليست بذلك المعنى المبسط المخل؛ أن يتلقوا شريعته أو أن يدخلوا في دينه فقط.. فالأمر أعظم وأجل وأخطر وأشمل من مجرد التدين أو مجرد الانتماء.. الأمر أكبر من ذلك لأنه دين الله، ولأن الله الذي خلق الإنسان حينما يختار له طريقا فإن هذا الطريق يراعى فيه كل الاستجابة لنوازع هذا الإنسان ولحاجات هذا الإنسان.. فمن أهداف هذا الدين ومن وظائف

رسل الله أن يأتوا ليرسموا لنا نموذجا من نماذج التكامل الذي استطاع أن يجمع بين طرفي المعادلة.. بين طرفي هذا الكائن اللذين يبدوان لأول وهلة أنهما متناقضان..

ولكننا نجد في سلوك الأنبياء أنهما ليسا كذلك.. وبالذات في سيرة نبينا ﷺ، والذي استطاع أن يجمع بين الأمرين في أجلى صورهما، وفي أجمل وأكمل صورهما كذلك.. فالرسول ﷺ هو النموذج الحي لهذا التوازن وهذا التناسق.. ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].. فلقد استطاع الرسول ﷺ في حياته أن يرسم لنا النموذج المتكامل للإنسان الكامل الذي لم يعطل وظيفة واحدة من وظائفه، ولم يعطل واحداً من نوازعه.. فكما أنه كان أعبد الناس.. فقد كان يأخذ من الدنيا بقوة وبتذوق وباستمتاع.. وكما كان الرسول ﷺ يجاهد البطالة وصور الترف وصور السخافات الموجودة في الجاهلية.. فكذلك كنا نراه إنسانا يتذوق الجمال ويحب الجمال، ويفرح بالجديد، ويتعامل مع صور الجمال الموجودة في هذا الكون بأجمل مشاعر وبأجمل تعبير.. فهذا الرسول الكريم ﷺ جعله الله أسوة.. ليس أسوة فقط في خلوصه لله، وليس أسوة فقط في معرفته بدين الله، وليس أسوة فقط في توحيده لله عز وجل.. ولكنه أسوة أيضا في قدرته على المزج الرائع الذي كان يؤديه بين جانبيه.. الجانب المعنوي والجانب المادي.. الجانب البشري والجانب الروحي..

فحينما نتحدث عن طبيعة الازدواج في الإنسان لا بد أن نتابعه في كل ركن من أركان الحياة الإنسانية.. ومن هذا الازدواج.. أن الإنسان كما قال الله عز وجل ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٨-١٠].. وكما قال الله عز وجل ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].. وكما قال الله عز وجل في سورة التغابن ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢].. وكما يقول في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].. هذه صور الازدواج في عالم الاعتقاد.. في عالم السلوك.. في عالم اختيار الطريق الذي يختاره الإنسان..

وأمامه أيضا طريق مزدوج، فيه ظلام وفيه نور.. فيه إسلام وفيه جاهلية.. فيه إيمان وفيه كفر.. فيه سعادة وفيه شقاء.. فيه عز وفيه ذل.. هكذا الازدواجية تصاحب الإنسان في كل وقت.. والإنسان يقف دائما على مفرق طريق، ودائما هو مطالب أن يختار، ومطالب أن يعلم إلى أن يسير.. هل سيسير في طرف من طرفي الازدواج، أم أنه سيستطيع أن يجمع بين طرفي المعادلة..

فالإنسان أمامه طريقان في هذه الحياة.. إما الإسلام؛ أن يكون عابدا لله ومسلما أمره إلى الله، وإما أن يكون متمردا على الله. وعليه أن يختار هذا الجانب أو ذاك.. وحينما يختار الجانب الحق فإنه لا يفقد ما تحققه له الجاهلية من متاع ومن لذات ومن آفاق.. لأن كل ما هو خير في حياة الإنسان، أو كل خير تستطيع أن تحققه الجاهلية في حياة الإنسان فالإسلام يحققه له بطريقة أفضل وبصورة أكمل.. فهو حين يختار الإسلام فهو يحقق تلك الازدواجية بين عنصري كيانه، فيأخذ كل ما يريده وتريده الرغبات الإنسانية، ولكن تحت سلطان الله وتحت رحمة الله وتحت منهج الله..

فالإنسان أمامه هذا الازدواج؛ إما أن يكون مسلما، أو أن يكون جاهليا.. ليس هناك طريق ثالث يستطيع الإنسان أن يسير فيه.. فهو إما شاكر وإما كفور.. إما مؤمن وإما كافر.. إما مهتد وإما ضال.. إما أن يعيش في النور أو أن يعيش في الظلام..

ولذلك لا بد أن نقف وقفة عند مفهوم الجاهلية، ونقف أيضا وقفة عند مفهوم الإسلام بمدلوله الذي جاء به الأنبياء في صورته المبسطة وفي جوهره المبسط الذي ينبغي أن ندعو الناس إليه بصورة تقربه إليهم، وتجعله سهلا يفهمونه ويسيغونه أيضا..

مصطلح الجاهلية في القرآن وإسقاط ذلك على الواقع

الجاهلية تعبير أو صياغة من الصيغ التي وضعها القرآن الكريم.. فلم تستعمل صيغة الجاهلية المستخرجة من الجهل بصيغة الفاعلية هذه إلا في القرآن، وواضح أنها مستخرجة أو مشتقة من أصلها وهو الجهل.. والجهل في اللغة العربية ليس جهلا بمعنى عدم العلم أو عدم المعرفة فقط، وإنما الجهل قد يعني أيضا -كصورة من صوره- الإيذاء والشتم والسب وعدم احترام الآخرين وعدم إعطائهم حقهم، أو هو -في مجمله- عدم إعطاء الحق لأهل الحق بأن يسيء إليهم أو أن ينتقصهم.. كما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

فالعربي.. وحتى في كلمات الناس المتداولة حينما يسب إنسان رجلا يقال له: دعه إنه جاهل.. ولا يقصدون بجاهل هنا أنه لا يعرف، وإنما يقصدون أنه رجل من دأبه أن يؤذي الناس وأن يسيء إليهم..

فالجاهلية هنا مشتقة من الجهل، واستعملها لأول مرة القرآن الكريم.. ولذلك فإنه ككل مصطلح جديد يقابلنا في حياتنا لا بد أن نبحث عن معناه من خلال مصدره الأول الذي أنتجه.. فكما أن كلمة الديمقراطية حينما نريد أن نتعرف إليها فإنه يجب ألا نأخذها من تلك الشروح المعاصرة فقط، والتي تعطيها معان معدلة أو معان مزينة، لكن علينا أن نبحث عنها في مصدرها الأول اليوناني الذي اخترع كلمة الديمقراطية، وأقام في حياته واقعها.. فكلمة ديمقراطية كما نعرف جميعا أنها democracy أي سلطة الشعب، وهذه كانت قائمة في المدن اليونانية القديمة كإسبرطة وأثينا، فكانوا يجمعون أهل المدينة جميعا في أكبر ميدان في المدينة إذا أرادوا أن يقرروا شيئا مهما في حياتهم، فيعرضونه على الجميع، ثم يتناقشون فيه، ثم بعد ذلك يأخذون الأصوات عليه، ويمضون الرأي الذي أخذ أكثر الأصوات.. وهذا معنى أن يكون الحكم للشعب.. فسلطة الشعب هي التي تقرر الأمر في النهاية.. فكلمة democracy تعني سلطة الشعب.

وإذا كانت الديمقراطية هي سلطة الشعب، فمعنى ذلك أن يكون الإنسان هو صاحب الحاكمية في هذا المجتمع، فإذا كنا نفهم أن السلطة في الإسلام لله، فتكون الديمقراطية بهذا المصطلح وبهذا المدلول ليست قابلة للتوافق مع الإسلام، ولا يمكن للإسلام أن يتفق معها.. فحينما نرجع إلى المعنى الأصلي للديمقراطية يسهل علينا أن نرفضه، لأنه يتناقض تناقضا مباشراً مع أصل العقيدة الإسلامية؛ وهو أن يكون الحكم لله..

فالذين يروجون للديمقراطية الآن يحاولون أن يموهوا على الناس بقولهم إن الديمقراطية تعني فيما تعني العدالة والمساواة والشورى والتعبير الحر والنقد الحر، وأن يكون كل إنسان حرا في أن يقول ما يشاء.. فهم يخاطبون الناس من نقاط الحاجة التي يحتاجونها، والناس قد عاشوا تحت سيطرة الديكتاتوريات، فجاءت الديمقراطية لتنتشلهم من الديكتاتوريات..

الديكتاتورية والديمقراطية كلاهما يجعلان الإنسان هو السيد، ولكن في صورتين مختلفتين.. والإسلام يرى أن السيد هو الله، والناس عبيد لله.. هذان تصوران مختلفان تماما.. سواء كان ديمقراطيا أو ديكتاتوريا أو أي صورة من الصور الأخرى.. لكنهم حينما يخاطبون الناس بالديمقراطية لا يقولون لهم أن الحكم في الديمقراطية لغير الله، وأن التشريع فيها لغير الله، حتى وإن كان هذا حقيقة ويمارس في عالم الواقع، لكنهم يدخلون دائما للناس من ناحية الوجه الذي يزين لهم.. ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨].. فالشيطان مهمته أن يزين للناس أعمالهم.. فحينما نفهم الديمقراطية من مصدرها الأساسي فإننا نستطيع أن ندركها، ومن ثم تسقط تماما..

وهكذا فإن العودة إلى أصل كل مصطلح ومصدره ييسر لنا فهمه والحكم عليه كما رأينا آنفاً في مصطلح "الديمقراطية".

وكذلك مصطلح "الجاهلية".. فهو مصطلح قرآني، فإذا أردنا أن ندرك معناه فعلينا أن نعود إلى القرآن لنستفتيه في هذا المعنى.. والناس الآن يعرضون الجاهلية على أنها؛ إما مرادفة للتخلف، أو مرادفة لعدم العلم، وإما مرادفة للعصور الماضية التي وجدت في القرون المظلمة القديمة.. فإذا كانت الجاهلية بهذا المعنى فالعصر الحديث ليست فيه جاهلية.. فالعصر الحديث متقدم وغير متخلف، ولم تصل البشرية إلى العلم كما وصلت إليه الآن، ثم إننا نحن الآن -من الناحية التاريخية- في العصور المتنورة الحديثة.. فتصبح كلمة "جاهلية" إذن ممجوجة عند الناس، ويشعرون أنها رجعة إلى الوراء، ورجعة إلى التخلف، ورجعة إلى الجهل.. ثم إن القول بوجودها اليوم إنما هو كذبة كبيرة.. فكيف تكون جاهلية في عصر النور وفي عصر التكنولوجيا وفي عصر الديمقراطيات وفي عصر الحريات!؟ فمعنى الجاهلية إذن بهذا الشكل يسقط. ويصبح الذين يصمون البشرية الآن بالجاهلية ظالمين.. بل يكونون متخلفين.. بل يكونون أعداء لهذه البشرية.. لأنهم يصمونها ويكذبون عليها ويفترون عليها.. لأن الجاهلية ليس لها وجود الآن في حياة الأرض جميعا.. لأننا الآن لسنا متخلفين، ولسنا جهلاء، بل نحن نعيش في العصور المنيرة، والنهضات التي أضاءت وجه الأرض بقيم العدالة والتكافل والحرية..

حينما يكون العرض بهذه الطريقة لا شك أن صفة "الجاهلية" تكون ممجوجة، ولا يكون لوصف الجماعات المعاصرة بالجاهلية مكان..

ولكن هذه التعبيرات التي قالوها، وهذه التعريفات التي ابتدعوها ليست من الحق في شيء.. فهم قد حرفوها لكي يغلقوا باب الحقيقة فلا يطل على الناس حتى لا يكتشفوا مرارة الواقع، ولا يكتشفوا كلاحة الواقع، ولا انحطاط الواقع، فيصمونه بالجاهلية كما وصف الله عز وجل الأمم السابقة..

والله سبحانه قد وضع للجاهلية مفهوما معينا.. وإذا أردنا أن نرجع إلى القرآن سنجد أن القرآن قد **ذكر كلمة الجاهلية في أربعة مواضع في كتاب الله عز وجل**.. وفي كل موضع أعطى ملمحا من ملامح الجاهلية ومعلما من معالمها، بحيث إننا حينما نجمع المعالم الأربعة تبدو لنا حقيقة الجاهلية واضحة جلية لا تتلبس على أحد..

ففي **الآية الأولى** -بترتيب المصحف- في سورة آل عمران يقول الله عز وجل ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].. والظن في القرآن يأتي في الغالب بمعنى اليقين.. وليس بمعنى التردد والترجيح.. فيظنون هنا بمعنى يعتقدون،

كما جاء في القرآن في سورة الكهف ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].. يعني أيقنوا أنهم مواقعوها.. وجاءت لفظة "الظن" كثيرا في آيات القرآن بمعنى اليقين، إلا إذا كان هناك قرينة كما جاء في سورة يونس وفي سورة النجم ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨].. لكن الأغلب في الاستعمال القرآني أن "ظن" تأتي بمعنى اليقين. فلفظة "يظنون" هنا بمعني "يعتقدون".. يظنون بالله غير الحق، أي يعتقدون في الله غير الحق.. وهذا تقرير وحكم على أن اعتقاد الجاهلية مخالف للحق.. هذا الاعتقاد الذي وصفه الله أنه غير الحق هو ظن الجاهلية.. فالآية الأولى تقرر أن الجاهلية لها اعتقاد، ولها فلسفة، ولها فكرة، ولها تصور، ولكن هذا التصور هو غير الحق.. وهذا هو المعلم الأول، أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

ولا شك أننا حينما نستعرض تاريخ الفكر البشري الضال البعيد عن النبوات نجد أنه كله فكر ضال، وأنه اعتقاد بغير الحق، وظن من الجاهلية.. ولو ضربنا مثلا واحداً من تاريخ الفكر البشري الضال سنرى كيف أن أكبر العقول -كما يقولون- لم يستطع أن يتعرف على الحقيقة حينما استعمل عقله بعيدا عن وحي الأنبياء.. ذلك هو أرسطو الرجل الذي مازالوا يقولون عنه أنه المعلم الأول، والذي تستقي منه أوروبا حتى الآن كثيرا من مفاهيمها، ويضعونه في مقام معلم البشرية الأول أو العقل الأكبر الذي أنتجته البشرية.. هذا الرجل حينما تحدث عن الله عز وجل وجدناه يقرر بأن هناك ما يسمى بواجب الوجود، وهو تعبير الفلاسفة عن الله عز وجل، أو عن علة الوجود الأولى، فهي واجبة الوجود، أي قديمة باقية قائمة بذاتها. فهو يقرر أن هناك واجب الوجود، وأنه يتصف بالكمال المطلق.. وهذا حق في ذاته. ولكنه يقول إن واجب الوجود هذا، أو هذا الكامل، لم يخلق الكون.. إذن كيف جاء هذا الكون؟ هذا الكون -كما يقول- ظهر إلى الوجود شوقا إلى الكمال.. وفي نفس الوقت يقول: هذا الكون قديم!! تناقض في عبارة واحدة.. كيف أنه وجد شوقا إلى واجب الوجود أو شوقا إلى الكمال المطلق أو شوقا إلى الله.. فمعنى أنه وجد أو ظهر أنه كان عدما ولم يكن موجودا.. ولكنه يقول إنه قديم.. فأرسطو عنده قديمان.. واجب الوجود، والكون... فكيف يكون هناك قديمان أولا، ثم كيف يسمي المحدث بأنه قديم؟

ثم أن هذا الإله أو واجب الوجود هذا لا يعرف إلا الكليات.. لا يعرف مفردات الأشياء.. فهو يعرف أن هناك كونا ولكنه لا يعرف عناصره، أو إذا عرف عناصره الكلية فعرف أن هناك خلقا اسمه الإنسان.. لكنه لا يعرف أفراده!! فهو بذلك يُفقِد الله سبحانه صفة من صفاته؛ وهي العلم. فهذا أكبر العقول التي أنتجتها أوروبا -والتي تدندن حوله وتمجده- يخبط في التيه ويأتي بالمتناقضات.

ويأتي بعده أفلوطين، وهو فيلسوف الإسكندرية، وهي المدرسة الثانية التي تأثر بها الفكر البشري تأثرا كبيرا. ونستطيع أن نعيد كثيرا من الفلسفة والتصوف والتشيع إلى هذا الأصل الذي يسمى الفكر الاستشرافي، والذي كان سمة فكر مدرسة الإسكندرية..

جاء أفلوطين هذا لينزّه واجب الوجود تنزيها أكبر.. فيقول: أن واجب الوجود يتسم بالكمال المطلق، وأنه يغاير الحوادث، ويغاير جميع الموجودات الأخرى.. ولذلك فلا يجوز أن يتصف بالعلم، لأن الموجودات عالمة، ولا يجوز أن يتصف هو بما تتصف به الموجودات، فهو لا يعلم حتى ذاته.. أرسطو كان يقول إن سبب عدم انشغال واجب الوجود بالتفاصيل لأنه من الكمال لله أو من الكمال لواجب الوجود ألا ينشغل إلا بأفضل الذوات فهو منشغل بذاته ولا ينشغل ببقية الذوات الناقصة.. فهو منشغل

بذاته، ولذلك فهو لا يدري شيئا عن الوجود الآخر الناقص لأن واجب الوجود لا يجوز أن ينشغل إلا بذاته الكاملة.. ثم جاء أفلوطين لينزهه أكثر، فيقول إنه لا يعلم حتى ذاته، لأن العلم صفة بشرية، ولا يجوز أن تتمثل صفة بشرية في واجب الوجود، فهو لا يعلم حتى ذاته..

فهذه صور من قمم الأفكار البشرية في تصورها لله عز وجل.. وهذا هو اعتقاد الجاهلية.. اعتقاد غير الحق

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الآية الثانية في ترتيب المصحف.. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].. وهنا أسند الله عز وجل للجاهلية حكما، فكما أن للجاهلية اعتقادا فإن لها أيضا حكما، لأن من طبيعة المجتمع البشري ألا يعيش بدون حكم وبدون نظام.. فالله عز وجل يسأل سؤالا استفهاميا استنكاريا ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].. إذن هناك حكمان.. حكم الجاهلية، ويقابله حكم الله.. وهو -سبحانه- يقرر أنه لا ينبغي للناس أن يقبلوا حكم الجاهلية، ولا أن يرضوا بحكم الجاهلية.

وهذه الآية جاءت تعقيبا على تقرير الله عز وجل ثلاث مرات بأن من لم يحكم بشرعه فهو خارج عن دينه سبحانه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۞ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ۞ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤-٤٧].. ثم يقرر بعدها.. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].. إذن هناك حكم باطل للجاهلية، كما أن لها اعتقاداً باطلاً كما قرر قبل ذلك.. وأن هناك اعتقاداً حقاً وهو الاعتقاد الذي جاء به الأنبياء، وحكماً حقاً وهو ذلك الذي أمر الله به وجاءت به الأنبياء..

والآية الثالثة في سورة الأحزاب ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣].. وهنا وصف الجاهلية أنها نظام اجتماعي منحل متبرج.. والتبرج هو شدة الظهور والوضوح والسفور.. كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] أي في مكان عال واضح أمام الناس.. فمن سمات الجاهلية التبرج.. ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣].. فالتبرج سمة من سمات الجاهلية، والتبرج في الحياة الإنسانية هو الخروج عن الفطرة.. وهو البعد عن تكريم الله عز وجل للإنسان، بالانسلاخ عن الفطرة الإنسانية التي كرمها الله..

وحينما تذكر كلمة "تبرج" يتبادر إلى الذهن دائما تصور المرأة حينما تخرج بفتنتها متبرجة لكي تفتن الرجال كي يسقطوا في حبائلها.. فمن هنا نُهيت المؤمنات عن التبرج كما تتبرج نساء الجاهلية، وهذا المعنى -وإن كان خاصا بالنساء- لكنه ليس وقفا عليهن.. فالتبرج إذا أخذناه بمعناه؛ وهو الخروج عن الفطرة، فسنجد كما أن النساء يخرجن عن الفطرة ببيان مفاتنهن

ودعوة الرجال إليهن وإشاعة الفاحشة واستغلال كل مفاتنهن لإفساد المجتمع، فكذلك الرجل يتبرج؛ يتبرج في مشيته، ويتخلع في سيره، ويتبرج بالكلمات البذيئة، ويتبرج بالأفعال البذيئة.. فكل هذا تبرج، لأنه مخالف للفطرة، ومخالف لما هو صحيح، ومخالف لكل ما يكرِّم الإنسان في حياته.. فكما أن المرأة تتبرج بالكلمة وبالمشية.. وبالشكل، وبالموضة، وبالمساحيق.. فكذلك الرجل يمكن أن يتبرج بالمشية، وبالكلمة، أو بالتصرفات والأفعال.. ولذلك نجد الرسول ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال[٥]، لأن الإسلام حريص جدا على أن يظل كل جنس متكامل بصورته التي خلقه الله عليها ليؤدي وظيفته التي خلق من أجلها.. فيحب للرجل أن يكون رجلا، يتميز بالرجولة والقوة والخشونة والعقل والاستقلال، وتتميز الأنثى بالنعومة والأنوثة والطراوة والتبعية.. فإذا حدث خلط بأن تخنث الرجل وتشبه بالمرأة في طراوتها وفي نعومتها.. وتشبهت المرأة بالرجل في شدته وخشونته.. فسدت الفطرة وفسد المجتمع، وفسدت سنة الحياة كلها واضطربت نتيجة لهذا.. فالإسلام يحرص على أن يكون كل طرف متميزا ونقيا نقاوة كاملة ليؤدي وظيفته.. فيكون الرجل رجلا، وتكون الأنثى أنثى.. وتأتي الجاهلية لتفسد هذا الأمر فتخنث الرجل وترجّل المرأة، وتفسد الفواصل الذي بينهما، لكي يصبح الإنسان والمجتمع الإنساني كله مجتمعا متميعا. وكما قالوا إن هناك جنسا ثالثا في طريقه للظهور، جنس لا هو امرأة ولا هو رجل!!

إذن من صفات المجتمع الجاهلي أنه مجتمع منحل ومنحط اجتماعيا، وفاسد الفطرة، لأنه يحول دون استقامة الإنسان، ويحول بين الإنسان واستعداده لتلقي أنوار الحق حينما يمسخه مسخا كاملا، وبالتالي تتميع الفواصل بين الرجل والمرأة.

وكما نرى في بلاد الغرب الآن أن الشذوذ معترف به ومقنن، بل يُسمح بالزواج بين الشواذ، وهناك كنائس مخصوصة لتزويج الرجال بالرجال والنساء بالنساء، بل نجد في هولندا -مثلا- تعرض أفراح الزفاف بين رجل ورجل وبين امرأة وامرأة في التلفاز، ويكون حفلا متكاملا كأي فرح من الأفراح.. بل ويعطونهم إعانات المتزوجين ككل امرأة ورجل متزوجَيْن، وفي فرنسا تبحث الحكومة إصدار قانون بإعفاء المتزوجين الشواذ من الضريبة كباقي الأزواج، والاعتراض على القانون يأتي من أن المتزوجين يعاملون معاملة فرد واحد، وبالتالي ستنقص ضريبة فرنسا كثيرا حينما يتزوج رجل برجل أو امرأة بامرأة، فتسقط ضريبة واحد منهما، وهذا يعود بالخسارة المادية على فرنسا.. فالقضية لديهم قضية مادية، وليست قضية أخلاقية..

فالجاهلية إذن مجتمع منحل متبرج، والنظام المنحل هذا في الجاهلية يقابله في الإسلام نظام الحجاب.. والحجاب ليس هو -فقط- حجاب المرأة.. فليس هو مجرد إخفاء المرأة لمفاتنها بحيث لا تلبس ما يصف أو يشف.. الحجاب نظام كامل.. نظام يحدد العلاقات بين عالم المرأة وعالم الرجل.. فيدخل في نظام الحجاب الاستئذان، والسلام، والتعامل مع المرأة، وحقوقها، وواجباتها، وحقوق الرجل، وواجباته.. فكل هذا يدخل تحت نظام الحجاب الذي يحدد العلاقة والتعامل بين الرجل وبين المرأة.. وهذا النظام الإسلامي -نظام الحجاب هذا- يحافظ على رجولة الرجل، وعلى أنوثة المرأة.. على دور الرجل وقوامته، وعلى تبعية المرأة وأمومتها.. ويحافظ أيضا على أن يظل جنس الرجل جنسا مذكرا وجنس المرأة جنسا مؤنثا، لتتم سنة الله التي يتولد منها الجنس البشري والنوع البشري، ليبقى هذا النوع البشري، مع المحافظة على كل المتعة التي يريد الله للإنسان أن يتمتع بها، في جو نظيف غير مختلط لا يؤدي إلى اختلاط الأنساب، ولا يؤدي إلى النزاع على المرأة، ولا القتال

---

٥ أخرجه البخاري وأحمد من حديث ابن عباس.

حول الشرف كالذي يحدث في الجاهلية.. فالمجتمع المسلم -أو النظام الإسلامي؛ نظام الحجاب- يعطي للإنسان كل المتاع في صورة نقية نظيفة خالية من كل الأوضار والأوشاب التي تعيشها الجاهلية، والتي تشكو منها الجاهلية العاقلة -إن كانت هناك جاهلية عاقلة- فهم يشكون من ذلك الفساد المُر الذي يعيشونه، ومن هذا المستوى المنحط المقزز الذي يمارسونه، والذي لا يشبعون فيه، فيجددون كل يوم في أشكال المتعة بصورة أو بأخرى، حتى شاع بينهم الزواج الجماعي والحفلات الجماعية التي يرتكبون فيها الزنا، وشاع بينهم تبادل الأزواج، إلى غير ذلك من فساد وشذوذ.. كل هذا لكي يجددوا بحثا عن المتعة بعد أن ضاقوا بالنوع القديم.. بل إن المحرمات أيضا كادت أن تتلاشى في المجتمع الأوروبي الآن، فلم يعد هناك تقزز من علاقة الرجل بابنته، ولا الولد بأمه ولا بأخته.. وقد قاموا فعلا في السويد بإباحة زواج الرجل بأخته.. وهم دائما يسبقون القوانين، بأن يتعارفوا عليها، فيشيع الأمر، فإذا أصبح عرفا قننوه.. وهم يعرضون ذلك في التلفاز بصراحة كاملة، ويطالبون بأن يكون الأمر مشروعا ومقننا، فلا يعارض ولا يحارب.. فهذه هي الجاهلية..

وقد بدت هذه الصيحات المنكرة تجد طريقها إلى البلاد التي ترفع الإسلام شعاراً وتتنكر له واقعاً وذلك عبر القصص التي تسمى "أدباً واقعياً" والتي صارت تجد لها مساحات واسعة في منتديات ومدونات الشبكة العنكبوتية "الإنترنت".

فالجاهلية -إذن- لها اعتقاد خاطئ وضال، ولها حكم خاطئ وضال، ولها أيضا نظام اجتماعي متفسخ ومنحط، ومصادم للفطرة البشرية، ومؤد إلى تمزق الكيان الإنساني فردا وجماعة..

والآية الأخيرة التي تتحدث عن الجاهلية هي قول الله عز وجل في سورة الفتح ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٢٦].. وهنا نأتي إلى آصرة الترابط بين المجتمعات الجاهلية بعضها مع بعض، أو بين الأفراد الجاهليين بعضهم مع بعض.. فالحمية العصبية، ورابطة العنصرية -عنصرية اللون، عنصرية اللغة، عنصرية المصالح، عنصرية التراب، عنصرية الأرض، أو أي رابطة عنصرية من هذه الروابط- هي التي تربط الجاهلية بعضها ببعض، فيتحاربون فيما بينهم من أجل الأرض، ومن أجل الجنس، ومن أجل اللون، ومن أجل اللغة، وهذه كلها روابط لا تؤدي إلى تجمع الجنس البشري، بل تؤدي إلى تناحره وتفتته، لأنه من الممكن أن يصل التعصب إلى أن تحارب كل أسرة الأسرة التي تضادها فتتفتت البشرية إلى أفراد لا يجمعهم شيء، لأن الأمر يصل في النهاية إلى أن يدافع كل فرد عن نفسه ضد الأفراد الآخرين جميعا -كما يقول جان بول سارتر في قصته "الجحيم هم الآخرون"- فهو يرى أن الآخرين هم الأعداء.. فالفلسفة الوجودية التي جاء بها جان بول سارتر تعني أن يكون الإنسان فردا أنانيا، يفعل ما يشاء، ويحقق لذته بأي طريقة حتى لو كانت على جماجم الآخرين.. وهذه قمة العصبية الجاهلية التي تمزق كل الأواصر، فيبقى الإنسان فردا يفعل ما يشاء، ويتلقى أيضا جزاءه نتيجة لهذا التفرد بأن يُقتل ويُسحق.. ولكنه يكون قد عاش ولو لحظات فرداً، وأدى متاعه الفردي بحرية كاملة، لم يخضع للآخرين الذين يراهم هم الجحيم بعينه، لأنهم يقفون ضد شهواته وضد ذاته..

وأوروبا تحقق هذا المعنى بصورة أو بأخرى.. فحينما يتجول الإنسان في الحي اللاتيني في باريس.. يجده حيا مشوها، ولا تحس أنك أمام كائنات إنسانية.. وإنما تجد أن هناك مُسَخا لا تستطيع أن تصفها.. رجال ونساء لا يجمعهم شيء إلا الشهوة التي يريد كل منهم أن يحققها بطريقته الخاصة.. فتجد الذي يمشي عاريا، والذي يمشي وقد حلق نصف رأسه، والذي يغطي

صدره ويمشي ببقية جسمه عاريا، والذي يسكر ويحتضن عمود النور على أنه امرأة.. أشكال وألوان من الفساد والانحلال والهوس والجنون تشعر معها أنك دخلت مباءة منتنة.. أو دخلت حظيرة حيوانات.

هكذا تكون روابط الجاهلية، روابط من طبيعتها أن تفرق ولا تجمع، لأنها تجعل رابطة التجمع بين الناس هي الأرض أو اللون أو الجنس أو اللغة، أو أي رابطة من روابط هذه الأرض.

وطبيعة هذه الروابط أنها مفرِّقة، وأن الإنسان مجبر عليها، فهي ليست روابط اختيارية، إنما هي روابط إجبارية. فالإنسان لا يستطيع أن يغير مكان مولده، ولا أن يغير لونه، ولا التراب الذي نشأ عليه، ولا أن يغير الجنس الذي ينتمي إليه.. وهذه روابط الحيوان في الحقيقة وليست روابط الإنسان.. فالحيوان وحده هو الذي يرتبط بمجال معين وبحدود معينة يعيش فيها، وبطعام معين يأكله.. فحيوانات القطب لا تستطيع أن تعيش في الخط الاستوائي، أو العكس.. وبينما الإنسان هو ذلك الكائن المتحرر من كثير من القيود، وهو الذي رزقه الله عز وجل تلك المرونة والقدرة على التواؤم مع الأجواء المتعددة ومع الأوضاع الكثيرة.. فجَعْل تلك الروابط الحيوانية هي الرابطة التي ينتمي ويلتقي عليها الناس جهل وخطأ كبير، فهم لا بد متفرقون..

من أجل هذا كانت العصبية مرفوضة في الإسلام.. يقول الرسول ﷺ (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)[٦]، وقال للأنصار حينما تعاركوا فيما بينهم بعد أن أشعل اليهود بينهم الحمية بتذكيرهم بما قيل في حرب بعاث (ما بال دعوى الجاهلية.. دعوها فإنها منتنة)[٧].

ولا شك أن آصرة التجمع المقابلة في الإسلام هي العقيدة، وهذه العقيدة تربط البشر جميعا بإله واحد.. كلهم متساوون أمامه، والتفاضل بينهم بالتقوى. أما حواجز اللغة والمكان والشكل واللون والجنس فكلها يضعها الإسلام تحت قدميه، ولا يجعلها أبدا مفرِّقة بين الناس. فالعقيدة الإسلامية هي التي تجمع الناس على الله سبحانه وتعالى، وتجعل التفاضل بالتقوى، فلا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، ولا يترتب في الإسلام على اللون ولا اللغة ولا المكانة ولا الوراثة ولا النسب ولا الحسب أي شيء، وإنما يتساوى الناس جميعا أمام الله، وحقوقهم واحدة، وإنما يتفاضلون بالتقوى التي تحدد مقامات كل واحد منهم ومنزلته.

وكون التقوى هي آصرة التجمع، وهي القيمة التي تفاضل بين الناس، هذا في ذاته يؤدي إلى تجمع الناس، ويؤدي إلى ترابط الناس؛ لأنه حينما يتقي الناس الله عز وجل فإنهم يتحابون ويتعاونون ويشيع بينهم الإيثار، ولا يعتدي بعضهم على بعض، ولا يظلم بعضهم بعضا.. فينشأ من خلال تقوى الأفراد خير المجموع، وتتحقق بذلك الصورة المثالية، أو المجتمع المثالي، أو المدينة الفاضلة التي يسعى إليها الفلاسفة، ويشتاق إليها الناس، وهي لا تتحقق إلا من خلال هذه الآصرة الوحيدة للتجمع؛ وهي العقيدة، ومن خلال أن يكون التفاضل بالتقوى. وهذه لا يدخل فيها عائق آخر غير الإنسان ذاته، فالناس جميعا يستطيعون أن يغيروا انتماءاتهم، ويغيروا عقائدهم وأفكارهم، وأيضا يتحكمون في التزامهم أو عدم التزامهم.

٦ رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم -رضي الله عنه-.

٧ متفق عليه من حديث جابر -رضي الله عنه-.

لكن الناس لا يستطيعون أن يغيروا ألوانهم ولا أماكن ولادتهم ولا أجناسهم.. فنجد أن الرابطة التي يجمع الله الناس عليها رابطة تليق بالإنسان المخيَّر، والإنسان المكرَّم، الذي يختار بنفسه طريقه، ويختار بنفسه مكانته.. بينما الجاهلية تضع العراقيل ابتداءً على تجمع الناس، وتضع أيضا الأسافين التي تؤدي إلى الصراع وتؤدي إلى التباغض والتحاسد والتفرق.

وقد أرادت الشيوعية أن تكون عقيدة تجمع الناس، فلا يفرق بين الناس اللون ولا الجنس، وإنما تجمعهم على عقيدة واحدة.. ولكن هذه العقيدة في ذاتها كانت قائمة على الصراع بين الطبقات، وقائمة على إثارة الحسد والحقد والحنق بين الناس.. ومن ثم فهي عقيدة مسمومة تؤدي إلى التصادم، كما أنها تلغي القيم وتلغي الأخلاق.. وتعتبر أن الشيوعي النقي هو الذي لا أخلاق له، وبالتالي تدق في نعشها ابتداء مسمار موتها ودمارها..

الجاهلية التي وردت في الآية الأخيرة تعبر عن العصبية المنتنة، وعن العنصرية، وتعبر عن كل أسباب التفرق وأسباب التشرذم وأسباب التصارع.. وهذا بذاته يصادم مصلحة الإنسان وأمن الإنسان في الأرض..

ولا شك أن الحضارة الإنسانية تقوم على أساس الأمن، وعلى أساس العدل. فإذا كانت الجاهلية تقيم حياتها على أساس الظلم والتباغض فإنها تعرِّض الحضارة الإنسانية إلى الهدم والضياع.

وحينما نجمع ما أوحت به هذه الكلمة التي جاءت في القرآن الكريم وهي "الجاهلية" من خلال الآيات الأربع التي وردت في كتاب الله عز وجل سنجد أنها تعبر عن: الاعتقاد الفاسد، وعن الحكم الباطل الفاسد، وعن المجتمع المتفسخ المتبرج الذي يدعو إلى كل مفسدة، وعن المجتمع الذي يقيم روابطه على الصراع وعلى التفرق، ويؤدي إلى شقاء الإنسان.. وهو ذلك الضنك الذي عبر عنه القرآن ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]..

فمن خلال هذه الأوصاف لكلمة الجاهلية، ومن خلال الحقائق التي تنبع من استعمالات مصطلح الجاهلية ومدلولاته نستطيع أن نعرّف الجاهلية تعريفات أدق وأصدق من تلكم التعريفات التي أوحت بها الجاهلية، والتي ذكرناها قبل ذلك.

فيمكن أن نقول إن الجاهلية هي كل دين وكل نحلة وكل نظام غير الإسلام.. وهذا يمكن أن يكون تعريفاً من التعريفات، ويمكن أن تكون الجاهلية: هي الحالة التي تكون فيها البشرية حين تحيد عن منهج الله وتحيد عن دين الله عز وجل.. أو هي -بتعريف آخر- كل وضع وكل حالة ترفض فيها البشرية الاهتداء بهدي الله، وترفض الحكم بما أنزل الله.

هذه كلها تعريفات صحيحة، وهذه التعريفات أو هذه الحقائق التي استخرجناها من مصطلح الجاهلية بمدلولاته القرآنية لا صلة لها من قريب أو بعيد بتلك التعريفات التي يقولها الناس.

فليست الجاهلية ضد العلم. فقد يكون المجتمع في أقصى درجات التقدم المادي، بمعنى العلم المادي والعلم التكنولوجي والتقني والابتكار والتعامل مع السنن ويكون في قمة الجاهلية، كما كانت عاد وثمود، وكما كان الفراعنة، أو كما هي الآن أمريكا وغيرها.. فليس معنى الجاهلية هو التخلف المادي والعلمي، وليست الجاهلية مرادفة لعدم العلم.

وليست الجاهلية فترة تاريخية جاءت ثم مضت ولن تعود.. وإنما هي حالة مَرَضِية، فإذا ظهرت أعراضها في أي وقت من الأوقات ظهرت الجاهلية.. سواء كان ذلك في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل.. فالمرض ليس له زمان، فحينما تأتي أعراضه ويصاب به الإنسان يوصف بالمرض الذي أصيب به. فكذلك البشرية حينما تظهر عليها أعراض الجاهلية تكون في حالة جاهلية. فهي ليست فترة تاريخية، وإنما هي حالة مرضية تصاب بها البشرية، أو تقع فيها البشرية حينما تحيد عن دين الله، وحينما ترفض الاهتداء بهدي الله وترفض الحكم بما أنزل الله.

عناصر الجاهلية

ونستطيع أن نقول إن عناصر الجاهلية الرئيسية يمكن أن نضمها في عنصرين؛

العنصر الأول: عدم المعرفة الصحيحة بالله عز وجل.. ونقول عدم المعرفة الصحيحة لأن هناك دائما معرفة بالله عز وجل، ولكنها دائما في الجاهلية تكون ناقصة ولا تكون صحيحة، فلا نقول عدم المعرفة بالله فقط لأن عدم المعرفة إطلاقا ليست حقيقة تقع فيها البشرية. فالبشرية دائما تعرف الله، ولكنها معرفة غير صحيحة، أو معرفة ناقصة. فأول عنصر من العناصر التي تميز الجاهلية هو عدم المعرفة الصحيحة بالله.

والعنصر الثاني: هو عدم الحكم بما أنزل الله.

وكما نرى فإن أحد العنصرين ظاهر، والآخر باطن.. فعدم المعرفة يمكن أن يكون باطنا، غير واضح وغير ظاهر. فأنت إذا سألت أي إنسان: أتعرف الله؟ سيقول لك: أنا أعرفه.. وتحتاج وقتاً طويلاً وجدلاً طويلاً لكي تثبت أن معرفته بالله ناقصة.. فالمعرفة أمر باطن، ولا تكون ظاهرة في كل وقت. بينما العنصر الثاني؛ وهو عدم الحكم بما أنزل الله.. أي أن تكون شريعة القوم هي غير شريعة الله، وأن يكون تحاكمهم إلى غير شرع الله عز وجل، فهذه قرينة ظاهرة. فالقرينة الباطنة هي عدم المعرفة الصحيحة، والقرينة الظاهرة هي عدم الحكم بما أنزل الله. ولذلك كان الحكم الفقهي يدور مع القرينة الظاهرة وليس مع القرينة الباطنة. فإذا كان هناك مجتمع يحكم بغير ما أنزل الله فهو مجتمع جاهلي، وإذا كان هناك فرد يرفض الحكم بما أنزل الله، فهو فرد جاهلي. ولهذا كان تفريق الفقهاء بين دار الإسلام ودار الكفر يدور مع ظهور الشريعة بوصفها حكماً بين الناس، أو اختفائها. فالمجتمع المسلم هو ذلك المجتمع الذي يحكم بما أنزل الله ويرفض كل حكم آخر غير حكم الله عز وجل، ولا يعتد بحكم ولا بمصدر لحكم إلا أن يكون قد اعتمده الله عز وجل. ونحن حينما نتلقى ونطيع رسول الله ﷺ إنما نطيعه لأن الله أمرنا بطاعته، ولم نختر نحن طاعته بمحض أنفسنا، ولو أُمرنا بعدم طاعته لما أطعناه ولما تلقينا منه.. ولكن الله هو الذي أمر بطاعة رسول الله ﷺ، لذلك نحن نطيعه ونتلقى منه، ونعد سنته مصدر أصلياً للتشريع لأن الله أمرنا بذلك ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠].. ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]..

سمات المجتمع الجاهلي

فالمجتمع الجاهلي إذن مجتمع محدد السمة؛ بأنه مجتمع لا يتحاكم إلى شرع الله.. بينما المجتمع المسلم هو المجتمع الذي يتحاكم إلى شرع الله. وبالتالي تنقسم الأرض إلى دارين؛ دار إسلام ودار حرب.. والمعالم لكل منهما واضحة. والفقهاء يعتَدُّون بهذا التقسيم اعتدادا أساسيا.. واختلف في هذا بعض الفقهاء -وخاصة الحنفية- فاعتبروا أن الأمان يعطي صفة دار الإسلام، وهذا رأي قد رُدّ عليه، ولا يُعتدُ به.. ولعله كان ناتجاً من حالات واقعية، ولكنها لم تكن بهذه الصورة التي يقع بها الأمر الآن.

فالمجتمع الجاهلي إذن هو المجتمع الذي يرفض الاهتداء بهدي الله، ويرفض الحكم بما أنزل الله عز وجل.

ونتحدث الآن عن سمات المجتمع الجاهلي.. ما هي سمات المجتمع الجاهلي؟ أو: ما هي السمات المشتركة في كل الجاهليات؛ قديمها وحديثها وتلك التي ستأتي في المستقبل؟

الجاهليات كلها -كما قلنا- واحدة، فهي حالة مرضية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله. وكلها لها سمات مشتركة على مدار التاريخ.. فإذا وُجِدت هذه السمات في أي وقت فهي تصف ذلك المجتمع أو هؤلاء الناس بالجاهلية.

أول سمة من سمات الجاهلية: عدم الإيمان الصحيح بالله.. فالجاهليات كلها لا تؤمن إيمانا صحيحا بالله. وهناك فرق بين عدم الإيمان الصحيح وبين عدم المعرفة.. لأن هناك مجتمعات تعرف الله، ولكنها لا تؤمن به إيمانا صحيحا. فأهل الكتاب -مثلا- يعرفون الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله إيمانا صحيحا.. فليست العبرة بمطلق المعرفة..

فالجاهليات كلها لا تؤمن بالله إيمانا صحيحا؛ فهي إما تكفر به، أو تشرك معه آلهة أخرى. وعدم الإيمان -أو الشرك- قد يكون في الاعتقاد، أو في العبادة، أو في الاتباع والحاكمية. فهذه أول سمة من السمات المشتركة للجاهلية..

السمة الثانية: وهي مستخرجة من السمة الأولى، وهي اتباع الأهواء، فأهل الجاهليات كلها يتبعون الأهواء، بصرف النظر عن نوع الهوى؛ سواء كان هوى ماديا محضا، كما تتصف به جاهليات اليونان والرومان وجاهليات الغرب كلها.. أو كانت جاهليات تبدو عليها صفة التدين أو سمة التدين؛ كجاهلية الكنيسة، أو جاهلية الفراعنة، أو بعض الجاهليات الأخرى كجاهلية الهند.. فهي جاهليات تبدو متدينة ومترهبنة، ولكنها في الحقيقة تتبع أهواءها في اتخاذ شكل حياتها.

فالجاهليات كلها تشترك في سمة اتباع الهوى؛ سواء كان هذا الهوى بالسعي إلى الاستغراق في الدنيا.. أو بأن يكونوا هم حكام أنفسهم وأسياد أنفسهم.. أو كانوا يتبعون نحلا باطلة تدعوهم إلى التدين الباطل وتعبدهم لآلهة باطلة، كما كان النصارى أو اليهود أو الفراعنة أو الهنود يفعلون، أو كأي جاهلية من هذه الجاهليات التي تتدين ولكن بدين باطل يصنعونه من عند أنفسهم. وكل هذا ناتج من اتباع الهوى، فيصنعون دينا من عند أنفسهم يبتدعون له تصورا، ويعملون له طقوسا، ويرتبطون به، اعتقادا منهم أنه هو الدين الحق، وهو ليس بحق..

السمة الثالثة: وهي عبادة الطاغوت.. فأهل الجاهليات كلها يعبدون الطاغوت.. والطاغوت هو صيغة مبالغة من كلمة الطغيان، والطغيان تعني مجاوزة الحد، والله عز وجل يقول ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١].. أي لما جاوز حده.. والعرب يستعملون هذه الصيغة للمبالغة، مثل: طاغوت، رحموت، ملكوت، رهبوت.. فحينما يريدون أن يبالغوا في الرحمة أو الرهبة أو الطغيان يقولون هذه الصيغة.

فالطاغوت هو صيغة مبالغة من الطغيان، وإذا كان معناه اللغوي هو مجاوزة الحد فإن معناه الشرعي هو كل ما يصد الناس عن سبيل الله فكل ما كان كذلك فهو طاغوت. فالطاغوت هو كل ما صرف الناس عن الله عز وجل. والطاغوت هو كل ما حوّر حياة الناس تبعا لمقتضياته هو وأغراضه هو.. كل هؤلاء طاغوت. أو كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: والطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله، فكل ما عُبد من دون الله، ورضي بالعبادة، من معبود، أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله، فهو طاغوت[٨].

والاحتراز هنا بذكر الرضا، لأن الناس قد عبدوا عيسى وعبدوا عزيرا وعبدوا الملائكة وهم غير راضين بذلك.. فكان لا بد من هذا الاحتراز.

ونحن نرى هذه السمة موجودة في كل جاهلية، حيث أنهم يعبدون أو يتبعون ويطيعون سادتهم وكبراءهم بغير إذن من الله عز وجل، ويؤدي بهم ذلك إلى الخروج عن دين الله، والخروج عن شرع الله عز وجل، يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، كما حدث في كل جاهليات التاريخ.

وأنواع الطاغوت كثيرة جدا، وأقلها خطرا تلك الطواغيت المجسمة من الأصنام والأوثان. لكن الطواغيت المعنوية أشد خطرا من الطواغيت المادية المجسمة. وفي كل عصر طواغيت. وإذا أردنا أن نستعرض بعض طواغيت عصرنا الحاضر لوجدنا أنه من أكثر العصور طغيانا ومن أكثر العصور امتلاء بالطواغيت المعنوية التي تخفى على الناس فيتبعونها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا..

طاغوت القومية وطاغوت الوطنية، طاغوت قديم حديث.. فالناس يتبعون أوطانهم ويجاهدون في سبيل إعلاء شأنها حتى ولو كان ظلما وعدوانا.. فبسبب القتال في سبيل الوطن يمكن أن يأكلوا حقوق الناس، ويغتصبوا أراضيهم، وباسم رفعة الوطن يستعمرون البلاد ويذلون أهلها؛ كما يقولون: بريطانيا فوق الجميع، وألمانيا فوق الجميع.. كل هذا طاغوت.

الفن مثلا طاغوت.. وهو طاغوت ضخم جداً، يُعبِّد الناس له، ويجعلهم يحولون حياتهم، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله استجابة للفن، ويعتبرون أن الفن يطالبهم بمقتضيات معينة فيتبعونها، حتى ولو كانت تغضب الله عز وجل والفن اليوم -كما نراه- سواء من أغان أو تمثيليات أو مسرح أو سينما، كله في الغالب يحارب الله، ويحرم ما أحل الله، ويحل ما حرم الله سبحانه وتعالى. وكل هذه المحرمات التي ترتكب باسم الفن من موسيقى ومن دعارة ومن عري ومن سفور ومن ممارسات مخجلة.. يعتبرونها فنونا، ويعتبرون أن الموت في سبيلها شهادة، فيقولون شهيد الفن لأنه مات على المسرح مثلا، أو مات وهو

٨ الدرر السنية. ج١. ص١٦١.

يؤدي دورا فنيا عظيما كما يتصورون، ويعدونه شهيدا.. وهم صادقون في هذا، لأنه شهد أن الفن إلهه، وأن الفن ربه، وأن الفن سيده، فهو فعلا شهيد الفن.

وحينما يرتكب الممثلون أمام الجماهير كل ما نهى الله عنه يعدون هذا مقتضى من مقتضيات الفن التي لا يستطيعون أن يخالفوها.. وحينما اجتمعت أم كلثوم مع عبد الوهاب في أول أغنية جمعتهما معا "أنت عمري" كان "المانشيت" الكبير الذي جاء في صفحات الجرائد حينذاك: التقاء آلهة الفن.. فهم يعترفون بذلك.. وعُدَّ هذا قمة الفن وقمة العظمة التي وصل إليها الفن المصري حينما يلتقي عبد الوهاب وأم كلثوم، ثم كرروا هذا اللقاء أكثر من مرة لكي يحققوا ما تريده الجماهير.. ونرى في صفحات المجلات وفي الشوارع في إعلانات السينما "معبودة الجماهير".. ويعدونه أمرا طبيعيا جدا لا يثور عليه أحد، فهي معبودة فعلا تلك الراقصة الخليعة الماجنة، هي معبودة الجماهير. فهم قد نجحوا في أن يصنعوا طاغوتا يحول حياة الناس؛ من أجله يسهرون، ومن أجله يعيشون. فيأتي الناس لسماع أم كلثوم من أقاصي الأرض، فكان أول يوم خميس من الشهر ملتقى لجميع العرب من جميع بقاع الأرض، يأتي الخليجيون بالطائرات ليحتلوا الأماكن القريبة من أم كلثوم، ويعيش الشعب المصري ليلة كاملة استماعا لأم كلثوم، فهي ليلة مقدسة، ليلة الخميس الأول من الشهر، ولذلك حينما قالت جريدة الأوبزيرفر البريطانية في عدد من أعدادها أن جمال عبد الناصر يعتمد على عكازين؛ أحدهما شيخ الأزهر والآخر أم كلثوم.. فإنها كانت تعبر عن حقيقة.. فلا شك أن شيخ الأزهر يومها كان يوقِّع باسم الدين أو باسم الإسلام ليبرر كل طغيان عبد الناصر، ويخدر الناس باسم الإسلام وباسم الدين، كما يعمل كل شيخ للأزهر وكل مفت باع دينه مع حاكم عصره.. والعكاز الثاني هو الذي يلهي الجماهير فيسكرون بخمر أم كلثوم وبصوتها.. الذي لا شك أنه كان صوتا متميزا وخلابا، ولكن جعله الله فتنة، لكي يراهم هل سيطيعونه أم يعبدون أم كلثوم، وسقط الناس في الاختبار..

فلا شك أن طاغوت الفن طاغوت هائل جدا وطاغ جدا على الناس، وكما نرى فهم ينجحون كل يوم في تعميق الفن وإعلاء طغيانه، وترى الشباب والناس يعدون الممثلين هم المثل الأعلى في حياتهم؛ أي حركة، وأي ملبس، وأي تسريحة شعر يعملها الفنان تصبح هي الرقي وهي سمة "الموضة"، أو الحداثة والتقدم في جميع أنحاء العالم.

طاغوت الموضة أيضاً مذِّلٌ جدا للناس، فمصممو الأزياء ومصممو التسريحات كلهم يتحكمون في الناس تحكماً مطلقاً. فكل سنة أو كل موسم يُخرجون موضات جديدة، والناس لا يستطيعون أن يخالفوها.. لأنهم إذا خالفوها فهم رجعيون متخلفون فقراء، غير قادرين أن يتزيوا بأحدث موضة.. وهم يتلاعبون بالناس؛ يضيقون الملابس ثم يوسعونها، يقصرونها ثم يطيلونها، وكل مرة يكون هذا هو الأفضل.. وحينما تقول للمرأة: غطي جسدك، تقول الموضة عكس ذلك ولا أستطيع أن أخالفها، فإذا جاءت بعد سنة الموضة تأمر بالملابس الطويلة يصبح القصير عارا لا تستطيع المرأة أن تلبسه.. فهي تتعرى وتكتسي بأمر من آلهة الموضة -من هذه الطواغيت- وليس من الله.. فالله عز وجل يقول لهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].. وأهل الموضة وبيوت الأزياء تقول لهن تعرين وتبرجن، فيتبعون ما أمرت به بيوت الأزياء.. فمن المعبود؟ ومن المطاع؟ الله أم هذه الآلهة المدعاة؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]..

وهكذا إذا تتبعنا ألوان الطواغيت في الأرض سنجد أنها كثيرة جدا، وكلها تحور حياة الناس حسب مقتضياتها. ولذلك يقول الرسول ﷺ (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة)[٩].. لأنه يعبد الدرهم، ويعبد الدينار، ويعبد الترف والقطيفة.. فتنسيه الله عز وجل. فالذين يريدون أن يزدادوا ثروة يجرون ليل نهار، ويسافرون أقطار الأرض ليل نهار، ولا يفكرون إلا في كيف يعقدون الصفقات ويزيدون أموالهم، ولا ينشغلون بأي شيء آخر، وترى التجار ينامون عن الصلوات، ولا يعتنون بها إذا تعارضت مع صفقات أو ربح فمعبودهم الحق هو الذهب الرنان.

السمة الأخيرة من سمات الجاهلية هي الاستغراق في الشهوات.

والاستغراق في الشهوات شيء آخر غير اتباع الأهواء.. فليس كل الأهواء شهوات. ونقصد بالاستغراق في الشهوات؛ شهوتي الفرج والبطن. فهاتان الشهوتان بالذات من أكثر الشهوات التي تدعو إليها الجاهلية وتُغرِق فيها الناس إغراقا. فقد يكون بعض الناس الذين يتبعون أهواءهم يريدون أن يكونوا أصحاب سلطان.. أو أصحاب جاه.. أو أصحاب مال. وقد لا ينزلقون إلى شهوة الفرج ولا إلى شهوة البطن.. لأن شهوة الجاه شهوة قوية أيضا، وشهوة السلطة شهوة قوية، وشهوة القوة شهوة قوية.. فليس بالضرورة أن يكونوا مستغرقين في الشهوات الجنسية أو في الأكل والشرب.

واتباع الأهواء قد يكون بأن يشرعوا للناس غير ما أنزل الله، وهذا هوى.

ولكن الاستغراق في الشهوات نقصد به الانحطاط إلى درك الحيوان، حيث ينطلق الإنسان بلا حدود ليغذي شهواته الجنسية والبطنية.. وهذه الشهوات هي التي يعدها الطغاة صمام الأمان الذي يؤمنهم من الناس، فيشيعون في الناس الشهوات، ويطلقون لهم الحرية كاملة في هذا الجانب فقط، بينما يحرِّمون عليهم أن يكونوا أحرارا في أي شيء آخر.. افسدوا كما شئتم.. اشربوا الخمر كما شئتم.. ازنوا كما شئتم.. لكن لا تتكلموا في السياسة، ولا في الاقتصاد.. لأن هذه أمور أكبر منكم، ونحن أعلم بمصلحتكم فيها.. أما هذه الأمور فإنهم يتركونهم يعربدون فيها. وهي أمور قريبة من الناس، وحبيبة إلى النفس، والانزلاق إليها انزلاق سهل.

وذات مرة وقف الطاغية "تيتو" عقب مظاهرات حدثت في يوغسلافيا وقف يقول في خطبة له: ماذا يريد هؤلاء المتظاهرون لقد أطلقنا لهم الحرية في شرب الخمر والشهوات فماذا يريدون؟

فالطواغيت يعتمدون اعتمادا كبيرا في استعباد الجماهير وفي إذلالهم على استغراقهم في الشهوات. ولذلك يحرصون كل الحرص على إشاعة الشهوات وإشاعة الفواحش لكي يقودوا الناس من بطونهم وفروجهم وشهواتهم.

وحينما يُستعبد الناس للشهوات فإنهم قلما يستطيعون أن يقوموا ليطالبوا بحق أو يمتنعوا عن باطل. فالطواغيت دائما تهددهم: أنكم إذا لم تطيعوا سنمنع عنكم الشهوات، فيرجعون بسرعة، ككل مدمن تستطيع أن تستعبده إذا منعت عنه عنصر أو مادة الإدمان التي يتعاطاها. فالطواغيت يحرصون كل الحرص على إشاعة الفاحشة.

٩ رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

ولذلك كان من سمات المجتمع المسلم المؤمن ألا تشيع فيه الفاحشة.. ومن سمات المجتمع الكافر والجاهلي أن تشيع فيه الفاحشة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].. فهذه السمة من سمات المجتمعات الجاهلية؛ أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس. ونحن اليوم نجد أنه في ليالي رمضان تتكاثف برامج الإفساد، منذ لحظة الإفطار، إلى درجة أنه لا يستطيع الإنسان حتى أن يفطر، أو يحس بمشاعر الصوم وفرحة الإفطار.. فيفطر وهو يرى الراقصات وهن يتسكعن أمامه، ليذهبن بأي شيء تبقى في حياته من نظافة الصوم، إن كان قد استفاد منه شيئا، ونجد أن برامج التلفاز وبرامج السينما والمسلسلات تتضاعف حتى الفجر، أو طوال الأربع والعشرين ساعة، لكي يظل الناس مستغرقين، خوفا من أن يحدث فيهم شهر رمضان شيئا من التقوى، أو شيئا من الرجوع إلى الله، فيقفلون هذا الباب قفلا شديدا. وكنا نجد في سنوات الخمسينيات والستينيات، الفِرَق الداعرة العارية تأتي من أوروبا في شهر رمضان بالذات بالإضافة إلى الفرق الراقصة المحلية "كفرقة رضا والفرقة القومية"، وتقام لها السرادقات بجانب المساجد الذي تقام فيها التراويح، فيخرج الناس من المسجد ليذهبوا إلى السرادقات.. لكيلا يبقى في أرواحهم ولا في قلوبهم ذرة من إيمان أو نظافة أو تقوى، وحتى لا يتيحوا لهم فرصة أن يفكروا فيما كانوا فيه من آيات أو من قرآن، حتى لا يعودوا أبدا إلى الله عز وجل.

وهكذا نجد أن الجاهلية حريصة دائما، وكذلك الطواغيت على إشاعة الفاحشة وعلى إغراق الناس في الشهوات.. ولذلك حينما أراد عبد الناصر أن يحرض الناس على الإخوان في سنة ٦٥ قال لهم لقد كان من مخططات الإخوان أن يقتلوا أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ.. وهذه طبعا مسألة ضخمة جدا عند المصريين لا يغفرون لأحد أراد بهم هذا.. كيف يعيشون بعد أم كلثوم أو بعد عبد الحليم حافظ أو بعد محمد عبد الوهاب.. وكما نعلم أنه حينما مات عبد الحليم حافظ انتحرت فتيات كثيرات حزنا على العندليب الأسمر، أو كما كان يسميه عبد الناصر الثروة القومية، لأنه ثروة مهمة جدا في تثبيت حكمه وإشاعة الاشتراكية من خلال أغانيه..

فهذه هي سمات الجاهلية.. السمة الأولى: عدم الإيمان الصحيح بالله.. والسمة الثانية: اتباع الأهواء.. والسمة الثالثة: عبادة الطاغوت.. ثم السمة الأخيرة: الاستغراق في الشهوات. وكل جاهليات التاريخ تشترك في هذه السمات الأربع، فلا تند جاهلية من الجاهليات عنها.

وهناك سمات أخرى نوعية تتسم بها كل جاهلية، وتختص بها عن الجاهليات الأخرى.. سنتكلم عنها فيما بعد إن شاء الله.

شرعية قيام المجتمع المسلم

بعد أن تحدثنا عن الجاهلية وما يتعلق بها من معنى وسمات وواقع.. نتحدث الآن عن التصور الإسلامي، لأن نشأة المجتمع المسلم ووجوده مرتبط ارتباطا عضويا بحقيقة التصور الإسلامي، وتجنبه لكل سمات الجاهلية.

وحينما نتحدث عن نشأة المجتمع الإسلامي لا بد أن نتحدث عن الأسس الأساسية التي يقوم عليها ذلك المجتمع.

الجاهلية تجمع بشري عضوي يقوم على أساس باطل

وقد قلنا فيما سبق إن **"هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في "نظرية" مجردة. بل ربما أحياناً لم تكن لها "نظرية" على الإطلاق! إنما كانت متمثلة دائماً في تجمع حركي. متمثلة في مجتمع، خاضع لقيادة هذا المجتمع، وخاضع لتصوراته وقيمه ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته. وهو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك -بإرادة واعية أو غير واعية- للمحافظة على وجوده، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أية صورة من صور التهديد."**

فالجاهلية -إذن- مجتمع متكامل العناصر، يجمع كل عناصر التجمع البشري، ولكن على أساس باطل. فمن ناحية أنه تجمع عضوي متكامل العناصر، ومؤسسة متكاملة ومتفاهمة فهي حقيقة أكيدة.. فالجاهلية تتمثل دائما في تجمع عضوي.. وهذا التجمع العضوي تتمثل فيه كل عناصر الوجود البشري، ويربط بين أفراد ذلك المجتمع علاقات ووشائج وولاء، كما أن لهم قانونهم وشريعتهم وأعرافهم، كما أنهم أيضا متمسكون بذلك المجتمع، يحرصون عليه، ويدافعون عنه، ولا يسلمونه لأي خطر مهما كان.. بل يقفون أمام أي خطر يهدد وجوده، ويبذلون في ذلك كل غال ورخيص.

فنحن إذن أمام وجود حقيقي، وليس أمام نظرية مجردة، مكتوبة أو مفهومة، وإنما أمام تكتل مادي عضوي، متمثل في بشر يحملون فكرة، يدافعون عنها، ويلتزمون بها، ويتخلقون بأخلاقها وقيمها، ويدافعون عنها بكل ما يملكون من الوسائل.

ومن هنا فإن الإسلام لا يمكن أن يكتفي بأن يكون مجرد نظرية، فمادام الإسلام جاء ليزيح هذه الجاهلية من الوجود. فلا بد له أن يتشكل أيضا في تجمع عضوي، يربط بين أفراده الإيمان، والعبودية لله رب العالمين، وعدم الشرك بالله، والتحاكم إلى شريعته وحده، ورفض كل شريعة دونه، والدفاع عن هذا الكيان الذي وجد على أساس قاعدة الولاء لله ولرسوله.. وهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل أو استدلال. ومن ثَمَّ فإن هذا المجتمع الإسلامي القائم على الإيمان بالله لا يمكن أن يتمثل فقط في صورة نظرية مجردة.. وإنما لا بد أن ينبعث كروح تنفخ في المجتمع الإسلامي الوجود والإصرار والقوة والتحرك دائما إلى الأمام لإلغاء الوجود الجاهلي.

وإلغاء الوجود الجاهلي نابع من أن هذه الجاهلية برمتها؛ بكل ما تأسست عليه من تصورات أو اعتقادات أو أخلاق أو ارتباطات، وما قامت عليه من شريعة ونظم. بل إن وجود ذلك المجتمع الجاهلي برمته -بقياداته وأفراده- ليس له ابتداء شرعية الوجود. فمحاولة إلغاء الكيان الإسلامي للكيان الجاهلي ليس نابعا من صور الغلبة البشرية والتدافع البشري فقط.. وإنما هو قائم على أساس أن المجتمع المسلم وأن الدولة المسلمة وأن الأمة المسلمة هي المسؤولة عن إقرار ألوهية الله وحده، وألا يكون في هذه الأرض إله إلا الله.. ومن ثَمَّ فهي لا بد أن تلغي الجاهلية، أو أي تجمع يعبد مع الله إلها آخر. فهي ليست منبعثة بدوافع شخصية، ولا بدوافع اقتصادية، ولا بدوافع مادية.. وإنما كما قال ربعي بن عامر: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. فإلغاء الوجود الجاهلي هو مطلب شرعي، ومطلب واقعي، لأن هذه الجاهلية التي تعبد غير

الله والتي تدعو لسلطان غير سلطان الله تعيش على وهم وليس حقيقة.. ومن ثم فهي ترفض ألوهية الله، ومن ثم لم يعد لها شرعية الوجود بل ولا حق الوجود ابتداء.

فالمجتمع الإسلامي إذن -أو ذلك التجمع الحركي الذي يقوم على النظرية الإسلامية- هو تجمع رباني، مأمور من قبل خالق السماوات والأرض، ومن قبل مالك السماوات والأرض، لكي يحقق وجوده وعبوديته لله، بإلغاء الوجود الجاهلي، لكي يقيم الحق وحده، ويبطل الباطل.

التدافع والصراع بين الحق والباطل لا يتم بنظريات مجردة

هذا الإلغاء للتجمع الجاهلي، وهذا التدافع لا يتم بنظرية مجردة. وإنما لا بد أن يتم من خلال وجود إسلامي متكامل، ليستطيع أن يواجه ذلك المجتمع الجاهلي. ومن هنا ندرك معنى الصراع ومعنى التدافع الذي هو سنة الله في الوجود وسنة الله في الأرض وسنة الله بين الناس. إن الناس لا بد أن يتدافعوا، ولكن هذا التدافع لا بد أن يكون على أساس من الحق.. ولا بد للناس أن يجاهدوا، ولكن ينبغي أن يكون جهادهم لإعلاء كلمة الله.. وإن الصراع بين الإنسان وبين الشيطان، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان هو صراع شاءه الله عز وجل، ليتبين من خلاله الصادقين من الكاذبين ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].. فقانون الصراع موجود في الأرض، وهو ما ترفضه الجاهلية.. أو بمعنى أصح تغالط الجاهلية في التعبير عنه.. فالجاهلية دائما تحاول أن توهم الناس أنه لا بد أن يحدث توافق بين التيارات المختلفة وبين الأفكار المختلفة، وأننا لا بد أن نسمع رأي الآخر وألا نصادر الآخر.. هذا الأمر ليس صحيحا على إطلاقه.. هناك مجال للبشرية سُمح لها أن تختلف فيه، وأن تتعايش مع هذا الاختلاف.. أما حينما يكون الأمر في مجال الأصول ومجال الاعتقاد فإن القانون الذي يحكم هذا الأمر هو قانون الصراع وقانون التدافع ورفض الآخر. فالجاهلية ترفض الإسلام، والإسلام يرفض الجاهلية.. ولا يمكن أن يجتمعا أبدا في وقت واحد على الإطلاق.. فقانون الصراع والتدافع هو قانون رباني، والجاهلية تعرف ذلك.. ولكنها تحاول -في محاولة مضللة- أن توهم عوام الناس وجهّالهم أن الإسلام وحده هو الذي يصادر الآخر بينما هم لا يصادرون الآخر. وهذا كذب، لأن الله عز وجل قال لنا ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]. فالجاهليون برمّتهم -كفاراً ووثنيين وأهل كتاب- لا يرضون بوجود الإسلام أبدا. وهم يمكن أن يتراضوا فيما بينهم، وأن يتعايشوا فيما بينهم.. لكن الذي لا يرضونه أبداً هو أن يعيش الإسلام في وسطهم، وهذا ما حكاه القرآن الكريم عن أهل الجاهلية وهم يجابهون أنبيائهم وأتباعهم بتلك المقولة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِناَ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [ابراهيم: ١٣]. فقانون التدافع والصراع قانون حقيقي، وليس لنا أن نستنكره أو أن نخجل منه، أو نخجل أن نصرح به. لا بد أن نعرف أننا مكلفون من الله عز وجل أن نلغي الوجود الجاهلي، وألا نقبل ذلك الآخر الذي يرفض ألوهية الله. فلا يجوز للمؤمنين المسلمين أولياء الرحمن أن يرضوا بالوجود الجاهلي. بل عليهم -إن استطاعوا- أن يلغوه. وإذا لم يستطيعوا أن يلغوه فلا أقل من ألا يوالونه ولا يعطونه شرعية الوجود.. فيظل غير شرعي حتى يأذن الله بإلغائه.

فقانون الصراع قانون حقيقي لا يخجل منه المسلمون، ولا يتحاشون التعبير عنه، ولا التصريح به؛ إننا بعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. وهذا لا يكون أبدا باستبقاء الآلهة الأخرى التي تُعبّد الناس لغير الله عز وجل. فليس للآخر في الأرض مكان؛ إما الحق وإما الباطل. فهذا الأمر لا بد أن يكون مفهوما لكي تتم محاولة إلغاء الجاهلية من الأرض.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]

وقيام المجتمع الإسلامي بهذا الإلغاء لا يكون إلا برد الناس إلى الله وحده سبحانه وتعالى.. وهذا الرد لا يغني فيه -كما قلنا- أن يكون الإسلام نظرية مجردة. لأنه حينئذ لا يكون مكافئا للجاهلية التي لا تقوم على نظرية مجردة، وإنما تقوم على مؤسسات وقوانين وشرائع وجيوش وقوى ووجود متكامل. فلا بد أن يكون الإسلام متمثلاً في وجود يحمل كل عناصر الوجود، بل لا يجوز أن يكون مكافئا للجاهلية فقط، ولكن لا بد أن يكون أقوى منها، لأن هذا مطلب ضروري لكي يستطيع أن يتفوق عليها.. فلذلك.. **"ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في "نظرية" مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية، ورد الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز -ولا يجدي شيئاً- أن تتمثل في "نظرية" مجردة. فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاً والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلاً على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته.."**

هذا بالإضافة إلى أنه ليس هناك أي تشابه بين الإسلام وبين الجاهلية، ولا بين مؤسسات الإسلام ومؤسسات الجاهلية، ولا بين قيم الإسلام وقيم الجاهلية ولا بين الأفراد المسلمين والأفراد الجاهليين.. فهناك تباين مطلق بين هؤلاء وهؤلاء.. فهم إن اشتركوا فإنهم يشتركون في الشكل الخارجي للآدميين.. ولكنهم بعد ذلك يختلفون في كل شيء.. فهناك مخالفة أساسية في طبيعتهم، وفي منهجهم، وفي كلياتهم، وفي جزئياتهم.

"لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلاً." وهذا أمر آخر لا بد أن يلتفت إليه الذين يريدون أن يقيموا الإسلام مرة أخرى ويستأنفوا التجربة الإسلامية.. أنهم لكي يلغوا الوجود الجاهلي لا بد أن يكون تجمعهم أقوى من التجمع الجاهلي في قواعده النظرية؛ بمعنى أن يكونوا على إدراك بيّن لكل ما يقومون عليه، وأن تكون الفكرة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي فكرة واضحة في ذهن كل فرد من أفراد التجمع الإسلامي.. فلا تكون الفكرة غائمة ولا مبهمة، ولا كلية أو مجملة.. وإنما ينبغي لكل جندي في جيش الإسلام، ولكل عضو في التجمع الحركي الإسلامي أن يكون على إدراك عميق وواسع وشامل للفكرة الإسلامية، ولمقتضيات فكرة الإسلام، وفكرة الألوهية الواحدة والعبودية الشاملة، وما يقتضيه ذلك من مقتضيات واضحة. فأحد أسباب القوة أن يكون المجتمع المسلم على إدراك واع لمهمته، حتى لا يُلبِّس عليه أثناء المعركة أي ناعق فيجعله يهتز أو يتشكك فيما هو قائم به. فلا بد أن تكون القاعدة النظرية التي يقوم عليها التجمع الحركي الإسلامي

قاعدة واضحة جدا لدى الذين يعيشون لهذا الدين. من أجل هذا احتاجت هذه المسألة ثلاثة عشر عاما لكي ترسي القواعد الإسلامية ولكي تتربى العصبة المؤمنة في مكة، كي تفهم ما هو الإسلام وما معنى التوحيد وما معنى الشرك وما صور الشرك المحتملة والمبهمة والظاهرة، حتى تخلص تماما لقاعدة التوحيد. وبعد ذلك سمح الله أن تقوم لهم قاعدة في الأرض، وظل التعليم الرباني يعلم الناس معنى الألوهية الواحدة ومعنى العبودية الشاملة، ويحذرهم من الشرك ومن الكفر ومن النفاق ومن الشك ومن الشقاق.. كل هذا لكي تقوم العصبة المؤمنة وتقوم الأمة المسلمة على قاعدة نظرية أقوى وأمكن من القاعدة النظرية التي تقوم عليها الجاهلية.. وأيضا لكي تكون قائمة على قاعدة تنظيمية أشد وأقوى من التجمع الجاهلي. وهذا أمر يقتضي علما ومعاصرة وإدراكا لكل وسائل التنظيم في الواقع المعاصر الذي تعيشه الجماعة والمرحلة التي تعاصرها الجماعة. فلا بد أن يأخذ المسلمون بكل الوسائل التنظيمية والإدارية والتكتيكية والتكنولوجية التي تجعل تنظيمهم أقوى وأدق وأشد انتظاما؛ سواء في الجانب التنفيذي والتكنيكي، أو في الجانب الإداري والتنظيمي.. وهذه مسألة مهمة جدا، لأن هذا من أسباب القوة.. ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].. فلا بد أن نأخذ بكل أسباب القوة لكي نكون أقوى في حقيقتنا من التنظيم الجاهلي، وأوعى لفكرتنا من فكر الجاهلية.. ولكي نكون أقوى في روابطنا وفي علاقاتنا ووشائجنا. ولا بد أن تكون هذه الروابط وهذه العلاقات أشد عمقا والتحاما، وأن تكون مبنية على الحب الخالص والتلاحم الخالص والولاء الخالص والإيثار والوفاء والتضحية. وبهذا يقوم المجتمع الإسلامي، وتكون الحركة المسلمة أقوى في قواعدها النظرية والتنظيمية وفي روابطها وفي علاقاتها وفي وشائجها وفي أخلاقها.. وتكون كيانا عضويا متفوقا في كل المجالات على التجمع العضوي الجاهلي.

قاعدة الإسلام "لا إله إلا الله" بحقيقتها المتكاملة

"والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام -على مدار التاريخ البشري- هي قاعدة: "شهادة أن لا إله إلا الله" أي إفراد الله -سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.. إفراده بها اعتقادًا في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة. فشهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم."

وبوصولنا إلى هذه الفقرة من الفصل نكون قد وصلنا إلى أخطر نقطة في هذا الكتاب، وهو الحديث عن لا إله إلا الله.. وهي ليست أخطر نقطة في الكتاب فقط، وإنما هي أخطر موضوع في الوجود كله.. وهو موضوع ألوهية الله الواحد.

وبقدر عظمة وخطر هذه القضية وتفردها في هذا الوجود بالأهمية إلا أنها أيضا في غاية الوضوح وفي غاية البساطة. وهكذا -دائما- تتسم القضايا العظمى بالبساطة والبديهية. وتتسم -دائما- بهذا الجلاء الناصع الذي يُخضع الناس لهذه الحقيقة وإن أبوا أن يعترفوا بها.

فهذه القاعدة النظرية هي التي قام عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري.. ومعنى ذلك أنه منذ أن خُلق آدم وحتى آخر بشر على الأرض فلا بد أن تقوم حياتهم على هذه القضية الواحدة، وهي هي القضية التي جاء الأنبياء جميعا بها -صلوات الله

وسلامه عليهم- من لدن آدم وحتى محمد ﷺ آخر الأنبياء.. فهي قضية واحدة ودعوة واحدة ورسالة واحدة تنادي الناس ليعبدوا إلها واحدا في طريق واحد هو صراط الله المستقيم.

وكما نقول هنا: أن شهادة لا إله إلا الله، أي إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية، سواء في ضمير الإنسان اعتقادا، أو في نسكه وشعائره، أو في شرائعه وقوانينه، لا بد أن تتسم بهذا الشمول.. وأنها لا يمكن أن توجد فعلا ولا تعد موجودة شرعا إلا في هذه الصورة المتكاملة والتي بدونها لا يعد الإنسان مسلما، مهما ادعى ومهما تزَّينَ بأي صورة من الصور.

وهذه القضية هي التي نريد أن نقف أمامها طويلا.

فما هو معنى أن هذه الشهادة هي القاعدة التي يقوم عليها الوجود البشري، أو يقوم عليها التاريخ البشري؟

معنى هذا في كلمات قليلة؛ أن الله عز وجل لم يخلق البشرية إلا لكي تعبده وتوحده، وأنه أرسل كل أنبيائه ورسله، وأنزل كتبه جميعا لكي يدعو إلى هذه القضية الواحدة.. قضية أن لا إله إلا الله.. ومن ثم فلا بد أن تنفرد هذه القضية بالاهتمام الكامل، بل بالاهتمام الوحيد في حياة البشرية، وأن هذا لا يتناقض مع بقية نشاطات البشرية ولا رغبات البشرية ولا طموحات البشرية، وأن الاهتمام بهذه القضية هو الذي يغذي النشاط الإنساني، ولا يعطله.. فليست هناك قضية ينبغي أن ينشغل بها الإنسان مساوية لهذه القضية، أو مزاحمة لهذه القضية.. بل إن قضايا البشرية كلها -بما فيها قضية العمران لهذه الأرض- هي قضايا منبثقة من قضية لا إله إلا الله.. ومن ثم فنحن حينما نقول إنه على مدار التاريخ كانت هذه القضية هي القاعدة التي يقوم عليها التاريخ البشري والحياة البشرية نعني بكل وضوح أنه لا يجوز للبشرية أن تهتم بقضية قبل أن تنتهي من قضية لا إله إلا الله.. وحينما تصل البشرية إلى تصور واضح ناضج واعٍ مستقر في الضمير، يكسو الحياة البشرية كلها، فإن كل قضايا البشرية سوف تتحقق وتحل بالتبعية، لأنها لا تتناقض مع مقتضيات ومع متطلبات لا إله إلا الله.

كيف عالج منهج الأنبياء هذه القضية

هناك طريقان لمعرفة هذه القضية؛ طريق صحيح وحيد، والطريق الآخر عبارة عن سُبل شتى ومناهج شتى كلها لا تؤدي إلى هذا التصور الصحيح الحقيقي لـ (لا إله إلا الله)..

الطريق الأول بطبيعة الحال لا بد أن يكون هو طريق الأنبياء. والأنبياء هم رسل الله إلى هذه البشرية.. هم معلمو هذه البشرية.. هم الذين جاءوا ليعرّفوا البشرية حقيقة لا إله إلا الله. ومن ثم لا يجوز أن يكون هناك منهج آخر أو طريق آخر يرتفع أو يسمو إلى نقطة قريبة من منهج الأنبياء. ولا بد بالضرورة ألا يسير دعاة الله ودعاة الإسلام والذين يريدون أن يقيموا حركة إسلامية صحيحة في طريق غير طريق الأنبياء.. وليس ذلك من باب الاختيار.. ولكن هذا إلزام تفرضه طبيعة القضية من ناحية، وتفرضه بعد ذلك العقيدة من ناحية أخرى. تفرضه طبيعة القضية لأن الأنبياء والرسل هم أعلم الناس بهذه القضية، ولذلك لا يجوز لإنسان أن يظن للحظة واحدة أنه يستطيع أن يفهم القضية أو أن يعرف عنها أو عن طريقة تبليغها أو طريقة إقامتها أو مقتضياتها

أكثر من الأنبياء.. فلا بد أن تُسلَّم البشرية ابتداءً لهؤلاء الأنبياء بأن طريقتهم التي دعوا بها إلى الله والتي أقاموا بها دين الله والتي حققوا بها لا إله إلا الله هي الطريق الوحيد الصحيح الذي لا يليق بعاقل أن يتخيل للحظة واحدة أن بإمكانه أن يخترع أو يبتكر طريقا آخر، أو أن يعدل -إضافةً أو نقصاً- ما قام به الأنبياء.. فهذا تفرضه طبيعة المسألة وطبيعة القضية.

أما من الناحية الاعتقادية؛ فلأن رسل الله هم الرسل المعتمدون الذين أرسلهم ليبلغوا كلمته إلى الناس.. ومن ثم فإن مخالفتهم أو التغيير في منهجهم هو رد لمنحة الله للبشرية، وكفر بالله عز وجل حينما يرفض إنسان ما أن يتبع سبيل الأنبياء وسبيل الرسل، لأن هذا رفض لمن أرسلهم ولمن كلفهم. فطريق الأنبياء -إذن- طريق حتمي لا بد أن تسير فيه طلائع الحركة الإسلامية، وأن يلتزموا به شكلا وموضوعا، منطوقا وروحا وسلوكا وتعاملا، وليس لهم أن يترددوا لحظة واحدة بحثا عن طريق آخر، أو يتصوروا أن طريق الأنبياء لم يغط كل متطلبات الدعاة في كل وقت وفي كل زمان وفي كل مكان.

فالطريق الوحيد، والطريق الأول هو طريق الأنبياء.

أما الطريق الآخر.. وسمه ما شئت؛ طريق الفلاسفة.. طريق المتكلمين.. طريق المنجمين.. طريق الكهنة والسدنة.. طريق الطواغيت.. كل هؤلاء يمثلون تيارا واحدا وطريقا واحدا.. ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. فالصراط المستقيم هو صراط الله عز وجل.. وهو صراط الأنبياء.. وأي طريق آخر هو صراط معوَّج، أو سبل معوجَّة، أيا كان شكل الذين يسيرون فيه. فقد حاولت الفلسفة أن تقوم بمهمة الأنبياء، وحاول المتكلمون أن يقوموا بمهمة الأنبياء، وحاول الطغاة أن يقوموا بمهمة الأنبياء، وحاول كل مدع لإصلاح البشرية أن يقوم بمهمة الأنبياء.. ولكن هؤلاء جميعا انحرفوا بالبشرية عن الصراط المستقيم، فضلوا وأضلوا، وبعدوا وابتعدوا.

ولذلك إذا أردنا أن نفهم لا إله إلا الله، وأن نفهم قضية لا إله إلا الله لا بد أن نلتزم بمنهج الأنبياء.. منهج استدلال الأنبياء.. ومنهج عرض الأنبياء في هذه القضية.. لأنه منهج الله الذي أراده من أنبيائه ورسله لكي يبلغوا عباده وخلقه ماذا يريد منهم.

وهذه بداية القضية.. فالبداية بأن نفهم وندرك، وأن نستيقن ونصر على ألا نتزحزح أنملة واحدة عن منهج الأنبياء في عرض قضية لا إله إلا الله، وفهم لا إله إلا الله، وإدراك لا إله إلا الله.

وقبل أن نتحدث عن هذا المنهج الرباني نقول -وهي قضية أصولية وقاعدة أصولية ضرورية لبحث أي قضية إسلامية- لا بد أن نحيط بكل ما جاء في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ، وفي تطبيقات الجيل الأول لهذه القضية، لنجمع كل هذه المعلومات، ثم نبحث ونرى نتيجة هذه المحاولة. ولا يجوز أبدا أن نكتفي بالقرآن وحده، ولا أن نكتفي بالسنة وحدها، ولا أن نكتفي باستدلالات الصحابة وحدها.. وإنما ينبغي أن نتلقى من القرآن أولا، ثم نجمع إليه ما قاله رسولنا ﷺ مفسرا مبينا، لأن هذه مهمته ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].. ثم نرى كيف أدرك الصحابة هذا الأمر وكيف طبقوه في حياتهم.. وإذا لم نفعل ذلك نكون قد قصرنا في إدراك القضية وفي محاولة توضيحها وجلائها أمامنا. فهذه القاعدة الأصولية قاعدة مهمة وضرورية.

الأمر الثاني: أنه جاء في القرآن الكريم المحكم والمتشابه، كما جاء في السنة أيضا المحكم والمتشابه.. وبالضرورة القياسية أن يكون في كلام البشر محكم ومتشابه. والقاعدة هنا أن المحكم هو الذي يحكم المتشابه، وأن يكون هو المرجع لكل ما يمكن أن نظنه متشابها. والحقيقة أن التشابه ليس تشابها حقيقيا، وإنما هو جهل بحقيقة القضية، وعدم ربطها بالأصول.. فتبدو في بعض الأحيان بعض التعبيرات أو بعض الألفاظ -سواء كانت قرآنية أو كانت نبوية أو كانت من كلام البشر- تبدو كما لو كانت متناقضة أو متشابهة.. ولكنها في الحقيقة منضبطة إذا وضعت على المحكم وعلى أساسه، فلا يصبح هناك متشابه. فالحقيقة أنه لا بد أن ندرك أن كل ما جاء في القرآن وما جاء في السنة مما نتصور أنه متشابه إذا أرجعناه إلى الأصول وإلى الآيات المحكمة وإلى الأحاديث القاضية بصورة قاطعة سنجد أن هذه الآيات المتشابهة قد زال عنها هذا الإبهام ووضحت، لأنها وضعت على مقياس دقيق وجلي وصارم أيضا..

فحينما نتحدث عن منهج الأنبياء نقول ابتداء أن هذا المنهج يقوم على مخاطبة الإنسان كله، وليس وقفا على جانب من جوانبه كما تفعل التيارات الأخرى؛ فالفلسفة تخاطب العقل الإنساني وتتجاهل بقية كيانه، والصوفية والرهبانية وغيرها تتعامل مع وجدان الإنسان وتتجاهل بقية كيانه، والتيارات العبثية تخاطب في الإنسان آراءه المتضاربة ولا تخاطب شيئا معينا. ولذلك نجد الإنسان الذي يستقي من الفلسفة أو من تلك التيارات الوجدانية أو العبثية لا بد أن يضل ضلالا بعيدا. وكل تراث البشرية من الفلسفة أو غيرها هو تراث ضال متضارب متخبط، يتناول أجزاء من الحقيقة ليشوهها ويمزقها ويفتتها، ولا ينبني عليه -أبدا- واقع متناسق متفاهم أو متناغم، فضلا عن أنه لا يصيب الحقيقة أبدا، ولا يلتقي بها، وإنما دائما يحوم حولها ثم يضل بعيدا عنها، ككل عنصر شارد يذهب بعيدا عن الحقيقة.

أما منهج الأنبياء فيقوم على البصيرة.. ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ [الجاثية: ٢٠].. ﴿ قل هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨].. ومحل البصيرة هنا هو الإنسان كله.. كل وعي الإنسان، وكل عواطف الإنسان، وكل مشاعر الإنسان، وكل ما ينطلق من هذا الإنسان.. فكل هذا يتعامل معه المنهج الرباني.. فيخاطب الإنسان جميعه؛ يخاطب عقله، مختلطا بوجدانه وعواطفه، مختلطا بتجاربه، مختلطا بطموحاته. ولهذا نجد أن المنطق القرآني، يدخل إلى كيان الإنسان ليحدث فيه إشباعا خاصا، ويشيع في جوانب الإنسان ضوء ساطعا ونورا هادئا مطمئنا، ويخرج الإنسان من هذا الخطاب الرباني وهو يشعر بالسكينة والطمأنينة ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].. مع يسره وبساطته ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]. وكما قلنا إنه كلما عظمت الحقيقة كلما كانت أيسر في التعبير عنها وفي تناولها وفي وضوحها وبساطتها.. فالشمس هي أكبر جرم وأكبر شيء في حياة البشر على الأرض، ولذلك نجدها هي أظهر شيء في حياة البشر، وكل الناس يعرفون الشمس، ولا يستطيع أحد أن يطفئ نور الشمس، ولا أن يغطي قرص الشمس إلا إذا تعمد أن يغمض عينيه أو أن يغطي رأسه.. لكن إذا ترك نفسه بكيانه الطبيعي لا بد أن يستيقن هذه الشمس ويراها كما يراها كل أحد على الأرض. فهي حقيقة عظمى، شديدة الوضوح، شديدة النصاعة.

قضية الألوهية أشد وضوحا وأشد نصاعة.. ويحسها كل إنسان، ولا يستطيع أن يستريب فيها أي إنسان.. لأنه -ببساطة- كل إنسان يعلم أنه لم يصنع نفسه، ولم يوجد نفسه، ولم يخلق الأشياء التي حوله، ولا يعرف كيف نظمت، بل كيف تكوَّن هو

أصلا، ولا كيف تناسقت أجزاؤه بعضها مع بعض، ولا كيف تتفاهم أجهزته بعضها مع بعض. بل لا يستطيع هو أن يوقف أي حركةً داخل جسده إذا أراد، ولا أن يفتعل أمرا لا يريده الله.

فالإنسان -إذا كان عاقلا- يدرك بالبداهة أنه ليس صانع نفسه، وليس خالق نفسه.. ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].. فهذه القضية شديدة النصاعة، وشديدة الوضوح، وشديدة التآلف مع قلب الإنسان ومع عقله ومع جوارحه ومع أحاسيسه وشعوره.. فهي قضية بدهية. وحينما تصبح القضية بدهية لا تحتاج إلى دليل كبير، ولا تحتاج إلى إعمال عقل في صورة شاقة. وإنما يكفي الإنسان أن يتلفت حوله، وأن يتفكر تفكرا دقيقا بسيطا، فإذا به يقتنع ويؤمن بهذه الحقيقة البارزة.

فإذا كانت حقيقة الشمس لا يستطيع إنسان أن يتجاهلها.. فكذلك حقيقة الله.. ليس في وسع الإنسان أن يتجاهلها.. والذين كفروا لم يكفروا لأنهم لم يروا هذه الحقيقة ولم يحسوا بها، وإنما هم يُعرضون عنها، و يضعون على أبصارهم غشاوة، كما قال نوح لربه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥-٧]. فهؤلاء لا يرون الحقيقة لأنهم يغطون أبصارهم، ويصمون آذانهم، وليس لأنهم لا يسمعون، وليس لأنهم لا يرون.. هم يعرفون الحقيقة، والحقيقة تجلجل في أعماقهم، ولكنهم يحاولون أن يخرسوا هذا الصوت الذي يقلقهم، والذي يقض مضاجعهم، والذي يتعارض مع شهواتهم وأهوائهم وشياطينهم. والحقيقة -حقيقة الله، وأنه هو الخالق، وأنه مالك هذا الوجود- حقيقة لا يستطيع أن يماري فيها عقل طبيعي أبدا، وإنما النفس هي التي تنحرف، والقلب هو الذي ينحرف.. ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].. ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].. فالقلوب.. وهو تعبير عن موطن الإيمان، وموطن الاستجابة، وموطن الاستسلام هي التي ترفض.. وهم الذين يعرضون عن الحق، لا يريدونه.. فلذلك نجد المنهج الإسلامي والمنهج القرآني والخطاب القرآني يخاطب البصيرة.. البصيرة التي تستعمل القلب كما خلقه الله.. وتستعمل النظر، وتستعمل السمع، وتستعمل كل ما في كيانها لتتعرف على خالقها.. بل هي لا تملك إلا أن تستجيب.. لأن في أعماقها من يذكرها بالله عز وجل.. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].. هذه الأعذار غير مقبولة، وسترد على أصحابها: أنهم ليسوا غافلين، وليسوا جاهلين، ولا يجوز لهم أن يتبعوا آباءهم، لأنهم يعرفون الحقيقة.. ومن ثم فقضية الألوهية قضية واضحة ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].. هو شهيد على هذه الحقيقة.

فمنهج الأنبياء يخاطب البصيرة التي هي كل ما يعي ويحس ويشعر في الإنسان. وهذه البصيرة بسيطة، تتعامل مع الأمور بطريقة مباشرة، لا تحتاج إلى تلفيقات، ولا إلى تعقيدات، أو إلى تزيينات.. وإنما تتعامل مع الحقيقة في بساطتها، وفي براءتها، دون أن تحتاج إلى إعمال كثير للعقل.. لأنها حقيقة قريبة جدا، وملموسة جدا، وواضحة وجلية في نفس الإنسان.. إلا أن يكون يريد أن يعرض، ويريد أن يكفر، ويريد أن يبعد عن الحقيقة التي تبدو واضحة.

فإذا أردنا أن نفهم أو أن نعرف حقيقة لا إله إلا الله لا يسعنا إلا أن نتبع منهج الأنبياء.

وإذا نظرنا في تاريخ الأنبياء وفي العرض القرآني لجميع الأنبياء سنجد أن منطقهم يكاد يكون واحدا، وتعبيراتهم تكاد تكون واحدة. بل ألفاظهم تكاد واحدة.. بل هي كذلك. كل نبي يظهر على مسرح هذه البشرية يصرخ فيها ويقول ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].. ويقرر أنه بشر لا يملك لهم ضرا ولا نفعا. والذي يستعرض القرآن كله؛ وخاصة سورة الأعراف أو سورة هود أو سورة الشعراء، تلك السور التي جاء بها الأنبياء يتواترون ويتحدثون بلغة واحدة وبتعبير واحد وبكلمات تكاد تكون واحدة.. هذه دلالة على أن منطق الأنبياء منطق واحد، والكلمات كلمات بسيطة.. ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].. فالأنبياء لم يأتوا أبدا ليقولوا للناس أن هناك إلهاً، وإنما ليقولوا لهم اعبدوا الله الذي تعرفونه، وتعرفون أنه حق، وفطرتكم تدعوكم إليه، بل وكيانكم يؤمن به، والواقع الذي تعيشون فيه من أرض وسماء، وكل شيء حولكم يقول لكم أن الله هو الحق.. فارجعوا إلى هذا الإله، وأعطوه حقه، ونزهوه عن كل تلك الضلالات التي تعتقدونها فيه.

فالأنبياء ما جاءوا ليقولوا للناس أن هناك إلهاً، أو ليدللوا على أن هناك خالقاً.. فهذه قضية بديهية مركوزة في فطرة البشر لا تحتاج إلى دليل خارجي.. وإنما جاءوا ليقولوا للناس: ارجعوا إلى الله.. ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣-١٤]. هكذا كان الأنبياء في بساطة شديدة يخاطبون الناس بهذه القضية ليعيدوهم إلى حظيرة الألوهية الواحدة، لكي يعبدوا الله كما يريد منهم أن يعبدوه.

فنحن لسنا في حاجة إلى هرطقة الفلاسفة، ولا إلى تعمقات وتكلفات الرهبان والصوفية والكهنة، ولسنا في حاجة إلى استهواءات العابثين.. ولكننا نريد أن نسلك الطريق القويم البسيط الهادئ الذي يوصلنا إلى الحقيقة بأسهل طريق وبأجلى صورة كما أمرنا الله عز وجل.. ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. فالله عز وجل يسر لنا هذا القرآن ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

الإيمان بالله بدهية عقلية وضرورة فطرية

وقضية لا إله إلا الله -كما نرى من لفظها- قضية تنفي وتثبت.. تنفي الألوهية عن كل شيء إلا الله.. وتثبتها لله وحده.. فلا إله إلا الله هي إفراد الله بالألوهية، ونزعها عن كل ماعدا الله عز وجل. وهذه قضية بسيطة، ومفهومها بسيط، ودلالتها بسيطة.. لماذا لا إله إلا الله؟ لأن قضية الألوهية مرتبطة بقضية خلق هذا الوجود وتصريف هذا الوجود وملكية هذا الوجود. فمؤهلات الألوهية -إذا جاز هذا التعبير- تكمن في أن لا إله إلا هو الخالق وهو المالك وهو المصرف لكل ما في الكون وهو الضار والنافع والمعطي والمانع والمحي والمميت فهل هناك أحد غير الله يستطيع أن يفعل ذلك.. ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].. فليس هناك إله مع الله.. ولأن هذه الحقائق وهذه الصفات وهذه الخصائص يتفرد بها الله عز وجل فكان طبيعيا جدا أن يتفرد الله بالسلطان، ويتفرد بالملك، ويتفرد بالهيمنة. ومن هنا كانت شهادة ألا إله إلا الله هي أصدق قولة في تاريخ الإنسان وفي تاريخ الكون، لأنها لا تتلبس ولا تتشابه بصورة أخرى أو بحقيقة أخرى. ليس هناك إله غير الله يخلق، وليس

هناك إله غير الله يصرف الوجود، وليس هناك إله غير الله يحيي ويميت.. فحينما يقول الناس نشهد أن لا إله إلا الله فهم يقولون أصدق كلمة، ويشهدون على أعظم كلمة.

والشهادة هي الإخبار عن علم، وعن يقين. فالذي يشهد لا بد أن يكون موقنا وعالما على ماذا يشهد وإلى ماذا يدعو. فالشهادة -شهادة ألا إله إلا الله- هي شهادة العالِم المستيقِن أنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، لأنه يعلم أنه لا يستحق هذه الألوهية إلا الله، ولا تليق إلا به وحده سبحانه وتعالى.. ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص].. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].. هذا التفرد هو تفرد الألوهية بكل صفات الكمال وبكل صفات الجلال وبكل صفات الجمال. ومن ثم شهادة ألا إله إلا الله قائمة على هذا العلم اليقيني، أو ينبغي أن تكون قائمة على هذا العلم اليقيني. والذي لا يعرف معنى الألوهية سوف تكون شهادته وقولته شهادة معرضة للخطأ والانحراف.. لذلك كان أول شرط لتحقق لا إله إلا الله هو العلم.. لأنه بدون العلم بقضية الألوهية وبقضية العبودية، وأن هناك ربا وهناك مخلوقا، ولا تشابه بينهما؛ لا في الوجود ولا في الصفات ولا في السلطان لا تتحقق هذه الشهادة. ولذلك كان قول الله عز وجل ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].. هو الشرط الأول الذي تتحقق به الشهادة؛ أن يكون عالما بها، ليس مقلدا.. وإنما يقولها عن علم وعن معرفة. وهذا العلم يستتبع اليقين ويستتبع الصدق، لأنه لا يكفي أن يعرف، ولكن لا بد أن يستيقن.. ولا يكفي أن يستيقن، ولكن لا بد أن يكون صادقا في هذه الشهادة، وأن يكون محبا لهذه الشهادة، وأن يكون متقبلا لكل ما تقتضيه هذه الشهادة، وأن يكون متبرئا من كل ما يناقض هذه الشهادة.. فتصبح شهادة ألا إله إلا الله لها هذه الشروط من العلم، واليقين، والصدق، والمحبة، والقبول، والبراءة مما يناقضها.. هذه شرائطها، ولا بد أن تتحقق كلها. فالذين يعلمون أنه لا إله إلا الله فقط ثم لا يصدقون بها ولا يوقنون بها ولا يحبونها ولا يتقبلون مقتضاها ولا ينكرون ما يغايرها ويضادها.. هؤلاء لا قيمة لعلمهم هذا.

فهذه الشهادة -شهادة الا إله إلا الله- بالمنطق الإيماني واليقيني والبديهي هي قضية بارزة واضحة.

وحينما يشهد الإنسان ألا إله إلا الله بهذا العلم، ويشهد بألوهية الله الواحدة المتفردة بالخلق والإحياء والإماتة والضر والنفع والعطاء والمنع والتصريف والملك، فلا بد أن يقع في نفسه وجوب أن يكون لهذه الألوهية كل السلطات. فالإيمان بأن السلطة لله وحده هي نتيجة طبيعية لإدراك حقيقة الألوهية، ولا يحتاج الإنسان إلى دليل خارجي أبدا ليعتقد أن الذي تكون هذه صفاته وتكون هذه سلطاته وتكون هذه قوته ويكون هذا علمه ويكون هذا وجوده وهذه صفات هذا الوجود لا يملك إلا أن يجد نفسه خاضعا لهذا السلطان. فتتصبح شهادة ألا إله إلا الله تعني في الحقيقة أن لا سلطان إلا لله، وألا سلطة إلا لله، وأنه لا يجوز أن ينازع الله في سلطانه أحد من مخلوقاته أبدا، ولا يستطيع شيء أصلا أن ينازعه. فالقضية إذا بحثناها من زاويتها العقلية البحتة فهي قضية بدهية تفرض نفسها على العقل البشري إذا كان يريد أن يعرف الحقيقة، ولا تحتاج إلى جهد طويل ولا كبير.

والفطرة البشرية تنبعث إلى هذه الحقيقة دون تفكير ودون تعمد.. وإذا سألت الإنسان بطريقة مفاجئة هل تؤمن بالله؟ لا يستطيع أن يقول لا.. لأنها قضية مركوزة في فطرته. لكنه إذا فكر بعد ذلك قد يقول: لا، أنا كنت مخطئا.. لأنه يريد أن يعارض ويريد ألا يؤمن.. لكن البديهة والفطرة تؤمن إيمانا يقينيا بالحقيقة.

وكما أقول دائما: أن الإيمان بالله ضرورة عقلية، تفرض نفسها على العقل حتى وإن كان عقلا كافرا، حتى وإن كان عقلا يرفض الإيمان بالله وبوجود الله.. فالشيوعيون الذين يتبعون ما يسمونه بالمنهج العلمي المادي يقرون تماما بأنه هناك حقيقة لا أول لها ولا آخر.. ولكن يقولون إن هذه الحقيقة التي عندهم هي المادة، فالمادة لا أول لها ولا آخر، ليس لوجودها أول ولا لوجودها آخر، وليست مخلوقة.. وهذه هي حقيقة الذي أوجد هذا الكون؛ أنه لا أول له ولا آخر، وأنه لا مثيل له. لكنهم يبحثون عن المستحيل، بينما الحقيقة قريبة منهم.. فهم رغم إيمانهم بالحقيقة الأزلية الأبدية يقولون هذا عن المادة؛ أنها أزلية أبدية، وهي التي خلقت كل شيء، ولا حد لقدرتها.. أليست هذه هي صفات الله؟! لكنهم يقولون إنها مادة عمياء صماء بكماء ميتة لا تحس.. ورغم ذلك هي التي خلقت كل هذا الأشياء المتحركة الواعية الحية. فهم يطالبون الناس بالإيمان بالمستحيل، مع أنهم يقيمون هذا المستحيل على قاعدة حقيقية؛ وهي أن هناك وجودا لا أول له ولا آخر. فكما أقول: أن الإنسان لا بد أن يصطدم في نهاية المطاف بهذه الحقيقة وبهذه الضرورة العقلية. فبدلا من أن يسير مع مقتضياتها الطبيعية من أن هذه الحقيقة الأزلية الأبدية التي خلقت كل هذا الوجود لا بد أن تكون أعلى من هذا الوجود، وتكون قد وصلت إلى قمة، أو إلى أقصى كمالات ما يمكن أن يتصور من الكمال، ولسنا محتاجين في هذا إلى الشك الديكارتي، ولا إلى الشك الفلسفي في أن نبدأ من نقطة الشك.. لا داعي أن نبدأ من نقطة الشك، لأن اليقين قائم.. لأننا ما دمنا نعي أننا موجودون، وأن الكون من حولنا موجود، فنحن نبدأ من نقطة اليقين. ولكن الشك الديكارتي والشك الفلسفي يطالب الإنسان أن يشك في كل شيء، أي أن يغالط نفسه، ثم يتدرج من هذا الشك إلى إثبات هذا الوجود، ثم إلى إثبات أن هناك موجد لهذا الوجود، وإثبات أن هذا الوجود ناقص، فلا بد أن يكون في مقابله وجود كامل.. نحن لسنا في حاجة إلى الشك الديكارتي ولا إلى الشك الفلسفي.. نحن على يقين أن هذا الكون مخلوق بكل عناصره؛ من إنسان وحيوان ونبات وجماد وسماء وأرض وأفلاك، وهي حقيقة يقينية ليس من الممكن أن نتوهمها، وهذه الحقيقة تؤكد بدلالة قطعية أن هناك خالقاً لهذا الكون، وأنه لا بد أن يكون هذا الخالق الأزلي الأبدي قائم بذاته لا يحتاج إلى أحد، ولا يمكن أن يكون ناقصا، وإنما له الكمال الأبدي، هذه حقيقة بدهية أقرب إلى العقل وإلى الفطرة وإلى الواقع من أي افتراض آخر مما يفترضه الفلاسفة الضالون الذين يريدون أن يوصلوا الخلق إلى مادة ميتة، أو يتهموا الله أنه لا يعرف إلا ذاته، أو أنه لا يعرف شيئا على الإطلاق، إلى غير ذلك من ضلالات.. فكل هؤلاء ضلوا لأنهم رفضوا الوحي الإلهي واستندوا إلى عقولهم وإلى أهوائهم..

هذا الجانب بمنطق العقل لا يحتاج -كما قلت- إلى دليل خارجي، لأنها حقيقة، والحقيقة الكبيرة العظيمة تفرض نفسها على الإنسان، وليس الإنسان هو الذي يفرض نفسه عليها.. فكما أننا لا نفرض أنفسنا على الشمس وإنما هي التي تفرض نفسها علينا.. فكذلك حقيقة الألوهية -ولله المثل الأعلى- تفرض حقيقتها ووجودها وعظمتها وجلالها على كل إنسان حينما يدرك حقيقة ذاته هو كإنسان حي لا بد أن يكون له خالق وإله. فهذه قضية لا تحتاج إلى جدل.

القضية الثانية: وهي تتلخص في أن الله بما أنه هو خالق هذا الوجود ومصرفه ومالكه فلا بد أن يكون له السلطان أيضا. وهي حقيقة بدهية يجب أن تتبع هذا الاعتراف العميق بصفات الله وبوجوده. وينبغي على الإنسان إذا لم تُنزل له كتب أو يُبعث له رسل أن يقف ليصرخ سائلا ربه الذي خلقه: يا من خلقتني ماذا تريد مني؟ فالله عز وجل رحم هذا الإنسان أو استجاب لهذه

الصيحة التي يعرفها من خلقه، فبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، ليقول له ماذا يراد منه، ولماذا خُلق. وهي قضية بدهية.. فالرسل جاءت والكتب نزلت تمشيا مع هذه الرغبة المكنونة التي سيحسها البشر حينما يتلفتون حولهم في هذا الكون العريض الرحيب ليبحثوا عن دور لهم في هذا الوجود، ويسألوا خالقهم الذي خلقهم.. فجاء الرسل ليقولوا لهم الحقيقة حتى لا يسبقهم الشيطان إلى الإنسان فيجتال الناس عن الحقيقة. ذلك الشيطان الذي تعهد أن يغوي البشر ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].. فكان لا بد أن ترسل الرسل وتنزل الكتب حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. فجاءت الرسل والكتب لتقول للناس هذه الحقيقة البينة الساطعة التي تتناسب مع فطرتهم ومع واقعهم، ومع بدهيات الأشياء، فلا تسمع البشرية للشيطان. فهذه هي الحقيقة حينما نعرضها بصورتها العقلية، فتصبح شهادة ألا إله إلا الله مطلب طبيعي واقعي ضروري لكل إنسان يحترم نفسه ويحترم عقله ويتعامل مع الحقيقة.

الدليل الشرعي على الألوهية الواحدة

أما إذا جئنا إلى الدليل الشرعي فهو متوفر والحمد لله بصورة يصعب على الإنسان إحصاؤها؛ فالقرآن كله يتحدث عن هذه الحقيقة. فإذا أردنا أن نقول ما هو الدليل على هذه الحقيقة نقول إن كل آي القرآن إنما تتكلم في هذه الحقيقة، وتصلح أن تكون دليلا على هذه الحقيقة.. فلسنا محتاجين إلى كلام المتكلمين، ولا إلى أدلة الفلاسفة، ولا أدلة العلماء لكي نعرف حقيقة الألوهية. فالقرآن من أوله إلى آخره يتحدث في قضية "لا إله إلا الله". وسنحاول أن نستعرض بعض هذه الآيات، وهي كثيرة جدا، لكن سنستعرض أوضحها وأهمها.

لن نستعرض الآيات التي تتحدث عن أن الله هو الخالق، فهذه القضية لا يماري فيها الناس. ولا في أن الله هو الرازق، ولا أن الله هو الضار والنافع.. فإشكال البشرية الآن يكمن في أنهم لا يريدون أن يعطوا الله حق السلطان على أنفسهم وعلى حياتهم وواقعهم.. وهم يعترفون له بكل سلطاته الأخرى؛ فلا يمارون في أن الله هو الذي خلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يميت، وهو الذي يعطي ويمنع.. وإنما هم يعرضون فقط ويقفون فقط في قضية أن السلطان لله، أو أن الحكم لله.

والآيات التي وردت في أن الحكم لله كثيرة جدا، وبارزة جدا في كتاب الله عز وجل.

وقبل أن نتحدث عن القرآن ننبه إلى أن العرب حينما جاءهم القرآن، والذي جاء بلغتهم، وعلى أعلى درجة من الفصاحة، في وقت كانوا قد بلغوا فيه هم أيضا أعلى درجة من فصاحتهم، قد خاطبهم القرآن ففهموا عنه كل شيء.. فهم -الكافرون والمؤمنون- فهموا ماذا يريد الله منهم. وكما نعرف جميعا أن الأستاذ المودودي رحمه الله تكلم في هذه القضية في كتابه "المصطلحات الأربعة"، وبين أن الكفار حينما كانوا يُدْعون إلى لا إله إلا الله كانوا يعرفون منها معنى الإجارة والحماية والحب والولع والشوق والسيادة والقطبية والاحتجاب والسلطة. فكان العربي حينما يدعى إلى لا إله إلا الله كان يدرك أن هذا الرسول جاء ليقول لهم أن افردوا الله عز وجل بالحب والشوق وطلب الحماية والاستجارة والاستغاثة، وأنه هو السيد، وهو الرب، وهو الذي لا يراه عباده، لأنه يدرك كل شيء ولا يدركه شيء. فالقضية في خطاب العرب أن الخطاب كان سهلا وواضحا وميسرا، لأنه خطابٌ لهؤلاء الذين كانوا قد بلغوا أعلى درجة من الفصاحة، وقد نزل القرآن بلغتهم على أعلى درجة أيضا من الفصاحة. فلذلك لم

يكن هناك مشكلة ابتداء في أن يفهم العرب ماذا يُراد منهم. ولكن المشكلة كانت قابعة في نفوسهم.. ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ولم تكن المشكلة أيضا عند أهل الكتاب أنهم لا يعرفون، لأن كتبهم كانت قد بشرت بالنبي الخاتم، وسمته باسمه وبصفاته وبمكانه وبعلاماته. فحينما كفر الكافرون فإنهم لم يكفروا عن جهل، وإنما كفروا عن إعراض وعن استكبار.. وقصة أبي جهل وكذلك قصة حيي بن أخطب معروفتان؛ فهما قد أقرا أنه نبي. فقد جاء الأخنس إلى أبي جهل فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه[١٠].

وعن أم المؤمنين صَفِيّةَ بِنْتِ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ -زعيم اليهود- أَنّهَا قَالَتْ: " كُنْتُ أَحَبّ وَلَدِ أَبِي إلَيْهِ وَإِلَى عَمّي أَبِي يَاسِرٍ لَمْ أَلْقَهُمَا قَطّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إلا أَخَذَانِي دُونَهُ. فَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاءَ، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، غَدَا عَلَيْهِ أَبِي، حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمّي أَبُو يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبَ، مُغَلّسَيْنِ. فَلَمْ يَرْجِعَا حَتّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشّمْسِ. فَأَتَيَا كَالّيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى. فَهَشِشْتُ إلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ فَوَاَللّهِ مَا الْتَفَتَ إلَيّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمّ. وَسَمِعْت عَمّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَاَللّهِ! قَالَ: أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: فَمَا فِي نَفْسِك مِنْهُ؟ قَالَ: عَدَاوَتُهُ وَاَللّهِ مَا بَقِيتُ[١١](!!!)"

فلم يكن هناك إذن حائل بين البشرية وبين هذه الحقيقة.. وحتى هرقل قال وهو يخاطب أبا سفيان: إن كان مثلما قلتم فسيملك ما تحت قدمي هاتين، وكاد أن يذهب ليسلم لولا أنه خشي على ملكه أن يذهب.. أما النجاشي فقد آمن وهداه الله للحق.

فالحقيقة كانت واضحة، وكان طريقها إلى العقول والقلوب واضح وسهل وبسيط. وهي في كل وقت كذلك. فهي ليست صعبة على الفهم في أي وقت، وإنما على الناس أن يتوجهوا ناحية الشمس ليروها، فأما إذا أعطوها ظهورهم فأنى لهم أن يروها. فالعيب ليس في الحقيقة، فهي ليست غائمة أو مغبشة أو غير واضحة أو غير ملحة، وإنما الناس عنها يعرضون. فالقضية واضحة، ولم تكن في يوم من الأيام غائمة ولا غامضة.. لا في أي وقت مضى، ولا حتى في عصرنا الذي نحن فيه.. بل القضية في عصرنا الذي نحن فيه أشد وضوحا وأشد جلاء، فكلما زاد العلماء درجة من العلم كلما أيقنوا مرة أخرى أنه لا يمكن أن يصنع ذلك إلا الله عز وجل. فالعلم الآن يدفع البشرية دفعا إلى الإيمان، والعقل يدفعها إلى الإيمان، والتجارب تدفعها إلى الإيمان.. فلم يكن هناك عصرٌ أحوج ما يكون إلى الإيمان كحاجة العصر الذي نحن فيه، ولم يكن هناك عصر أيضا الحقيقة فيه أبده ما تكون كعصرنا الذي نحن فيه. ولكن الناس يعرضون عن الحق، ويعرضون عن هذا الدين.

أما إذا جئنا إلى القرآن فسوف نجد الآيات كثيرة جدا في هذا الموضوع، وخاصة أننا -كما قلنا- سنركز على قضية الحكم والسلطة..

---

١٠ سيرة ابن هشام ج١ ص٣١٦

١١ المصدر السابق. ج١. ص٥١٩-٥٢٠.

يقول الله عز وجل في سورة يونس ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].. لو لم تكن إلا هذه الآية في القرآن لكفى.. فالله عز وجل يسأل سؤالا استنكاريا عن هذه الحقيقة؛ حقيقة أن الله رزق الناس ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾.. وكل شيء في حياة الناس هو رزق من الله؛ من أول الشمس وضوئها وحرارتها، والقمر ونوره، والسماء وما فيها والأمطار التي تنزل، والنبات الذي ينبت، والناس والأحياء والجماد والحيوان.. كل هذا من رزق الله، وكذلك الصحة والأولاد والأكل والشراب، كله رزق من الله. والله عز وجل يسأل ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾، وكلمة رزق هنا جاءت نكرة ليعم اللفظ كل أنواع الرزق، وكل شيء في حياتنا رزق من الله، فقسمتموه على أهوائكم، ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾.. ولما لم يكن هناك إذن من الله بأن يعطي هذا الحق لأحد غيره؛ لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لبشر من البشر ولا لجن ولا لشيء لما لم يكن شيء من ذلك فإن كل مقولة تعطي غير الله حق التحريم والتحليل إنما هي محض افتراء واعتداء على ألوهية الله وعلى خصائصه وعلى حقه في التحليل والتحريم.. ومعنى هذا هو الكفر الفظيع الواضح.. فهي آية واضحة يقرؤها الناس ليل نهار تؤكد لهم هذه الحقيقة، ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

في سورة النحل ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].. ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم يعني وصف القول الذي يقولونه قبل أن يحدد مضمونه ابتداء بالكذب لشدة وضوح الكذب فيه.. ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾.. ما هذا الذي قلناه كذبا؟ ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾.. هذه هي القضية؛ أن تحللوا وتحرموا هي الكذب، الكذب بذاته، الكذب مجسما، لأنه افتراء محض واعتداء محض وتجرؤ محض وكفر محض.. ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾.. كأنكم تقولون ذلك لغرض واحد؛ هو أن تفتروا على الله الكذب، وتعمد الافتراء على الله الكذب كفر بيّن واضح. فهذه القضية أيضا شديدة الوضوح، وهذه الآية مع الآية السابقة تبين القضية بوضوح..

في سورة الشورى ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۞ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ١٠-١١].. وهذه الآية أيضا تقرر بجلاء ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾، وكلمة شيء أيضا جاءت نكرة لكي تستغرق كل شيء، ولو كان عودا من أراك، إذا اختلف البشر عليه ما كان ليكون الحكم فيه إلا لله، ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.. لماذا؟ ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾.. سيدي ورئيسي وخالقي ومالكي ومصِّرف هذا الوجود.. ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۞ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.. آيات شديدة الوضوح، أنه لا يجوز التحاكم ولا الحكم لغير الله عز وجل في أي شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا.

وفي نفس السورة يستنكر الله عز وجل ويتساءل، لكي يعلم الناس أن التلقي من غير الله شرك كبير ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].. هل هناك شركاء؟ هل أذن الله لأحد أن يشرع؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾.. فالله لم يأذن لأحد أن يشرع.. فالذين يأخذون شرعا من غير الله هم مشركون به، فهم قد ادعوا له شريكا، وهم بذلك مشركون.. وهذا تؤكده آية سورة التوبة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ

ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣١-٣٢].. فساوى الله عز وجل في هذه الآية بين الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا، بمعنى أنهم كانوا يشرعون لهم، وبين اتخاذهم المسيح إلها، وادعائهم أنه ابن لله.. جعلهم في كفة واحدة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. وقد فسر لنا رسول الله ﷺ هذا الشرك الذي وقع فيه النصارى واليهود حينما قال لعدي بن حاتم (ألم يحلوا لكم الحرام ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم فتلك عبادتكم إياهم)[١٢].

فإذن التشريع والتحليل والتحريم قضية واضحة جلية في كتاب الله وأنها من خصائص الألوهية، ولا يجوز لنبي ولا لبشر ولا لملك أن يحكم ويشارك الله في هذا الأمر.

ويقول الله عز وجل في سورة يوسف بصيغة القصر ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].. فالحكم لله وحده. وحينما يكون الحكم لله وحده تكون العبادة لله وحده.. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾.. وإذا اتخذ الناس حكما من دون الله، أو مع الله، فلم يعبدوا الله كانوا بذلك مشركين، وهذا هو الدين القيم، ولا دينا قيما غير هذا الدين.. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.. وكون الناس لا يعلمون هذا لا يغير من الحقيقة شيئا، ولا يضيف للناس شيئا.. فالذين لا يعلمون؛ هم الذين لا يتحاكمون إلى الله، وهم الذين لا يعبدونه، وهم ليسوا في دين الله، سواء كانوا يعلمون أو لا يعلمون.

في سورة النور يقرر الله سبحانه وتعالى في قطاع كبير من هذه السورة هذه القضية بجلاء ووضوح ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٤٧-٥١].. فالقضية بارزة وواضحة لا تحتاج إلى شرح، فهؤلاء الذين يزعمون ويقولون إنهم آمنوا بالله وبالرسول وأطعنا، فإذا تولوا عن شرع الله وأخذوا شرعا غير شرع الله ينفي عنهم الله عز وجل الإيمان. ولأن هؤلاء إذا دعوا إلى حكم الله لم يهرعوا إليه بينما إذا دعوا إلى حكم غيره أقروه واستبشروا به، ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].. فالادّعاء إذا اختلف عن الواقع فالواقع هو الحاكم ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [النور: ٤٩].. إذا كان لهم مصلحة في أحكام الله جاءوا مذعنين.. وكأن هذا الدين خادم لأهواء البشر، إذا احتاجوه استدعوه، وإذا لم يحتاجوه أو ضاقوا به طردوه.. وما يكون لدين الله أن يكون كذلك. وهؤلاء يقرر عز وجل أنهم إما مرتابون، وإما منافقون، وإما كافرون ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠].. والظالمون هنا تعني الكافرين، لأن أشد الظلم الكفر.. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٥١]..

١٢ أخرجه الترمذي وأحمد.

هذا هو الموقف الوحيد الصحيح.. ﴿ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]..

وتأتي آيات سورة النساء وسورة المائدة، وهي مشهورة معروفة، يقرر الله سبحانه وتعالى فيها من أول آية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].. إلى آخر مجموعة الآيات التي تنتهي بذلك القسم الرباني ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].. هذه الآيات كلها شديدة الدلالة على أنه لا طاعة إلا لله ورسوله ولا تحاكم إلا لله ورسوله إن كان الناس يدَّعون الإيمان.. فإن لم يفعلوا ذلك فهم زاعمون ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].. وأيّاً كان ادِّعاء الناس أنهم يريدون بذلك الخير والتوفيق والإحسان فهذا ادعاء مردود، لأنهم لن يعرفوا أكثر من الله، ولن يعلموا أكثر من الله، وأنه ما بعث رسوله وما أرسل إلا ليطاع بإذن الله.. فهم ما داموا لا يتحاكمون إلى الله ورسوله، ولا يجدون في أنفسهم الطمأنينة التي تجعلهم مقرين بأن حكم الله هو الخير دائما، وما داموا لا ينفذونه تنفيذا أمينا، فهؤلاء لا يؤمنون. ويقسم الله بهذا القسم العظيم ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء: ٦٥].. والقسم بهذه الصيغة لم يرد في القرآن إلا على قضايا ثلاث أساسية، وهي؛ قضية التحكيم، وقضية البعث، وقضية الرزق.. لأن هذه القضايا الثلاثة هي العُمُد التي تسند الإنسان فلا تجعله يميل ويبعد فتغتاله الشياطين.. فإذا آمن الإنسان بأن الله هو صاحب السلطان والحاكم الواحد، وإذا آمن الإنسان بأن لا شيء ولا أحد إلا الله يحيي ويميت، ومن ثم فالبعث حقيقة أيضا، وآمن الإنسان بأن رزقه بيد الله وحده، فهذه هي العمد التي إذا أيقنها الإنسان لا ينحرف ولا يضل ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.. هذا قَسَمٌ جليل يقرر بما لا يبقي لصاحب حجةٍ حجةً أنه لا بد أن يتخذ الناس شرع الله شرعا، وألا يكون في قلوبهم حرج منه، وأن ينفذوه ويستسلموا له استسلاما كاملا. وأي إدخال لمعنى لم يرد في هذه الآية هو من قبيل التلبيس والتضليل، لأن بعض الناس يتخيلون أنهم يمكن أن يقولوا فلا وربك لا يؤمنون إيمانا كاملا، ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يقولوا: إذا لم يتخذ الناس شرع الله، وإذا تشككوا فيه، ولم يجدوا طمأنينة، بل قلوبهم متحرجة منه، ولم ينفذوه يظلوا مؤمنين، ولكنه إيمان ناقص.. وهذا لا يمكن أن يتمشى عقليا ولا نصيا مع الآية أبداً.. ولو شاء الله لقال ذلك.

وتتبقى آيات سورة المائدة.. وهي آيات شديدة الجلاء في أن الله عز وجل يحكم على كل من لم يحكم بما أنزل الله أنه كافر وظالم وفاسق.. وكلها بمعان واحدة؛ تعني الكفر والاعتداء والخروج عن دين الله.. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].. وهناك حول هذه الحقيقة عدة قضايا نؤجلها لموضع قادم؛ وهي الشبهات التي تَرِد على هذه القضية من المضللين ومن علماء السوء ومن الجهلة، وأيضا بعض الضوابط؛ متى يكون الحكم بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله، والتحدث عن قول ابن عباس في هذه القضية "كفر دون كفر"، وأيضا الاستئناس ببعض ما جاء على ألسنة كثير من علماء السلف والمعاصرين في هذه القضية لكي تتجلى تماما، ونبين بعض الخطوط الرفيعة التي يضل بسببها كثير من الناس حتى من العاملين في الحركة الإسلامية وحتى من العلماء المتصدين للدعوة إلى الله، فنجدهم يقعون في هذه السقطات

الخطيرة دون أن يعوا أنهم سقطوا. فنريد أن نفرد لهذا الموضوع حديثا منفردا حتى تكون هذه القضية واضحة ومحددة، ونتناول من خلالها بعض التأصيلات لهذا الموضوع، بحيث لا يكون هناك احتمال مَهْما كان بسيطا ليعمي على أحد أو يغبش هذه القضية الواضحة.. والله أعلم.

أقوال علماء السلف والخلف والمعاصرين حول قضية الحاكمية

كنا نتحدث في الجزء السابق من هذا الفصل عن أهم قضية في هذا الوجود كله، وفي حياة الإنسان بطبيعة الحال.. وهي قضية لا إله إلا الله.

ونرى -ونحن في صدد الحديث عن نشأة المجتمع المسلم- أهمية أن نقف وقفة طويلة على القواعد الأصولية والعقائدية والحركية والأخلاقية والنظامية التي يقوم على أساسها هذا المجتمع.

فرغم أن حديثنا قد يطول حول هذه الأسس قبل أن نستكمل ما كتبه الأستاذ سيد في هذا الأمر.. لكن لا شك أنه ضرورة من الضرورات، وأنه لا يمكن أن نفهم ما هو المجتمع المسلم وكيف ينشأ ولماذا ينشأ إلا بعد أن نعرف القواعد التي انطلق منها، والقاعدة الأساسية التي قام عليها.

وبطبيعة الحال، ونحن في صدد المراجعة لكل شيء، فإن ذلك لا يعني أن ما نقوله الآن جديد جدة كاملة.. بل من المفروض أن يكون العكس صحيحا؛ أن يكون الأمر مستقرا فيما بيننا. ولكن كل ما نفعله الآن إنما هو مراجعة وترتيب للقضايا المتناثرة، وتعضيد للقضايا التي نعلمها جميعا.. فنسأل الله عز وجل أن يوفقنا إلى بيان الحق، وتيسيره في آن واحد.

ونحن نعتقد اعتقادا جازما بأن قضية لا إله إلا الله ليست قضية معقدة، ولا قضية صعبة الفهم.. بل هي قضية فطرية وبدهية وبسيطة.. وأن المعركة بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان إنما هي بسبب مغالطة الجاهلية ومكابرتها، ومحاولة الجاهلية في اتباعها هواها أن تُطمس قضية لا إله إلا الله، رغم أنها سهلة الفهم وواضحة تماما..

ولذلك نجد الأنبياء حينما جاءوا، كانوا يُعَبِّرون عن هذه القضية -كما قلنا- في بساطة شديدة وباختصار شديد، وكانوا يقفون طويلا عند قضية التزام الناس وانقيادهم لهذه الحقيقة، ويؤكدون ذلك. فالقضية ليس مجرد التعرف على هذه الحقيقة. فهذه الحقيقة في ذاتها -كما قلنا- واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لا يعمى عنها إلا من أراد ألا يراها، فيغطي عينيه حتى لا يراها. لكن الإنسان الذي يريد أن يبصر ويرى فالشمس واضحة تماما له.. وحقيقة ألا إله إلا الله أشد جلاء ونصاعة وبساطة ووضوحا من الشمس في وضح النهار. فالوقفة الطويلة التي وقفها الأنبياء، والتي يجب أن نقفها، ليست من أجل أن نقرر أنه لا إله إلا الله، فهذا أمر ينبغي أن يكون بديهيا، وسوف يحاسب الناس يوم القيامة على هذه الحقيقة على أنها بديهية كما أوردنا في الآية التي جاءت في سورة الأعراف حينما أخذ الله ميثاق البشرية فأقام عليهم الحجة، ولم يقبل منهم أن يقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، لأنهم ليسوا غافلين.. ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] ولا يندرس دين الله أبدا، فدائما هناك ملامح ومعالم تدعو وتسهل على كل من يريد الحق أن يبحث وأن يصل إلى الحق في

كل وقت، فالأمر كما أقول، وكما نريد دائما في أي مواجهة بيننا وبين الجاهلية في أي وقت ألا نحس بأن القضية غامضة، أو أن القضية شائكة.. وهم مهما حاولوا أن يغالطوا أو يكابروا أو يعقدوا الأمر فهذا ناتج عن الهوى وناتج عن الجهالة التي يتصفون بها. فلا يجوز لنا أن نتردد، أو أن يخيل إلينا أن القضية صعبة وليست سهلة الفهم.

والآن نتحدث أو نسترشد ببعض أقوال علماء السلف والخلف والمعاصرين حول هذه القضية، لا لكي نؤمن بها، ولا لكي نستيقن منها، فنحن موقنون مؤمنون بها والحمد لله.. ولكن لكي نعلم أننا لسنا وحدنا الذين نتحدث هذا الحديث، وأن هناك إجماعا بين علماء السلف والخلف على أن لا إله إلا الله تعني أنه لا سلطان إلا لله، بما فيها أمر الحكم الواضح البين.

والحقيقة أني وجدت أن كتاب "إن الله هو الحكم" تأليف محمد شاكر الشريف قد جمع أطراف الموضوع في سهولة وفي بساطة.

وقد قلنا في أول الحديث أن تناولنا لهذه القضية لا بد أن يكون ملتزما بمنهج الأنبياء، وألا نخلط هذا الأمر بمقالات الفلاسفة أو الكلاميين أو العبثيين أو أصحاب الأهواء.. فالقضية كما تناولها القرآن وكما تناولها وبلّغها رسل الله جميعا كانت قضية تعتمد -كما قلنا- على البصيرة، وليس على العقل وحده، أو الوجدان وحده، أو على الأهواء.. وإنما كانت تخاطب الإنسان كله، ببصيرته التي تعبر عن العقل، وتعبر عن الوجدان، وتعبر عن المشاعر، وتعبر عن الواقع الذي يعيش فيه الإنسان. وهذا هو الأسلوب الوحيد، والمنطق الوحيد الذي يجب أن تعرض به القضية، والتي لا تفهم صورتها الكاملة إلا بها. فهذا الكتاب يعرض القضية بهذه البساطة، وبمنطق القرآن الكريم، الذي يؤيده العقل، ويؤيده الواقع، وتؤيده المشاهدة، مع بعض أقوال العلماء التي لا نريد أن نستكثر منها.

وهناك بعض القضايا الدقيقة التي قد تُشْكِل عن فهم المدعوين أو فهم جماهير الناس في العالم الذي كان إسلاميا، وأيضا قد تُشْكِل على بعضنا، سواء في الفهم، أو في الترتيب لها والتعبير عنها.. فهي قضايا قد نطلق عليها شبهات أو نطلق عليها مغالطات يحاول أعداء هذا الحق أن يستفيدوا منها أو يثيروها في وجه من يدعوهم إلى لا إله إلا الله بفهمها الغض الصحيح البسيط كما جاء به الأنبياء. فسنضطر إلى العروج عليها، وخاصة أن الرجل هنا قد مس خطوطا رفيعة تزيد الأمر وضوحا، وأيضا تنفي بعض ما قد يكون غائما ومغبشا في هذه القضية.

استعرضنا نحن بعض الآيات التي تتحدث عن قضية التشريع والتحليل والتحريم باعتبارها أمرا خاصاً بالله عز وجل لا يشاركه فيها أحد. ولا شك أن هذه النصوص التي تحدثنا عنها إنما هي قليل من كثير مما ورد في كتاب الله.. ولكني اخترت الآيات الطويلة نسبيا، والتي تدل دلالة ناصعة جدا على هذه القضية.

وهناك آيات أخرى كثيرة نذكرها على سبيل زيادة العلم وزيادة العرض. فمن النصوص الدالة على أن الحكم لله وحده لا شريك له فيه سبحانه وتعالى قوله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالى ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله تعالى ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢]، وقوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

﴿ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١].. ولا نستطيع أيضا أن نقول إن هذا حصر لكل الآيات التي وردت في قضية الحكم.

وهذه الآيات تدل دلالة قاطعة على أن الحكم لله وحده، لا يشركه في ذلك أحد، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً.. فضلا عن أن يكون فردا أو طائفة من عموم الناس.

وورد أيضا في السنة الصحيحة عن شريح بن هانئ عن أبيه هانئ أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ سمعهم وهم يكنون هانئا أبا الحَكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له (إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم، فلم تكنى أبا الحكم؟) فقص عليه هانئ سبب ذلك، فسأله رسول الله ﷺ عن أكبر أبنائه، فقال: شريح، فقال له رسول الله ﷺ (فأنت أبو شريح)، وأبطل رسول الله ﷺ الكنية بأبي الحَكم[١٣].. والسبب في ذلك أن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم.. ويقول ابن الأثير معلقا على ذلك إنما كره له ذلك لئلا يشارك الله في صفته سبحانه وتعالى[١٤]. فلا شك في أن هذا الحديث له هذه الدلالة الواضحة.

وفي دعاء الاستفتاح في صلاة التهجد يقول الرسول ﷺ (وإليك حاكمت)[١٥].. أي رفعت الحكم إليك ولا حكم إلا لك.

فلا شك أن هذه النصوص وغيرها يقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الحُكْم لله تعالى، وأن الله هو الحَكَم، وأن هذا من العقيدة، بل هو أساس عقيدة المسلم.

وإذا كان القول بأن الله هو الحَكم وأن الحُكم له وحده يمثل جزءا من عقيدة المسلمين، أو قاعدة هذه العقيدة، فإنه يعني من جانب آخر أن المسلم لا يقر بذلك لأحد دون الله تبارك وتعالى.

يقول المؤلف (محمد شاكر الشريف): "ومما تقدم يتبين أن من ادَّعى أنه هو الحَكَم، وأن الحُكم له؛ سواء كان هذا المدعي فردا أو جماعة أو هيئة أو مؤسسة أو مجلسا نيابيا أو مجلسا شعبيا أو برلمانا أو غير ذلك من المسميات فقد ادَّعى مشاركته لله تبارك وتعالى في ذلك، وليس يخفى على أحد ممن يعلم حقيقة الإسلام أن مثل هذا الادعاء هو من الكفر الغليظ بالله رب العالمين".

ويقول: "ومما تقدم أيضا يتبين أن من أقر بهذه الدعوة لأحد دون الله تبارك وتعالى فقد أقر بشريك لله تبارك، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ولا يخفى أيضا أن ذلك من الكفر الأكبر الغليظ، نعوذ بالله من كل سوء".

---

١٣ أخرجه النسائي كتاب القضاء، باب إذا حكموا رجلا فقضى بينهم، وأبو داود كتاب الأدب في تغيير الاسم القبيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

١٤ لسان العرب ٩٥٢/٢.

١٥ صحيح مسلم. ج١. ص٥٣١.

فالذي يدّعي، والذي يقره على هذه الدعوى كلاهما يقع في الكفر الغليظ الذي يخرج من الملة، أو الذي لا يدخل فيها أصلا، والله أعلم.

معنى كلمة الحكم

ويتكلم عن معنى كلمة الحكم أيضا كمدخل لبيان هذه القضية.. فيقول:

"وإذا رجعنا لمعنى كلمة الحكم نجد لها عدة معان، يتعلق منها بموضوعنا معنيان؛

المعنى الأول: القضاء والفصل في الأمور المعينة اعتمادا على تشريع سابق، ويكون دور القاضي في هذه الحالة البحث في نصوص التشريع عما ينطبق على الحالة المعروضة، ثم يحكم فيها بما يدل عليه ذلك التشريع، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٤٢]..

فالمراد بالحكم في هذه النصوص وما شابهها القضاء والفصل في الأمور على وفق التشريع المنزل من عند الله تبارك وتعالى.

وهذا النوع من الحكم ليس خاصا بالله سبحانه وتعالى، ولا يُمنع المسلم من مزاولته. وطبيعة هذا النوع من الحكم يتعلق بوقائع معينة محددة. فكل مسلم استوفى شروط القضاء المعروفة يمكنه مزاولة هذا النوع من الحكم"..

فالقاضي لا يُنشئ حكما من عنده، وإنما يرجع في ذلك إلى تشريع الله عز وجل.

ثم يقول: "المعنى الثاني: القضاء والفصل في الأمور بغير اعتماد على تشريع سابق، أو القضاء والفصل في الأمور اعتمادا على تشريع يضعه القاضي أو الحاكم من قِبَل نفسه، وليس موضوعا له من قبل أحد غيره.

فهذا النوع من الحكم يكون الحكم فيه بمعنى التشريع المبتدأ الذي يبتدئه الحاكم من عند نفسه من غير أن يمليه عليه أحد، أو يتبع فيه أحد".

وهذا طبعا هو المعنيُّ بموضوعنا هذا.

"وفعل الحاكم في هذا الحكم أنه يضع من عند نفسه التشريع، ويبين الأحكام المترتبة على الأقوال والأفعال والتصرفات".

وبطبيعة الحال هذا القاضي أو الحاكم قد يحكم في قضية عين -أي في قضية معينة- بالحكم وفقا لما شرعه هو. يقول: "ويدل على هذا المعنى لمفهوم كلمة الحكم قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠].. ﴿ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣].. ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ [الأنعام: ٦٢].. فالمراد بالحكم في هذه النصوص وما شابهها إحداث تشريع مبتدأ للحكم في القضايا؛ سواء كانت قضايا كلية عامة، أو قضايا معينة محددة".

وبطبيعة الحال المعنى الثاني هو المختص بالله عز وجل. فحقيقة دين الإسلام تقرر أن هذا النوع من الحكم مختص بالله رب العالمين، لا يشركه فيه أحد من خلقه.

يقول "ومن هنا يتبين أن الحكم بما أنزل الله يراد به:

١- الإيمان بالتشريع المنزل من عند الله وقبوله واتباعه والدعوة إليه، وعدم إحداث شيء يناقضه.

٢- القضاء والفصل في الأمور على وفق تشريع الله الذي جاء به الكتاب والسنة".

يقول "ولعله يصبح من الواضح جدا الآن أن مطالبة المطالبين بالحكم بما أنزل الله لا تعني تنفيذ الحدود الشرعية فقط، ولا تنفيذ أحكام الأسرة فقط.. وإنما تعني الالتزام التام الكامل بكل الأحكام الشرعية التي دلت عليها النصوص، والحكم بموجبها، وتهيئة جميع الظروف والأحوال أمام الناس لكي يتمكنوا من التقيد بشرع الله تبارك وتعالى. فلا يقال عن نظام مثلا أنه ملتزم بالإسلام وبالحكم بما أنزل الله وهو لا يتيح الفرصة أمام الموظفين والعاملين فيه أن يؤدوا الصلاة في مواقيتها.. ولا يقال عن نظام إنه ملتزم بالحكم بما أنزل الله وهو يوصد أمام الناس أبواب الحلال من المطاعم والمشارب والمناكح، ويفتح لهم أبواب الفسق والفساد والفجور على مصاريعها.. ولا يقال -أيضا- عن نظام إنه يحكم بما أنزل الله بينما هو يحارب الدعاة إلى الله أشد المحاربة، ويفسح المجال أمام أصحاب العقائد المنحرفة والبدع المهلكة.. ولا يقال عن نظام أنه يحكم بما أنزل الله، وإن ذكر في دستوره أن مبادئ الشريعة الإسلامية، أو أن الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع، بينما محاكمه مفتحة الأبواب يقضي فيها بين الناس بما يناقض حكم الكتاب والسنة".

فهذا أيضا من الأمور التي توضح أن الواقع هو الذي يحكم على الادعاء، وأنه لا يكفي أن يدعي الإنسان أنه يؤمن بشرع الله، أو أنه يؤمن بشريعة الله، أو حتى أنه لا يتلقى إلا من شريعة الله ثم يكون الواقع مناقضا لذلك، فهذا لا يقال عنه إنه نظام إسلامي، أو نظام يحكم بما أنزل الله، كما هو موجود في الواقع في السعودية مثلا.. فمن ناحية التقول والادعاء يكررون كل ذلك؛ سواء الحكام أو العلماء.. لكنهم في الواقع يوالون غير المسلمين، ويفسدون في الأرض بكل ما أوتوا من قوة، ويحاربون دين الله في كل مكان.

بعد ذلك يتكلم عن أوصاف الذي يحكم بغير ما أنزل الله.. ما هي أوصاف تارك الحكم بما أنزل الله عز وجل؟ ويذكر عدة أوصاف كلها مستقاة من كتاب الله عز وجل.

فمن الأوصاف التي وصف الله بها الذين يحكمون بغير ما أنزل الله:

أولا؛ الكفر: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]..

ثانيا؛ هو الظلم ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]..

ثالثا: الفسق ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]..

رابعا: عدم الإيمان ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣].. ويقول تعالى في سورة النور ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧].. كما يقول في سورة الأحزاب ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].. كما جاء في سورة النساء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]..

خامسا: التحاكم إلى الطاغوت، يقول الله عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].. فلا شك أن الذي يُعرض عن حكم الله إنما يتجه إلى حكم الطاغوت.

سادسا: اتباع الهوى ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].. وقوله تعالى ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨].

سابعا: ابتغاء حكم الجاهلية في قوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثامنا: وصفهم بالنفاق؛ وهذا في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

تاسعا: وصفهم بمرض القلب والشك والارتياب، وعدم الثقة في عدل الأحكام الشرعية؛ وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

الوصف العاشر: الشرك ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

الحادي عشر: وصفهم أيضا بتقليد الكفار والمشركين في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فهذه كلها أوصاف لمن لا يريد أن يتحاكم إلى الله وإلى رسوله.

وينقل أقوال بعض العلماء التي جاءت في تكفير من ترك حكم الله ورسوله وعدل إلى ما سواه من القوانين الوضعية.. فيقول:

"يقول ابن تيمية رحمه الله: ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر، فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينـزلها الله؛ كسوالف البادية،

وكأوامر المُطَاعين فيهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر.. فإن كثيرا من الناس أسلموا، ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية بينهم التي يأمر بها المُطَاعون فيهم، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار.. والحكم بما أنزل الله واجب على النبي ﷺ وكل من تبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر"[١٦].

والاستحلال هنا هو الممارسة، والعدول عن حكم الله الممكن والمعلوم إلى حكم غيره. والإنسان لا يلجأ إلى شيء ويجعله قانونا إلا إذا استحله.. وهذا غير المعصية العابرة.. ولكن أن يقول إن هذا هو ما سأحكم به، أو ما يحكمنا فهو استحلال، سواء نطق بذلك أم لم ينطق.

"يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] يقول: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات مما يضعونه بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، وهو ما يسمى بالياسق أو الياسا؛ وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل أو كثير"[١٧].

"يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في معرض شرحه لقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ [النساء: ٦٠]، يقول: من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكا في الطاعة، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله به في قوله ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]، فمن خالف ما أمر به الله ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعا لما يهواه ويريده فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تبارك وتعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان، لما في ضمن قوله ﴿ يَزْعُمُونَ ﴾ من نفي إيمانهم.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الديار السعودية، وهو الذي كان قبل الشيخ عبد العزيز بن باز قال الشيخ: إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين في الحكم به بين العالمين والرد إليه عند تنازع المتنازعين. وقد نفى الله الإيمان عمن أراد التحاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ من المنافقين، كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ

١٦ منهاج السنة النبوية ٢٢/٣.

١٧ تفسير ابن كثير ٦٧/٣.

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠]، وكما قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]، قال الشيخ: فانظر كيف سجل تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق، ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ولا يكون كافرا، بل هو كافر مطلقا؛ إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد ".

ويبين الشيخ أنواع كفر الاعتقاد فيقول:

"أحدها: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهو معنى ما روي عن ابن عباس واختاره ابن جرير أن ذلك هو جحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي، وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم، ومن الأصول المقررة المتفق عليها أن من جحد أصلا من أصول الدين، أو فرعا مجمعا عليه، أو أنكر حرفا مما جاء به الرسول ﷺ قطعيا فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة..

الثاني: ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقا، ولكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع؛ إما مطلقا، أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال.. وهذا أيضا لا ريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد.

النوع الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهو كالنوعين الذين قبله في كونه كافرا الكفر الناقل عن الملة، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

الرابع: ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلا لحكم الله ورسوله، فضلا عن أن يعتقد أنه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله.. فهذا كالذي قبله، يصدق عليه ما يصدق عليه، لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة للمحاكم الشرعية، إعدادا وإمدادا وإرصادا وتأصيلا وتفريعا وتشكيلا وتنويعا وحكما وإلزاما ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدة مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة ومن القانون الفرنسي والأمريكي والبريطاني وغيرها، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.. فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكمّلة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم الكتاب والسنة من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به وتقهرهم عليه وتحتمه عليهم.. فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة.

النوع السادس: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم، يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به، ويحرصون على التحاكم إليه عند النزاع، بقاء على أحكام الجاهلية، وإعراضا ورغبة عن حكم الله ورسوله، فلا حول ولا قوة إلا بالله."

وهذه الأمور الستة كلها كفر اعتقاد، يُخرج الإنسان عن الملة، أو لا يدخله فيها أصلا.

"يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: قوله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦] قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر بقول الله ﴿ ولا يشرك ﴾ بالياء المثناة التحتية وضم الكاف، والمعنى ولا يشرك الله جل وعلا أحدا في حكمه، بل الحكم له وحده جل وعلا، لا حكم لغيره البتة، فالحلال ما أحله تعالى، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والقضاء ما قضاه.. وقرأ ابن عامر من السبعة ﴿ ولا تشرك ﴾ بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي، أي لا تشرك يا نبي الله، أو لا تشرك أيها المخاطب أحدا في حكم الله جل وعلا، بل أخلص الحكم لله من شوائب الشرك، شرك غيره في الحكم.."

"ويفهم من هذه الآيات في قوله ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله.. وهذا المفهوم جاء مبينا في آيات أخرى، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله.. قال تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم، وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦١]. وقد بين النبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم -رضي الله عنه- لما سأله عن قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أربابا.

ومن أصرح الأدلة على هذا أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرع الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب"

ويقول "وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله سبحانه على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم أنه لا يشك في كفرهم وشركهم، إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم".

"يقول الشيخ محمد حامد الفقي: من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها".

أما الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله فيقول: "إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس؛ هي كفر بواح لا خفاء فيه، ولا مداورة ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام كائنا من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسه.. فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه غير موانين ولا مقصرين"

ويذكر المؤلف نصا عن عبد العزيز بن باز يقول: "والوجه الرابع من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية أن يقال إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولا بد إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام، وقد صرح بذلك الكثير منهم كما سلف، وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة، كما قال تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وكما قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وكل دولة -هذا الكلام للشيخ بن باز- وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله، وتحرم عليهم مودتها وموالاتها، حتى تؤمن بالله وحده، وتحكّم شريعته"..

ويقول: "إن من أقبح السيئات وأعظم المنكرات التحاكم إلى غير شريعة الله من القوانين الوضعية والنظم البشرية وعادات الأسلاف والأجداد، وأحكام الكهنة والسحرة والمنجمين التي قد وقع فيها الكثير من الناس اليوم، وارتضوها، بدلا من شريعة الله التي بعث بها رسوله محمدا ﷺ، ولا ريب أن ذلك من أعظم النفاق، ومن أكبر شعائر الكفر والظلم والفسوق، وأحكام الجاهلية التي أبطلها القرآن الكريم، وحذر منها الرسول ﷺ. ثم ذكر بعض الأدلة على ذلك إلى أن قال: وهذا تحذير شديد من الله سبحانه لجميع العباد من الإعراض عن كتابه وسنة رسوله ﷺ والتحاكم إلى غيرهما، وحكم صريح من الرب عز وجل على من حكم بغير شريعته على أنه كافر وظالم وفاسق ومتخلق بأخلاق المنافقين وأهل الجاهلية".

يقول أيضا الشيخ عبد الله بن قعود حفظه الله: "إن رفع أحكام شرعية من أحكام الإسلام، معروف حكمها من دين الإسلام بالضرورة، وإحلال قوانين وضعية من صنيع البشر مخالفة لها بدلا منها، والحكم بها بين الناس، وحملهم على التحاكم إليها.. إن ذلك شرك بالله تعالى في حكمه"

فهذه بعض الأقوال لبعض العلماء في قضية التشريع؛ تشريع أي حكم غير ما حكم به الله ورسوله.

والأستاذ محمد قطب له في هذا الأمر ملاحظة نذكرها.. يقول فيها "لو أننا استبدلنا القول حينما ندعو الناس بأن نقول لهم: أن من يُشرِّع بدلاً من الله أيّ حكم يكون كافرا بإجماع المسلمين، لعل هذا يكون أقرب إلى فهم الناس، ولا يلبس عليهم، أو لا يدع فرصة للملبسين؛ سواء كانوا علماء أو غيرهم، من أن يستغل كلمة الحكم في هذا التلبيس، لأن عندما ندعو الناس إلى الحكم بما أنزل الله قد يدخلون في بعض الشبهات، ويضللون الناس بأن هناك من يقول كفر دون كفر، أو أن هذا يعني أن من لم يحكم بما أنزل الله في جميع الأمور، وإن الدول تكتب في الدستور أن الإسلام هو دين الدولة وأن الشريعة هي

مصدر القانون.. لكن حينما نقول إن التشريع من دون الله هو كفر مجمع عليه، فلعل هذا لا يعطي فرصة للملبسين أن يلبسوا."

وهذا رأي للأستاذ محمد قطب قد لا أوافقه عليه كثيرا، لأن الذين في قلوبهم مرض لن يعدموا حججا أخرى يلبسون بها على الناس، فضلا عن أننا حينما نتحدث عن قضية أن الحكم لله فنحن نقرر ونبين حكم الذين يضعون حكما غير حكم الله، أو يشرعون لمسألة من المسائل حكما غير شرع الله، أو يستبدلون بشريعة الله شريعة الطاغوت.. فنحن نبين هذا.. ورغم ذلك هم يلبسون على الناس.

فقضية التشريع بغير ما أنزل الله؛ سواء كان بالنسبة لجملة الشريعة بأن تترك شريعة الله جملة، ويؤتى بشرع جديد أو بقوانين جديدة، أو أن يشرع تشريعا واحدا غير ما أنزل الله، ويبدل حكم الله ولو في تشريع واحد.. فهناك إجماع من العلماء - معاصريهم وسلفهم على السواء- على كفرهم. وسنبين من خلال هذا الكتاب المبسط إجماع العلماء على تكفير من ترك حكم الله ورسوله وتحاكم إلى القانون الوضعي.

يقول: "وليس هذا الذي ذكرناه ونقلناه من أقوال بعض العلماء السابقين واللاحقين يعبر عن فقه قائليه فحسب، أو أنه يمثل أحد الأقوال التي ذُكرت أو قيلت في المسألة، أو أنه يمثل اجتهاد طائفة من العلماء، وإنما هو تعبير عما عُلم من دين الإسلام، واستقر عند المسلمين كافة.."

وهذا هو الحافظ ابن كثير رحمه الله يذكر لنا هذا الإجماع حيث يقول: "فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر. فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين".

فابن كثير يبين في هذا الكلام أن التحاكم إلى الياسق التي هي قوانين وضعية، وتقديمها على شريعة الإسلام كفر بإجماع المسلمين.

وقد نص على هذا الإجماع أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول: "ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوَّغ اتباع دين غير الإسلام أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر." وقول شيخ الإسلام فيمن سوغ اتباع شريعة غير شريعة محمد يماثل قول الحافظ ابن كثير فيمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع.. وقد بين شيخ الإسلام أن صاحب هذا القول معلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أنه كافر.. بل بين شيخ الإسلام أن هذا القول يستوي مع تسويغ اتباع دين غير دين الإسلام..

ويقول أيضا في هذا الموضوع: "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله -على أحد القولين- ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]".

وينقل أيضا عن الشيخ عبد العزيز بن باز قوله: "وكل من استباح ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والخمر والربا والحكم بغير شريعة الله فهو كافر بإجماع المسلمين".

ويقول الشيخ عمر الأشقر أيضا بعد أن نقل كلام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: "ومن خلال هذا التفصيل يتبين لنا أن صنفين من الناس وقعا في الكفر الذي لا شك فيه:

الأول: الذين شرعوا غير ما أنزل الله، وهؤلاء هم الذين وضعوا القوانين المخالفة لشرع الله، حيث يلزمون بها العباد، والإجماع على كفرهم لا شك فيه، وهم الشركاء الذين عناهم رب العزة بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وهم الذين عناهم الله بقوله ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧].. أي زينوا ما شرعوه من الشرائع وما سنوه من القوانين، ومنهم أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين اتخذهم اليهود والنصارى أربابا من دون الله في قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فهؤلاء الأحبار والرهبان الذين شرعوا غير تشريع الله كفرة لا شك في كفرهم، فقد بدلوا دين الله وشرعه.

الثاني: الذين أطاعوا المبدِّلين المغيِّرين لشرع الله، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل"..

وعمر الأشقر عالم معاصر، ورجل فاضل، من فلسطين عاش في الكويت زمنا طويلاً ثم عاد إلى الأردن بعد غزو العراق للكويت.

فواضح أن هناك إجماعا على أن من شرع أي تشريع غير ما أنزل الله أو حلل الحرام أو حرم الحلال فهو كافر بإجماع المسلمين.

القوانين المعاصرة ومخالفة شرع الله

وقبل أن ننتقل إلى الشبهات التي يقولها بعض المعاندين وأعداء هذا الحق، نستعرض بعض أشياء قدمها الكاتب هنا عن بعض ما في القوانين المعاصرة.. وهي لا تحتاج إلى دليل للمخالفة المتعمدة لشرع الله عز وجل..

يقول "فمن حيث تحريم الحلال فما نهت عنه هذه القوانين من قول أو فعل أو تصرف، ورتبت على إتيانه والوقوع فيه العقوبة، وأصبح جريمة وشيئا قبيحا بحيث يؤاخذ به الإنسان ويوقف به أمام القاضي بتلك القوانين الوضعية ليلقى جزاء ما أتى من فعل أو قول أو تصرف حسبما نصت عليه هذه القوانين.. وهذا يعني بكل وضوح أن القانون يُحرِّم هذا الأمر ويعده جريمة.. فلو كان هذا الشيء المحرم بمقتضى القانون الوضعي قد أباحته أحكام الله ورسوله كان هذا منعا وتحريما لما أباحه الله ورسوله.

ولنضرب على ذلك مثلا بتعدد الزوجات، فقد أباحته الشريعة الإسلامية حتى أربع زوجات بنصوص قطعية لا شك فيها، فإذا جاء نص في قانون ليمنع تعدد الزوجات صراحة، أو يرتب على الزواج بامرأة ثانية بعض العقوبات بدنية كانت أو مالية أو غير ذلك؛ كأن يلزم من فعل ذلك بتطليق الأولى، كان هذا منعا وتحريما لما أباحه الله ورسوله، وكان هذا تبديلا لحكم الله ورسوله". والأمثلة كثيرة على تحريم الحلال في هذه القوانين.

أما من حيث تحليل الحرام، فهو يأخذ أكثر من صورة... فمن هذه الصور جريمة الزنا.. فالزنا قد حرمته نصوص الشريعة تحريما قاطعا عاما ومطلقا، بحيث لا يباح الزنا بأي حال من الأحوال، فإذا جئنا إلى أحكام بعض القوانين التي تشترط لمنع الزنا وعقوبة فاعله شروطا معينة؛ مثل أن يقع الزنا بالإكراه وليس بالتراضي، أو إذا كانت الفتاة غير بالغة حدا معينا من السن، كان هذا القانون تحليلا للزنا إذا حدث بالتراضي من فتاة قد بلغت السن القانوني. ولذلك نجد في بعض القوانين مثل هذا الحكم "لا يعاقب على جريمة هتك العرض متى كانت الفتاة بالغة وتم الفعل برضاها".. ونجد في مادة أخرى أن "الزوجة التي زنا زوجها في منزل الزوجية لها الحق في أن تزني مع من شاءت ولا تثريب عليها إذا فعلت ذلك".. هذا أيضا في القانون الوضعي.. "فماذا يعني هذا؟ ألا يعني ذلك أن الزنا غير معاقب عليه في هذه الصور.. وماذا يعني أيضا؟ ألا يعني أن القانون لا يرى في الفعل -بهذه الشروط- جريمة تستحق الإنكار والعقوبة.. وهل هذا إلا تبديل لحكم الله ورسوله؟ وهل هذا إلا تحليل وإباحة لما حرمه الله ورسوله؟"

"ومن هذه الصور أيضا صورة إقرار الحرام والسكوت عليه.. فإذا تركت القوانين شيئا مما يجري في حياة الناس وفي تعاملاتهم ولم تتعرض له بأمر ولا نهي، ولم ترتب عليه ثوابا ولا عقابا كان هذا دليلا على أن القانون لا يرى في هذا الشيء بأسا، ولا يرى في فعله أو تركه حرجا.. لأن القانون -كما ذكرنا- هو المعني بوضع أحكام الأفعال والأقوال والتصرفات.. وترتيب النتائج عليها، والإلزام بها طوعا أو كرها.. فإذا لم يضع القانون لأمر يجري في حياة الناس حكما محددا، بل تركه وسكت عنه، دل ذلك على أن القانون لا يرى في هذا الأمر ما يستدعي أن يتعرض له، ولذلك تركه وسكت عنه، ولم يلزم الناس أو يقسرهم تجاهه على شيء ما..

فماذا يعني هذا؟ إنه يعني إقرار هذا الأمر وإباحته.. فإذا كان هذا الأمر قد حرمته الشريعة، فإن هذا يعني أن القانون قد أحل الحرام.

فإذا افترضنا أن أحد الأشخاص أتى هذا الأمر، فقام شخص آخر ورفع أمره إلى القضاء، فبأي شيء يقضي القضاء المتحَاكم إليه؟ لن يجد القاضي في القانون الوضعي المعمول به أي شيء يستطيع به أن يحاسب هذا الشخص، وسيقضي بأنه لا وجه لإقامة أي شيء ضده، لأن الفعل أو القول أو التصرف الذي أتاه لم يمنعه القانون ولم يحرمه ولم يضع له عقوبة، وبالتالي فلا حرج عليه في فعله..

خذ لذلك -مثلا- الربا؛ فقد حرمته نصوص الشريعة تحريما قاطعا، حرمه الله في كتابه وحرمته سنة رسول الله ﷺ، وأجمع المسلمون قاطبة على تحريمه.. ومع ذلك لا نجد في القوانين الوضعية أدنى إشارة إلى النهي عن الربا أو التحذير منه أو وضع أي عقوبة لفاعله.. بل نجد أكثر من مجرد السكوت والإقرار، حيث نجد تنظيم كيفية الربا بين الأفراد والمؤسسات، والتحريض على فعله"..

فليس بالضرورة أن يكون هناك تشريع، لكن مجرد السكوت عما حرمه الله ورسوله فلا يصدر القانون حُكماً بشأنه ويسكت عنه فهذا تشريع مضاد لما شرعه الله، وهو تحليل لما حرمه الله عز وجل.

فتبديل القوانين الوضعية للشرع المنزل، وتحريمها للحلال المجمع عليه جلي وواضح، وتحليلها للحرام المجمع عليه -وهذا كفر بإجماع المسلمين- يكون إما بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أو السكوت عن بعض الأقوال أو الأفعال أو التصرفات التي حرمها الله ورسوله.

الشبهات والمغالطات في مسألة كفر من ترك الحكم بما أنزل الله

نأتي بعد ذلك إلى بعض الشبهات أو المغالطات التي ترد من أعداء هذا الحق ممن يزعمون الإسلام، وهذه الشبهات أكثرها يأتي ممن يدّعون الإسلام؛ سواء من الجماهير العادية، أو من بعض المشتغلين بالحركة الإسلامية، أو بعض العلماء الرسميين في العالم الإسلامي. ومن هذه الشبهات:

الشُبهَة الأولى: وهي؛ حديث رسول الله ﷺ (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)[١٨].. ويتصورون أن القول وحده، والتلفظ بهذه الحروف وهذه الكلمات تعطي لصاحبها الحكم بالإسلام. هذا القول مردود:

أولا: لأن هذا الحديث لم يذكر فيه الإيمان برسول الله ﷺ، ومعنى ذلك إذا أخذنا بظاهر الحديث أن من قال لا إله إلا الله ولم يقل أن محمدا رسول الله فهو أيضا مسلم.. وهذا مناقض لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

الأمر الثاني: أن القول حينما يرد في حديث رسول الله ﷺ وفي لغة العرب يأتي بمعنى الإقرار الذي يترتب عليه مقتضيات لهذا الإقرار.. فمن قال لا إله إلا الله؛ أي: من شهد أن لا إله إلا الله.. وإلا لو أن الأمر قول فقط لما كان هناك ضرورة -بل يكون عبثا- أن يأتي أي أمر بفعل أو أي أمر بترك إذا كان الإسلام هو قول فقط باللسان.. فلِمَ تأتي بعض الأحاديث تكفِّر من ترك الصلاة؟ مثل (من ترك الصلاة فقد كفر)[١٩]، أو (الأمر الذي بيننا وبينهم -أي الناس- الصلاة، فمن تركها فقد كفر)[٢٠].. فلو أن الفعل لا يدخل في التكفير وإنما فقط القول في قوله (من قال لا إله إلا الله) لكان عبثاً من رسول الله ﷺ -وهو يتنزه عن ذلك- أن يقول (من ترك الصلاة فقد كفر)، والصلاة فعل وليست قولا.

وثالثا: معلوم باتفاق المسلمين أن من استحل شيئا معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر؛ سواء كان فعلا أو تركا..

إذن، هذه الشبهة لا تصح، فضلا عن أنها تعارض المنهج والقاعدة الأصولية التي ذكرناها في أول حديثنا؛ وهي أن المسلم، أو أي إنسان يريد أن يتعرف على حكم من أحكام الله ورسوله فعليه أن يجمع كل ما ورد من الأحاديث وما ورد من الآيات

---

١٨ الحديث رواه معاذ وأنس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)، أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ (من مات يشهد..) وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ (من مات يشهد..)، ولمسلم والترمذي من حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار). قال الترمذي: وقد روي عن الزهري أنه سئل عن قول النبي ﷺ (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) فقال: إنما كان هذا في أول الإسلام قبل نزول الفرائض والأمر والنهي قال أبو عيسى (الترمذي) ووجه هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة وإن عذبوا بالنار بذنوبهم فإنهم لا يخلدون في النار.

١٩ أخرجه ابن حبان في صحيحه، وأخرج مسلم وأحمد وأصحاب السنن (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة).

٢٠ أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن بريدة -رضي الله عنه.

وما ورد من تطبيق الصحابة والقرون المفضلة وأقوالهم، ثم يستخرج الحكم.. فهناك أحاديث أخرى كثيرة تقرر أنه لا بد من الإيمان بالله، وشهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن يكفر بكل ما عبد من دون الله.. فهناك أحاديث أخرى تقرر إضافات وتحديدات، تقضي بأن قول لا إله إلا الله لا يعطي للناس صفة الإسلام كما قلنا في سابقا إلا إذا تحققت شروط لا إله إلا الله؛ من العلم والصدق واليقين والإخلاص والقبول لها والمحبة لها والبراءة مما يخالفها مثل قوله ﷺ. فهذه أول شبهة وهي ساقطة مردودة ولا قيمة لها.

الشبهة الثانية: وهو يتحدث عنها باستفاضة، وهي قول ابن عباس "كفر دون كفر"..

يقول: "وهو أحد الأقوال التي وردت في تفسير الآية مما يرويه المفسرون عن ابن عباس -رضي الله عنه- وغيره، والنقل عن ابن عباس وغيره في ذلك صحيح.. لكن السؤال الذي ينبغي أن يدرك المتكلمون في هذا الأمر جوابه الصحيح هو: في حق من تقال هذه الكلمة؟

هل تقال هذه الكلمة في حق كل أحد حكم بغير ما أنزل الله بغير ضوابط ولا قيد؟

أو: هل تقال في حق حكام لم يقبلوا شرع الله كله أو بعضه؟

أو: هل تقال في حق من بدل شرع الله كله أو بعضه؟

أو: هل تقال في حق من آثر على شرع الله شرعا آخر؟

أو: هل تقال في حق من طرح شرع الله كله أو بعضه وراء ظهره وأتى بقانون وضعي قدمه على شرع الله وأنزله منزلة أعلى مما نزل بها شرع الله؟

أو: هل تقال في حق من جعل التحاكم عند التنازع إلى ما وضعه البشر بعقولهم وأهوائهم ولم يجعله إلى شرع الله؟ هل كان في زمن ابن عباس -رضي الله عنه- وغيره من العلماء من فعل ذلك من الحكام، أو قريبا منه، حتى يمكن أن يحمل حامل كلامه عليهم؟

والجواب الذي لا جواب غيره أنه لم يكن ذلك أبدا، وأن الثابت تاريخيا أنه لم يحدث منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم حتى مجيء التتار واستيلائهم على ديار المسلمين أن وجد حاكم سن تشريعا أو قانونا مناقضا لشرع الله وأعلنه شرعا متبعاً عاماً يُحكم به بين الناس. وأول ما حدث هذا كان بعد استيلاء التتار على ديار المسلمين وإعلانهم "الياسا" شرعاً عاماً متبعاً يُحكم به بين الناس.

وقد تبين لنا بما نقلناه عن الحافظ ابن كثير فيما مضى أن هذا كفر بإجماع المسلمين..

فما القصة إذن في قولهم "كفر دون كفر"؟

يقول: إنه لا بد من ذكر أصلين مهمين قبل الدخول في القضية؛

الأصل الأول: أن من لم يقبل حكما من أحكام الله أو أحكام رسوله ﷺ، أو أي شيء جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ بعد علمه به من دين الله فقد كفر، لأن حقيقة الإسلام هو الاستسلام الكامل لله وحده، وقبول كل ما جاء من الله أو عن رسوله ﷺ. فمن لم يستسلم وأبى الانقياد ولو لحكم واحد من أحكام الله ورسوله فقد استكبر، ومن استسلم وانقاد لغير الله فقد أشرك. وكلا الأمرين خروج وردة عن الإسلام. فلا يكون المرء مسلما حتى يستسلم استسلاما كاملا لله تعالى وحده لا يشرك معه في ذلك أحدا.

والأصل الثاني: أن من قَبِل ما جاء عن الله ورسوله ﷺ، وما حكم به الله ورسوله ﷺ ثم عصى بعد ذلك وارتكب المحرمات، غير مستحل لها، معترفا بجرمه وإثمه فهو مسلم وليس بكافر، فهو في المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، ثم مآله في آخر الأمر إلى الجنة بإذن الله.

والأصل الأول هو ما يقوله كل مسلم شهد لله الواحد القهار بالإلهية وشهد لمحمد ﷺ بالرسالة.. ومن لم يقل به فليس بمسلم.

والأصل الثاني هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين لا يكفرون بمطلق الذنوب، ولا يخلدون أصحاب المعاصي في النار، خلافا للخوارج والمعتزلة ومن تابعهم.

وإذا تبين لنا هذان الأصلان فإن القصة تعود إلى وجود مخالفات ومعاصٍ كانت تصدر حيناً من أفراد الرعية، وكانت تصدر حينا آخر من الحكام والأمراء. وكان من منهج الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر، فإذا رأوا أحدا جار في حكمه أو ظلم حكموا بكفره انطلاقا من فهمهم لقوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولم يفرقوا في ذلك بين من يدخل تحت الأصل الأول، ومن يدخل تحت الأصل الثاني، وأنزلوهما جميعا منزلة واحدة.

ومن هنا انطلق أهل العلم من الصحابة والتابعين ليبينوا لهم ولمن سلك سبيلهم أن الكفر الحاصل ممن يدخلون تحت الأصل الثاني لا يكون كفرا، وإنما هو كفر دون كفر، أو كفر أصغر، أي كفر لا ينقل عن الملة.. وقد كان الحكام والولاة والأمراء في عصرهم يدخلون تحته، لأن الحكام في عصرهم قبلوا ما جاء عن الله ورسوله، وقبلوا أحكام الله ورسوله، وكان القضاء العام عندهم تبعا لشريعة الله، وإن كانوا يعصون الله في بعض وقائع الأعيان، من غير أن يمثل ذلك تشريعا عاما مغايرا لشرع الله.. وهم مع ذلك معترفون بخطئهم وتقصيرهم"...

ويقول: "ومن الأمور التي ينبغي التنبيه عليها أن كل من تكلم من العلماء بقول "كفر دون كفر" قد اتفقت كلمتهم على أن المراد بهذا القول هو هذا الصنف من الحكام الذين قبلوا أحكام الله ورسوله ﷺ، ولم يتخذوا شريعة مغايرة لها، لكنهم قد يخالفون في بعض الوقائع بدافع الهوى أو الشهوة، مع اعترافهم بأن حكم الله ورسوله هو الحق لا ما خالفه، وأنهم عاصون مستحقون للعقوبة.

وبعد هذا الوضوح والبيان في بيان معنى قولهم "كفر دون كفر" يصبح من التضليل المقصود أو الجهل الفاضح المزري بصاحبه الاحتجاج بهذه الآثار على عدم تكفير الحكام أو القضاة الذين سنّوا قوانين مناقضة لما حكم الله به أو رسوله ﷺ، وجعلوها

الشرع الحاكم والقضاء العام الذي يُقضَى به بين الناس، كما هو الحاصل الآن في الأغلب الأعم من بلاد المسلمين.. حيث استعاضوا عن أحكام الشرع المحكم المنزل على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ بقوانين وضعية اقتبسوها من الكفار المحاربين لله ورسوله من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، وقدموها عليه، وجعلوا الحكم بها والتحاكم إليها."

ولهذا يقول الشيخ أحمد محمد شاكر في تعليق له عن الآثار المذكورة "كفر دون كفر"؛ يقول: "وهذه الآثار عن ابن عباس وغيره مما يلعب به المُضِلَّون في عصرنا هذا من المنتسبين إلى العلم ومن غيرهم من الجُرآء على الدين، يجعلونه عذرا وإباحة للقوانين الوضعية التي ضربت على بلاد المسلمين."

ويعلق أيضا أخوه العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر على هذه الآثار، ويرد على الذين يريدون أن يتخذوا منها مطية لتبرير خروج الحكام عن شرع الله، ويبين أن سؤال هؤلاء النفر من الإباضية -من الخوارج- لأبي مجلز لم يكن عن القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون يخالف شريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ.. وإذا لم يكن سؤالهم عن ذلك فلا يجوز الاحتجاج إذن برد أبي مجلز عليهم في تبرير فعل من يفعل ذلك من الحكام في عصرنا الحاضر. ويكمل العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر كلامه السابق، ويبين الوصف الشرعي الصحيح لمن يفعله فيقول: فهذا الفعل إعراض عن الله وحكمه، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه.

ويجب أن نؤكد في هذا المقام على أمور، منها؛

١- أن كلمة كفر دون كفر لا تعني التقليل أو التهوين من جرم هذه المخالفة.. ولهذا يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في هذه الكلمة: وهذا، وإن لم يكن يخرجه كفره عن الملة، فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة واليمين الغموس وغيرها، فإنه معصية سماها الله في كتابه كفرا أعظم من معصية لم يسمها الله كفرا.

٢- أن من نسب إلى ابن عباس وغيره من العلماء اعتمادا على كلمة كفر دون كفر عدم تكفير الحكام الذين استبدلوا القوانين الوضعية بالأحكام الشرعية وقدموها عليها وجعلوا الحكم بها والاحتكام إليها فقد افترى عليه وعليهم كذبا عظيما. ولا يستطيع أحد أن ينقل ولا حرفا واحدا عن ابن عباس أو غيره في عدم تكفير من سبق وصفهم من الحكام، وكيف يمكن ذلك وتكفيرهم أمر مجمع عليه كما تقدم.

٣- أن كلمة كفر دون كفر قد أفرط في استخدامها طائفتان من الناس، على بعد ما بينهما من الاختلاف: الطائفة الأولى: طائفة المضلين من المنتسبين إلى العلم، الجُرآء على دين الله، المسارعين في إرضاء ذوي السلطان، الحريصين على متعهم وشهواتهم، الراغبين في زخرف الحياة الدنيا.. يقولون ذلك لينالوا الحظوة والمكانة عند السلطان، ويغدق عليهم الأموال، ويوزع عليهم المناصب والرياسات، ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ١٧٤].

والطائفة الثانية: طائفة منتسبة إلى العلم وطلبه؛ نظروا إلى قول ابن عباس وغيره من العلماء، ولم ينظروا أو يتفقهوا في ملابسات هذا القول وكيفية تطبيقه على الواقع.. وظنوا أن القول بعدم تكفير من سن قوانين مناقضة لأحكام الله ورسوله وجعلها شرعا عاما

وقضاء متبعا، ظنوا أن عدم التكفير فتوى سلفية، وأن الذي ينطبق في حق هؤلاء الحكام المغيرين المبدلين هو عدم التكفير، والنظر إليهم على أنهم مسلمون انطلاقا من قول كفر دون كفر. ومن ثم راحوا يرددون هذا القول، ويجمعون طرقه وأسانيده، ويروجون له بين الناس على أنه مذهب السلف الذي ينبغي اتباعه، بل ذهب بعضهم إلى ما هو أكثر من ذلك؛ حيث عدوا ما خالف قولهم الباطل بدعة يجب تركها والتوبة منها.

وإلى مثل هؤلاء الغافلين الذين لا يعيشون واقعهم، ويطلقون الفتاوى والأحكام وكأنهم يعيشون في القرن الأول أو الثاني الهجري، وليس في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلى هؤلاء نسوق كلاما محكما لإمام من أئمة مذهب سلفنا الصالح في عصره، ألا وهو الحافظ بن القيم رحمه الله، عسى أن يكون معينا لهم عن إدراك الحق في هذه المسألة.. حيث يقول الشيخ في بيان أنواع الفهم التي تؤدي إلى الحكم بالحق، يقول: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم إلا بنوعين من الفهم؛

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر.."

ثم يقول -نقلا عن ابن القيم- "وهذا مبني على أصلين؛

أحدهما: المعرفة بحال الواقع والناس في هذا الواقع.

الأمر الثاني: معرفة حكم الله في مثلهم.. ثم شرع يفصل الأصلين بعد ذلك". وليس هنا مجال هذا التفصيل.

فموضوع "كفر دون كفر" واضح بهذا الشكل، ومعرفة الواقع، وفهم الواقع، وإنزال الأحكام عليه من خلال معرفة مناط الحكم مهم جدا قبل أن يفتي الإنسان بفتوى قد تكون قديمة على واقع مغاير للواقع الذي جاءت فيه وعنه الفتوى القديمة.

يقول: "فلا يكفي في النظر إلى الفتوى والأخذ بها أنها فتوى سلفية ليطبقها على الواقع المعاصر لمجرد ورودها عن السلف، حتى يعرف مناطها والحال أو الواقع الذي قيلت فيه، فإذا استخدم المفتي أو المتكلم في الأحكام الشرعية المأثور عن السلف بضوابطه التي استخدموها بها كانت الفتوى حينئذ فتوى سلفية، أما إذا جهلوا ذلك، أو حادوا عنه، واستخدموا المأثور عن السلف بغير ضوابطه وقيوده لم تكن الفتوى حينئذ فتوى سلفية حتى وإن كانت الكلمة أو الجملة المأثورة واردة عن السلف".

وقبل أن نتحدث عن الشبهة التالية، والتي أُسيءَ فهم قول المفسرين فيها، نقول تعليقاً على الشبهة السابقة: إن أشد ما هو واضح في المغالطات القائمة هو عدم إدراك الواقع، أو محاولة المغالطة في أمر هذا الواقع.

إن أكثر الذين يعادون هذا الحق يعطون المجتمع المعاصر صفة الإسلام، وهذه مغالطة، لأنهم لا يحاولون أن يتعرفوا على هذا الواقع ويقيسونه بمقاييس الإسلام الصحيحة، وما حدده الله ورسوله ﷺ لطبيعة المجتمع المسلم، ومواصفات المسلمين في ذلك المجتمع. فلا شك أن المجتمع المسلم -فوق أنه لا بد أن يكون مستظلا بشريعة الله، وموحدا لله عز وجل، ويرفض كل

سلطان وكل شرع غير شرع الله- لا بد أيضا أن يكون سلوك الأفراد والطوائف والتجمعات في هذا المجتمع مستقيما على أمر الله، وخاضعا للقيم التي أمر بها الله ورسوله.

فلا يمكن أن تتغير قيم المجتمع وأعرافه وسلوكياته، وتصبح أعرافا مجانبة لكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويصبح هذا عرفا متعارفا عليه، بل يعتبر نوعا من التقدم والرقي في الأخذ به، ثم يظل بعض الناس يرون أن هؤلاء الأفراد بقيمهم وأعرافهم وسلوكياتهم ومفاهيمهم وأقوالهم وأفعالهم هذه المناقضة لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يكونون مسلمين؟! لا شك أن الذي يرى ذلك قد استبعد -ابتداء- كل المقاييس وكل الأحكام التي قررها الله ورسوله ﷺ، وارتكن إلى ماضي هؤلاء الناس. فالذي يرتكنون إليه أن هؤلاء من ذراري قوم كانوا مسلمين، فجعلوا هذا الأمر هو الحُكْم الوحيد الذي استندوا إليه، مع بعض المظاهر التي دائما ما توجد في أي مجتمع كبقايا للمجتمع الذي كانوا يمارسون فيه الإسلام. فكل مجتمع كان له دين تظل هناك بقايا بسيطة لا تؤثر في جوهر المجتمع ولا في سلوكياته.. وإنما تربطه فقط بهذا الماضي بخيط رفيع مهترئ.

فلا شك أن عدم معرفة الواقع، ومن ثم إنزال الفتاوى القديمة والأحكام التي حكم بها السلف على بعض الوقائع، أو على بعض الأحداث في مجتمع مسلم يغاير تماما في كل شيء المجتمع الحالي الذي ينزلون الفتاوى السابقة عليه.. لا شك أن هذا من جهل هؤلاء الناس، أو مغالطاتهم، في إيقاع الحكم على الواقع المناسب له، أو بمعنى أصولي: أنه لا بد أن يتوحد مناط الحكم لكي يقاس عليه.. فلا بد لكي يصح القياس أن يكون هناك اشتراك في العلة، حتى ينقل الحكم من واقعة إلى واقعة أخرى.

وهذه مغالطة من الذين يعلمون، وجهل من الذين لا يعلمون. لكن؛ لا هذا ولا ذاك يعذرهم، لأن الباب مفتوح لكل من يريد الحق أن يتعرف عليه. ولا شك أن هذا أكثر ما يعاني منه أهل الحق في هذا العصر، أنهم يواجهون قوما يدّعون الإسلام، ويستندون في هذه الدعوى إلى ماضيهم، وإلى بعض البقايا الموجودة في حياتهم، والتي كانت قبل ذلك موجودة في جميع ذراري المسلمين من أتباع الأنبياء.. فوجود المساجد، أو وجود الآذان، أو وجود بعض أشكال النسك والشعائر.. كل هذا لا يعني أبدا أنهم أقاموا الإسلام، لأنهم حتى لو أقاموا هذه الأمور في شكلها الحقيقي فإنهم قد تركوا كل ما بقي، وشرعوا شرائع كثيرة من عند أنفسهم. وكما أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم ليسوا على شيء مع أنه قد كان في حياتهم كثير من بقايا دين موسى وعيسى عليهما السلام، وهو الإسلام فقد كانت هناك بقايا لا شك يتحاكمون إليها، ولكن الله عز وجل أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [المائدة: ٦٨].. حتى تقيموا التوراة كلها والإنجيل كله. وهذه التوراة وهذا الإنجيل سيدعوانهم إلى الإيمان بالرسالة الأخيرة، وبمحمد النبي الخاتم، فيرجعون جميعاً إلى الإسلام. فكأنما هي دعوة إلى التزام ما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله... فلم يعتبر لهم أي شيء قد فعلوه، بل ألغى كل شيء فقال ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾.

فكذلك هؤلاء الذراري الموجودون في الوقت الحاضر من ذراري المسلمين، مع كل ما في حياتهم من بقايا شكلية لا روح فيها.. بل تراهم في بعض الأحيان يتعمدون أن يوجِدوا بعض هذه الشكليات، ويروجون لها، لكي يظل بعض المخدوعين مخدوعين في هذا الواقع. فما نراه من مظاهر الحرص على الحج والعمرة، وتيسير الحج والعمرة للناس، ومحطات إذاعة القرآن

الكريم، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ووجود الأزهر ولافتة الأزهر.. كل هذه الأمور مقصود بها استبقاء الزيف واستبقاء الخداع، حتى يظل المخدوعون مخدوعين، فلا يستمعون إلى أهل الحق عندما يقولون لهم إن هذا المجتمع قد أضاع كل شيء، وأنكم لستم على شيء.. فيقولون: كيف أننا لسنا على شيء؟! عندنا وعندنا وعندنا.. فلا شك أن هذه من أكثر العقبات التي تعوق الناس عن إدراك الحق وفهمه، وهي ما يستغله أعداء الإسلام في التخويف وفي الخداع.

كما أنهم يرفعون تهمة تكفير المسلمين لكي يخوفوا الدعاة من أن يقولوا ذلك، ولكي يحرضوا المدعوين على هؤلاء الدعاة. فالجاهلية في الحقيقة تستثمر كل شيء، وكل الأساليب في سبيل الصد عن سبيل الله؛ سواء في اصطناع إسلام مزيف وأشكال إسلامية مزيفة، ليستبقوا شيئا ظاهريا من الإسلام يخدعون به الجماهير، أو بالتخويف سواء كان بإطلاق جريمة تكفير المسلمين، أو بأخذ من يدعون إلى الإسلام بتهم التطرف أو الإرهاب، أو غير ذلك من التهم. فمجموع هذه الأمور تؤدي بالناس إلى الخوف والبعد عن هذا الطريق الصعب، إلى طريق أصعب منه وهو الطريق إلى جهنم بلا شك.

فلا شك أن عدم وضوح الواقع عند الناس عموماً.. وعند كثير ممن يدّعون العلم أمر خطير، عافانا الله منه، بأن هدانا الله إلى إدراك الواقع الموجود، بحيث استطعنا أن نكتشف زيفه، ونكتشف ضلاله.

وننتقل إلى الشبهة التالية من الأقوال التي أُسيء فهم قول المفسرين فيها، وهي عن الآية ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] أنها نزلت في أهل الكتاب.. فيموهون على الناس بأن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وأن هذا الحكم خاص بأهل الكتاب فقط، وليس بغيرهم من الناس.

وللرد على هذا نقول: أنه معلوم في الأصول -وسنتكلم عن هذا بعد ذلك- أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن الناس يفهمون اختلاف بعض العلماء على تخصيص الحكم بالسبب فهماً خاطئاً.. بأن يربطوا الحكم بذات الطائفة التي نزلت فيها الآية، أو الشخص الذي نزل فيه.. وليس الأمر كذلك -كما سنبينه بعد ذلك- وسبب نزول الآية في أهل الكتاب كان لأن يهوديا زنى بيهودية، فاحتكموا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم، وأخفوا حكم الرجم الموجود في التوراة، وكانوا قد بدلو حكم التوراة إلى التحميم وإركاب الزاني على حمار بالمقلوب، من عند أنفسهم، وتعارفوا على ذلك، وكان السبب -كما قال أحد علمائهم الذين أسلموا لرسول الله ﷺ- أنه كان في أول الأمر إذا ارتكب الفقير والوضيع الزنا أقاموا عليه الحد فرجموه، وإذا ارتكبه غني أو شريف لم يقيموا عليه الحد وعزروه بأي تعزير بسيط، فلما احتج الفقراء على ذلك اتفقوا لكي يزيلوا هذا التفريق على توحيد العقوبة، بأن يعزّر الجميع بتحميم الوجه -أي تلطيخه بالسواد- وبإركابهم دابة بالمقلوب.. فألغوا حكم الشريعة وأوجدوا شرعا آخر، ثم توارثوه بعد ذلك، فأصبح هذا هو الحكم الذي يحتكمون إليه بدلاً عن حكم الله سبحانه وتعالى. لذلك نزلت عليهم، أو بسببهم هذه الآية، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

يقول المؤلف (محمد شاكر الشريف): "وكون هذا سبب النزول لا يعني قصرها على أهل الكتاب.. ويبين لنا ابن تيمية هذه القضية بوضوح، فيقول: "وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إن كان المذكور شخصا، كأسباب النزول المذكورة في التفسير؛ كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس بن شماس، وأن قوله ﴿ وَأَنِ احْكُمْ

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩] نزلت في بني قريظة وبني النضير.. ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو قوم من أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص، ولغيره ممن كان بمنزلته".

يقول: "والنصوص العامة منها ما جاء أو ورد على سبب، ومنها ما جاء عاما من غير سبب. فأما الأخير فلا اختلاف في عمومه". فالذي جاء بغير سبب هذا لا اختلاف على عمومه.

"وأما ما ورد منها على سبب فإننا في هذه الحالة أمام قولين لعلماء الأصول:

الأول: وهو أن العبرة بعموم اللفظ الوارد لا بخصوص السبب.

والثاني: وهو أن العبرة بخصوص سبب النزول لا لعموم اللفظ الوارد.

فأما عن القول الأول، وهو العبرة بعموم اللفظ فلا إشكال في تناول الآية لكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله، لأن لفظ (من) الوارد في هذه الآية من ألفاظ العموم، وعلى ذلك فالآية تتناول أهل الكتاب كما تتناول غيرهم ممن يشملهم عموم اللفظ.

وأما على القول الثاني، وهو أن العبرة بخصوص السبب فإن ابن تيمية يبين أن هذا القول لا يراد منه قصر اللفظ العام على سبب نزوله، وإنما غاية ما في هذا القول إن اللفظ العام الوارد على سبب لا يكون العموم فيه بحسب اللفظ العام الوارد في النص مع قطع النظر عن السبب".. يعني لا بد من وجود السبب حتى يكون الحكم العام واقعا عليه.. "وإنما يكون العموم فيه مقصورا على نوع السبب، فيعم بذلك اللفظ العام الوارد في النص السبب وما يشبه السبب". فإذا اشتركت أي حادثة مع الحادثة التي ورد فيها في السبب ينزل عليهم الحكم.

"وعلى هذا فإن القول بأن الآية نزلت في أهل الكتاب لا يعني قصرها عليهم وحدهم دون غيرهم، ولكن يعني أن هذه الآية نزلت في فعل أهل الكتاب، فهي إذن تشملهم وتشمل كل من كان بمنزلتهم. وعلى ذلك فكل من شابه أهل الكتاب في اختراع قانون وتقديمه على شرع الله وجعل التحاكم إليه دون التحاكم إلى شريعة الله تناولته الآيات الحاكمة بالكفر على أهل الكتاب.. وكذلك يقول الحافظ ابن حجر في تفسير هذه الآيات يقول: "ويظهر أن الآيات وإن كان سببها أهل الكتاب لكن عمومها يتناول غيرهم".. ثم ينقل الحافظ ابن حجر عمن سبقه من العلماء ما يؤيد قوله، فيقول "وقال إسماعيل القاضي في أحكام القرآن بعد أن حكى الخلاف في ذلك: ظاهر الآيات على أن من فعل مثل ما فعلوا واخترع حكما يخالف حكم الله وجعله دينا يعمل به فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور حاكما كان أو غيره" ."

يقول "والمتصفح لدساتير وقوانين كثير من الحكومات التي تسيطر على بلاد المسلمين، والتي يكون القضاء والحكم والمعاملات والفصل في الخصومات فيها تابعا لنصوصها، يجد ويرى بغير عناء إحداث تشريعات أو عقوبات مناقضة لما حكم الله به، بل يرى فيها ما هو أشد من ذلك.. يرى أن هناك أفعالا قد حرمتها الشريعة ووضعت لها العقوبات بينما لا يجد أثرا في هذه الدساتير أو القوانين لتجريم هذه الأفعال، فضلا عن وضع عقوبة لمن فعلها.

فلا تعارض بين القولين (نزلت لأهل الكتاب)، (وكفر دون كفر). فقد يظن بعض الناس أن قول من قال نزلت في أهل الكتاب يعارض قول من قال كفر دون كفر.. والحقيقة أن القولين متكاملان، وليسا متعارضين.

فإن قول كفر دون كفر إنما هو لبيان صفة الحاكم الذي لا يخرجه حكمه المخالف عن ملة الإسلام.

وقول نزلت في أهل الكتاب إنما هو لبيان صفة الحاكم الذي يخرجه حكمه المخالف عن ملة الإسلام. فالقولان على ذلك متكاملان".

متى يكون الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا كفرا لا يخرجه من الملة؟

يقول: "أنه لكيلا نحكم على حاكم مخالف لما أنزل الله بالكفر هناك شروط.." ثم يذكر المؤلف شروطاً ثلاثة إذا توافرت في الحاكم المخالف لما أنزل الله فلا يكون كافرا كفرا مخرجا من الملة.. وهذه الشروط -في الحقيقة- مُعَجِّزَة، فهي ليست موجودة على الإطلاق في الواقع.

أول هذه الشروط: "أن يكون ملتزما ومتقبلا ظاهرا وباطنا لكل حكم أو تشريع جاء عن الله سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ على أي نحو من الأنحاء، وفي أي جانب من الجوانب، فإذا لم يلتزم أو يتقبل ولو حكما واحدا، بعد علمه بأن هذا الحكم مما جاء عن الله ورسوله ﷺ صار بذلك كافرا مرتدا. والنقول عن العلماء بهذا الشرط كثيرة، نتخير منها قول ابن تيمية، يقول: "والحكم بما أنزل الله واجب على النبي ﷺ وكل من تبعه ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر"، أما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله، باطنا وظاهرا، لكن عصى أو اتبع هواه، فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة". فهذا هو الشرط الأول، وهو شرط غير موجود في أي حاكم من الحكام اليوم.

الشرط الثاني: "أن يكون مُقراً ومُعترفاً بأنه بترك الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى في القضية أو الواقعة المعينة التي يحكم فيها صار آثما، وأن حكمه خطأ، وأن حكم الله هو الصواب". وهذا أيضا شرط غير متوفر.. "والنقول عن العلماء بهذا الشرط كثيرة أيضا نختار منها ما مر بنا من كلام أبي مجلز في بيان سبب عدم حكمه بالكفر الأكبر على حكام عصره حيث يقول "فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا". ونختار منها أيضا قول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله حيث يقول "وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج عن الملة فقد تقدم أن تفسير ابن عباس -رضي الله عنه- لقول الله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] قد شمل هذا القسم، وذلك في قوله -رضي الله عنه- "كفر دون كفر"، وقوله "ليس بالكفر الذي تذهبون إليه"، وذلك أن تُحمِّله شهوته وهواه على الحكم في

القضية بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى. فإن قال الحاكم بلسان حاله أو فعاله، أو عن طريق دستوره وقانونه، أو وسائل إعلامه المتحدثة باسم حكمه ونظامه، أو غير ذلك من الطرق والأساليب التي تعرف بها الآراء والأفكار والأقوال أن حكمه أفضل مما حكم الله تعالى به أو رسوله ﷺ، أو أن حكمه مساو لحكم الله ورسوله، أو أن حكم الله ورسوله هو الأصلح والأفضل في الزمن الماضي وأن حكمه هو الأصلح والأفضل في العصر الحاضر، أو أن حكم الله ورسوله هو الأصلح والأفضل في كل زمان ومكان ولكنه غير واجب عليه ويجوز له أن يحكم هو بما يراه هو مناسبا أو فيه المصلحة أو محققا العدل.. لو قال هذا كله أو بعضه صار بذلك كافرا مرتدا". وهذا طبعا ينطبق تماما على كل الحكام المعاصرين.

"الشرط الثالث: أن يكون الحكم المخالف حكماً في وقائع الأعيان، وليس في الأمور الكلية العامة. وهذا الشرط الثالث مما غمض فهمه والتنبُّه له على كثير من المعاصرين الذين تكلموا في هذا الموضوع، لذا لم يذكروه أو يشيروا إليه في كتبهم أو أحاديثهم. فما هي وقائع الأعيان؟ وما هي الأمور الكلية العامة؟".

ويشير الكاتب هنا إلى أن السبب في أن السلف لم يذكروا هذا الشرط هو أن الواقع عندهم أن الأحكام والفتاوى كلها كانت تصدر من الحكام والعلماء في وقائع الأعيان، وليست في أحكام كلية عامة على الإطلاق.

"فوقائع الأعيان هي القضايا المعينة المحددة التي لا عموم لها ولا شيوع، ويكون الحُكْم فيها -وهو من قبيل القضاء- متعلقا بهذه الواقعة، مختصا بها وبالظروف المحيطة بها، فلا يُشَكِّل هذا الحكم حينئذ حكما عاما متبعا".

كأن يحكم قاضي على أحد الزناة أو السارقين بعدم قطع اليد أو بعدم الرجم هوى وشهوة، فيصبح هذا الحكم حكم عين وواقعة معينة، وليست قانونا يقاس عليها بالنسبة لنفس القاضي أو لغيره في واقعة أخرى، لأنه قد يرفع له نفس الفعل لشخص آخر، لكن لا يريد أن يحابيه ولا يريد أن يرفع عنه الرجم، فيرجمه، ويقول: أن هذا حكم الله. لكنه في هذه الحادثة ذاتها كان عنده هوى أو شهوة أو محاباة له. فهي وقائع أعيان.

فالشرط الثالث الذي يقوله الرجل؛ أن يكون الحكم المخالف حكما في وقائع الأعيان، وليس في الأمور الكلية.

"أما الأمور الكلية العامة فهي الأمور التي لا تختص بزمان أو مكان أو شخص، بل يشمل الحكم فيها جميع الأفراد والوقائع والتصرفات الذين يشملهم عموم هذه الأمور الكلية العامة، والحكم في هذه الكليات العامة هو من قبيل التشريع" لأن مثل هذا يكون تشريعا، كأن يقول: أن كل من زنى محصنا يسجن مثلا، أو يقتل..

يقول: "فليس الحكم فيها مختصاً بواقعة معينة بما يكتنفها من ظروف أو ملابسات، وحينئذ فهذا الحكم يشكل حكماً عاماً وشرعاً متبعاً... فإذا حَكَم فيها الإنسان على خلاف ما جاء في الشرع القويم كان منازعاً لله، ومدعياً حالاً أو مقالاً اسماً من أسماء الله العلي الكبير".

فهذا هو الفرق بين وقائع الأعيان وبين الأمور الكلية العامة..

وهذه الثلاثة شروط التي اشترطها هي؛ أن يكون الحاكم:

أولا: ملتزماً ومتقبلاً لكل شرع الله ورسوله في كل الجوانب وكل الجزئيات.

ثانيا: أن يكون مقراً ومعترفاً بأن حكمه في هذه الواقعة خطأ، وأنه يستحق العقاب.

ثالثا: أن يكون الحكم في وقائع الأعيان، وليس حكماً كلياً.

وهذه الشروط لا أثر لواحد منها في جميع حكام عصرنا اليوم.

ويضرب مثالا لذلك فيقول: "وأضرب لكم مثلا يوضح الفرق بين الحُكم في وقائع الأعيان، والحُكم الكلي العام. فلنفترض أن حاكما أو قاضيا عرض عليه سارق، فحكم بأن السرقة حرام، وحكم بأن عقاب السارق هو قطع اليد، وحكم على هذا السارق المعين نظرا لقرابة أو صداقة أو منفعة يرجوها، أو مضرة يدفعها، أو ما شابه ذلك بغير القطع، وليكن الجلد أو الحبس مثلا، والتمس له المعاذير والحجج الواهية لكي يفلت من عقوبة القطع.. فهنا ثلاثة أحكام:

الحكم الأول: أن السرقة حرام؛ وهذا حكم عام يشمل كل سرقة.

الحكم الثاني: أن عقاب السارق القطع، وهو حكم عام يشمل كل من ينطبق عليه لفظ السارق.

الحكم الثالث: هو حكمه على هذا السارق المعين نظراً للظروف والملابسات التي أحاطت بالسارق بالجلد أو الحبس، حكما خاصا بهذه الواقعة، ولا يشكل حكما عاما، بحيث يحكم به في كل واقعة تعرض له، فإنما الحكم العام عنده في هذه المسألة هو القطع، وإنما خالفه في هذه الواقعة المعينة لملابسات معينة. فمتى كان هذا عند القاضي أو الحاكم الحكم بحرمة السرقة، والحكم في عقابها أو حدها هو القطع، ثم خليت الواقعة المعروضة من الملابسات، كان يحكم بالقطع. لكن لملابسات معينة حكم بغير حكم الله في هذا الأمر، فلا شك أن هذا يكون ليس كافرا.

أما إذا حكم القاضي أو الحاكم بأن السرقة ليست حراما، وأنه لا عقوبة على السرقة، فيكون هنا حكمان:

الأول: حكم بأن السرقة ليست حراما.. هذا حكم عام.

الثاني: الحكم بأن لا عقوبة على السرقة.. هذا حكم عام. والحكم العام متى كان مخالفا لحكم رب العالمين كان استبدالا لحكم البشر بحكم رب العالمين، وابتغاء لحكم الجاهلية، أو حكم الطاغوت، ولا ينفعه حينئذ أن يقول: أنا أعترف أن حكمي خطأ، أو أن حكم الله هو الصواب وأني آسف بذلك.. لا ينفعه مثل هذا الإقرار أو الاعتراف، لأنه شَرَّع شرعاً مناقضاً ومخالفاً لحكم رب الأرض والسماء، فيكون بذلك أيضا كافرا، مهما قال ومهما ادعى".

يقول "فلا بد إذن -في الحكم الإسلامي- أن تكون الشريعة العامة المعلنة التي لها صفة العموم والشمول هي ما جاء عن الله ورسوله ﷺ، وبعد ذلك قد تقع المخالفة في وقائع الأعيان على الشرط المقدم.

أما إذا كان الحكم العام والشريعة العامة والأصل الذي يرجع إليه مخالفا لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ، في كثير أو قليل، كان ذلك ابتغاء لحكم الجاهلية، واستبدالاً لحكم البشر بحكم الله العلي الكبير رب العالمين، وكان ذلك أيضا الخروج والمروق من الدين.

والحقيقة التي لا يمتري فيها عاقل يعي ما حوله من أمور؛ أن المخالفة التي يقع فيها حكام المسلمين هي من هذا النوع الأخير، حيث عمدوا إلى أحكام وتشريعات مناقضة ومخالفة لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ، وجعلوها التشريع العام والأصل الذي يُرجع إليه ويُتحاكم إليه.

ولا ينقصنا الدليل ولا البينة على هذه الدعوى، فهذه مدونات دساتيرهم وقوانينهم التي كتبوها بأيديهم والتي يرجعون إليها ويتحاكمون إليها، وهي طافحة بما يناقض أحكام الله ورسوله في كل المجالات السياسية والاقتصادية والقانونية والأخلاقية والمعاملات وما شابه ذلك".

يقول: "وفي ختام هذا الكلام نذكر أن هذه الشروط الثلاثة التي ذكرناها وبيَّناها إذا تحققت كلها مجتمعة في حُكْم حاكم حَكَم بغير ما أنزل الله فإنه لا يُحكم عليه بالردة والخروج عن الملة، وإن كان عمله هذا من كبائر الذنوب.

أما إذا اختل شرط واحد من هذه الشروط، كأن يحكم الحاكم أو القاضي في واقعة عين بحكم يخالف به حكم الله ورسوله، ولكن لا يقر بخطئه ولا يعترف بإثمه، أو يحكم في القضايا العامة ويشرع تشريعا مخالفا لما شرع الله ورسوله، حتى وإن اعترف بخطئه وإثمه، فإنه في كل هذه الحالات يصير الحاكم كافرا مرتدا عن دين الإسلام".

ويقول المؤلف: "قد يظن بعض الناس أن حكم الكفر على الحاكم لا يكون إلا بأن يترك الحاكم الحكم بكل ما جاء في الشريعة، فإذا حكم ببعض ما أنزل الله دل ذلك على إيمانه.. وهذا الفهم فهم مغلوط.. وقد رد القرآن على أصحابه بأوضح عبارة عندما قال سبحانه ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥] وعندما قال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فليس شرطا أن يقع الترك أو التبديل أو التغيير في جميع الأحكام الشرعية حتى يستحق الفاعلون لذلك اسم الكفر، بل متى تم ترك أو تبديل أو تغيير حكم واحد من الأحكام التي شرعها الله أو رسوله والاستعاضة عنه بما أحدثوه من الأحكام كان الكفر والعياذ بالله".

موقف عامة الناس

والآن: ما هو وضع الناس بالنسبة لمن يحكمون بغير ما أنزل الله ويكفرون بهذا الحكم؟

"عندما يكفر الحكام أو القادة، ويرتدون عن الدين، ويشرِّعون أحكاما ويقيمون أوضاعا يناقضون بها شرع الله المحكم، فإنهم يريدون ويطلبون من شعوبهم وأتباعهم أن يتابعوهم ويقبلوا منهم ما جاءوا به، وهنا يفترق الناس إلى طوائف:

الطائفة الأولى: منهم من يرفض كل ما يخالف شرع الله، ويأبى أن يتابع المغيرين المبدلين، ويصبر منهم على الأذى الذي يناله في أهله وماله ونفسه.

الطائفة الثانية: منهم من لا يكتفي بمجرد الرفض حتى يجمع إلى القول العمل، فيدعو ويجاهد ويبذل النفس في سبيل نصرة الحق وأهله، والتمكين لشرع الله في الأرض.

الثالث منهم: وهم شر الناس، من يقبل ما جاء به المبدلون المغيرون، فيقبلون منهم ويتابعونهم ويناصرونهم، فما أحله المبدلون استحلوه وما حرمه المبدلون حرموه، وهؤلاء هم المشركون بالله في الطاعة أو الانقياد أو التشريع، وإن صاموا وصلوا وزعموا أنهم مسلمون. وهو من الشرك الأكبر. وقد جاءت النصوص الشرعية ببيان أن قبول التشريع المناقض لشرع الله هو شرك بالله العظيم، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] وجاء تفسير ذلك في حديث عدي بن حاتم، وفيه أنهم اتبعوهم في التشريع المخالف لشرع الله، فَحَكَم الله عليهم بالشرك.

الطائفة الرابعة: وهذه هي النقطة التي نرى فيها بعض الغبش.. يقول: "ومنهم من لازال اعتقاده صحيحاً في تشريع الله ورسوله، فالحلال عنده ما أحله الشرع، والحرام عنده ما حرمه الشرع، ولكنه أطاع المبدلين المغيرين في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي. فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، لكن يخشى عليهم أن يقودهم ذلك مع طول الأمد إلى الانتقال من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر والعياذ بالله".

فهنا هو يتناقض مع قوله في النقطة الثالثة أنهم أطاعوا، فالطاعة في كلامه هنا غير العمل! فمعنى ذلك -في الحقيقة- أنهم رضوا بهذا المنهج منهجا.

أما كون أنهم في بعض الأحيان يمارسون بعض المعاصي فهذا أمر آخر، لأنه هنا لا بد من تحقق شرطين:

الأول: الإنكار بالقلب؛ ومعنى الإنكار بالقلب عدم المتابعة، فالذي ينكر بقلبه يظل في خاصة نفسه لا يتابعهم، وخاصة فيما ليس عليه إكراه فيه.

والشرط الثاني؛ الولاء، فلا بد أن يكون ولاؤه ممحضا للصف المسلم.

يقول: "ومن هنا يتبين لنا أن الحديث عن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول صنفين من الناس:

١- صنف الحاكمين أو المشرعين بغير ما أنزل الله.

٢- صنف القابلين أو المتابعين للحكم المناقض أو التشريع المبدل، وهذا يعني أنه يجب على الرعية رد ما شرعه المشرعون مناقضا لأحكام الشرع، وإنكاره وعدم قبوله أو الاستكانة والرضوخ له، كل حسب طاقته أو استطاعته، وذلك لأن قبول الأحكام المناقضة لحكم الله ورسوله والرضا بها ومتابعتها وعدم إنكارها مُخرجٌ من ملة الإسلام نعوذ بالله من ذلك".

وهذا يناقض قوله السابق عن الطائفة الرابعة.. لكن هذا هو القول الصحيح، لأن المتابعة دون إنكار ودون ولاء للصف المسلم يكون اتّباعا، ويأخذ نفس الحكم.

عوامل ترويج المبطلين لقضية الحكم بغير ما أنزل الله

نصل إلى نهاية الموضوعات التي بحثها الكاتب، وهو أن الحكام المبدلين المغيرين وأعوانهم لهم وسائل متعددة في ترويج الحكم بغير ما أنزل الله، ويرى هو أن ذلك بسبب جهل الناس وعدم استقامتهم على أمر الله، والتلبيس الذي يقع فيه العلماء غير المخلصين الذين يساعدون الحكام الكافرين بما يريدونه من فتاوى لتمكينهم من ذلك.

يقول هنا: "أننا نستطيع أن نعطي ضابطا صحيحا يصلح للرد على جميع الشبه أو الوسائل التي قيلت أو التي يمكن أن يزينها الشيطان مستقبلا في نفوس متبعيه. هذا الضابط يتمثل في أنه قد ثبت بالأدلة القطعية سنداً ومعنىً وجوب الحكم بما أنزل الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ في كل مكان وكل زمان، وعلى كل أحد، في الصغير والكبير من الأمور، وأن الأدلة الشرعية الصحيحة يصدّق بعضها، ويعضد بعضها البعض، ولا يمكن أن تتناقض، ومن هنا فإنه من المحال أن تكون هناك قاعدة شرعية صحيحة أو دليل شرعي صحيح يؤدي إلى أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، ويبيح الحكم بغير ما أنزل الله، ويكفي هذا الضابط للدفع في صدر كل شبهة يريدها مورد ضال مرتاب أو منافق عليل اللسان".

ويقول: "وقد ساعد على رواج هذا عند المسلمين (أو المتمسلمين) عدة عوامل أو أسباب:

أولاً: الجهل الذي يُخيِّم على كثير من الناس حتى لا يعرفون من دينهم إلا النزر اليسير، وهذا النزر ليس صافيا بل مخلوطاً بكثير من الخرافات والأساطير والأقوال الباطلة والأحاديث الموضوعة.

ثانياً: الركون إلى الدنيا والاغترار بها، والعمل على جمعها، واستنفاد الوقت كله في ذلك.

ثالثاً: رواسب من فكر الإرجاء الذي يفصل العمل عن الإيمان.

رابعاً: وجود طائفة من علماء السوء التي وظفت علمها لخدمة المبدلين المغيرين لقاء دراهم معدودة أو مناصب زائلة.

خامساً: تقاعس بعض العلماء أو الدعاة عن القيام بواجبهم الشرعي في هذا الشأن.

سادساً: اهتمام بعض العلماء والدعاة بالحديث أو الكلام عن الأمور التي لا يترتب عليها تحمل تبعات أو أعباء أو جهاد.

سابعاً: الغزو الفكري وظهور المذاهب العلمانية والديمقراطية والقومية والاشتراكية وغيرها.

ثامناً: سيطرة كثير من المرتدين أو المنافقين على مقاليد الحكم في بلاد المسلمين.

تاسعاً: محاربة أصحاب الحكم أو السلطان لمن يتكلم في هذه الأمور، وإلصاق التهم بهم، ونعتهم بالأوصاف الذميمة تنفيرا للناس عنهم، وسجنهم وتعذيبهم، وتعليقهم على أعواد المشانق".

ما الذي يجب أن نفعله إزاء قضية الحكم بما أنزل الله؟

وأخيرا يتساءل: ما الذي يجب بعد كل هذا الكلام أن نفعله؟

يقول: "أولا: من أهم ما يجب علينا فعله ونحن بصدد هذا الموضوع أن نزيل الجهل الذي غشى عقولنا وقلوبنا، وذلك عن طريق تحصيل العلم قراءةً وسماعاً وسؤالاً لأهل الذكر، وإذا كان من الواجب على الدعاة أهل العلم أن يبادروا إلى تبصير الناس وتعليمهم وتفقيههم، فإنه لا ينبغي لنا أن نجلس أو نقعد حتى يأتوا إلينا ويعلمونا، فهذا واجبهم، وهم عنه مسؤولون.. أما واجبنا نحن فهو الجد في طلب العلم الصحيح، وتعلمه، وأن نعطيه من أوقاتنا، وأن ننفق عليه من أموالنا.

وفي إطار تعلم العلم وتعليمه فإنه ينبغي علينا أن نطلب العلم من العلماء العاملين الجادين، الذين يظهر منهم صلاح الحال مع بذل الجهد لإعلاء كلمة الله، وتحمل التبعات والمشاق في سبيل ذلك، لا أن نذهب إلى القاعدين المتخلفين عن نصرة الحق والصدع به، أو السائرين في ركب المبدِّلين المغيِّرين، أو الذين لا يفقهون هذه القضايا وليس لهم بها كبير علم أو اهتمام أو عناية ونحاول أن نتعلم منهم في هذه الأمور، أو أن نسألهم فقهها، ونستفسر منهم.. وكيف يتأتى العلم الصحيح بهذا الطريق وعلى أكتاف أمثال هؤلاء وفتاواهم يستند حكم الطاغوت؟!

ومن هنا ينبغي أن تكون لنا وقفات نميز بها بين العلماء العاملين الباذلين في سبيل إعلاء كلمة الله من العلماء الخاذلين المخذِّلين، أو الضالّين المضلين، أو الذين حصروا أنفسهم في باب أو عدة أبواب من الفقه لا يتعدونه إلى غيره.

ثانياً: مما يجب علينا أيضا في هذا الصدد تحديد جهة الولاء تحديداً دقيقاً صحيحاً، بحيث يكون ولاؤنا لله ولرسوله وللمؤمنين، الراضين بشريعته العاملين بها ولها، وبراؤنا ممن يحاربون الله ورسوله والمؤمنين، ومن الذين أعرضوا عن شريعة الله وعن التحاكم إليها، أو الحكم بها. فلا يكون الولاء والبراء بأي حال من الأحوال قائما على أي أساس من الأسس الجاهلية؛ كالقومية أو الوطنية أو العنصرية أو الحالة الاجتماعية أو الجنس أو اللغة أو اللون أو ما شابه ذلك مما يبنى عليه الولاء والبراء عند الجاهليين.

ومن هذا التحديد الصحيح لا بد لنا من الوقوف والانحياز إلى جانب الدعوة الحقيقية، المتمسكة بميراث النبوة، والممثلة في أتباع منهج أهل السنة والجماعة، الداعية إلى تحكيم شرع الله، والعاملة في سبيل تحقيق ذلك.. لا بد من الوقوف إلى جانب أصحاب الدعوة، وتأييدهم ومناصرتهم، وإعانتهم والدعاء لهم، والنصح لهم، وخلافة من يؤذى منهم بسبب قيامه بالحق ودفاعه عنه في أهله بخير، فإنهم مجاهدون في سبيل الله، وخلافة المجاهد في أهله بخير من أفضل القربات.

ثالثاً: العمل على أن تكون شريعة الله هي الحاكمة، واستخدام كل السبل المشروعة في ذلك؛ مثل تبصير الناس وتوعيتهم بهذه القضية وما يترتب عليها، ومطالبة الحكام طلبا حثيثا بالرجوع إلى شرع الله وتحكيمه، وسحب التأييد عمَّن لا يستجيب منهم لذلك، وتعرية نظامه، وبيان سقوط شرعيته، ومن ثم بطلانه، وبيان كل ما يترتب على ذلك من أحكام ومن تصرفات.

رابعاً: ومما يجب على المسلمين في هذا الصدد أن يتركوا ويجتنبوا التحاكم إلى هذه الأنظمة الوضعية المحادّة لله ورسوله، المناقضة لشرع الله، وأن يلجؤوا في كل أمر من الأمور يحتاجون فيها إلى التحكيم إلى من يُرتضى علمه ودينه، يطلبون منه أن يحكم بينهم في القضية المعروضة بشرع الله تبارك وتعالى، فإذا قضى بينهم وحكم فعليهم الاستجابة والتنفيذ.

خامساً: إشاعة روح الجهاد في نفوس المسلمين، وترغيبهم في البذل والفداء، وإشاعة الاعتزاز بهذا الدين، وبيان أنه لا عز لنا ولا سعادة ولا مجد ولا سؤدد إلا بتحكيم شريعة الله، وتقديم كلام الله وكلام رسوله ﷺ على كل كلام، وبيان أن كل ما مرت به الأمة أو تمر به الآن من ضعف وذلة ومهانة وهوان على أعداء الله ورسوله حتى أذلها عباد البقر وعباد الصليب واليهود وأضرابهم إنما وجد ذلك بسبب الإعراض عن شريعة الله، وترك الحكم بما أنزل الله، والاستعاضة عن الوحي الكريم المنزَّل على سيد الأولين والآخرين بما زينه الشيطان وأعوانه من أحكام الكافرين ونظم الجاهلين.

سادساً: ومما ينبغي على العلماء والدعاة ترك الاستجابة لرغبات الناس في الحديث عن بعض الأمور الفرعية أو النظرية بأكثر مما تحتاج إليه هذه الأمور، والانتقال بالناس في هذه المرحلة إلى التركيز على القضايا المهمة الواقعية التي يحتاج الناس إليها فعلا، وإن كانوا لا يدركون ذلك، والتي يترتب على جهلها أو الغلط فيها انطماس معالم الإسلام في نفوس الناس، مع عدم الإخلال بمبدأ تكامل الدعوة وعدم تجزئتها، أو إهمال جزء من الإسلام لصالح جزء آخر.

سابعاً: ومن الأمور التي ينبغي علينا أن نجِدَّ فيها هو بيان سقوط شرعية الأنظمة الكافرة المرتدة التي رغبت عن شريعة الله وتحكيم كتابه وسنة رسوله إلى ما تواضعت عليه من نظم مناقضة لشرع الله، وبث ذلك بين الناس وتعليمهم إياه، وإقامة الأدلة على صوابه.

ثامناً: ومما ينبغي الاهتمام به أيضا والتركيز عليه، أن يهتم كل منا بقلبه، وأن يجتهد في زيادة إيمانه بإذن ربه، وألا يشغلنا الاهتمام بأمر الناس عن الاهتمام بأمر أنفسنا، بل لا بد لكل منا أن يسعى سعياً حثيثاً في سبيل إصلاح نفسه، وتكميل ما ينقصها من التقوى أو العبادات والأخلاق، ليكون المرء منا منضبطا قولاً وعملاً، وليكون قادراً على مواصلة السير في طريق الحق بغير شك أو تردد.

إن تقوى الله تبارك وتعالى في هذا الزمن الذي تكالب فيه علينا أعداؤنا من الداخل والخارج من كل حدب وصوب، وصدق التوجه إليه، والافتقار إليه، والذلة والخشوع بين يديه، والعمل على نصرة دينه، وبذل المُهَجَ والأموال في سبيل ذلك، من أهم العوامل التي تعيننا بإذن الله تبارك وتعالى على تحقيق ما نصبو إليه من الخير والهداية، ويحقق لنا نصر الله عز وجل".

بهذا ينتهي استعراض هذا الكتاب المختصر السهل القيم، لتوضيح الشبهات والمقالات المضادة لهذه الحقيقة؛ حقيقة لا إله إلا الله، التي هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع المسلم، ونحن بصدد الحديث عن نشأة المجتمع المسلم وخصائصه.

وبذلك نكون قد تحدثنا عن مفهوم الجاهلية وصفاتها. وعن قضية لا إله إلا الله، ومعنى إفراد الله بالألوهية والحاكمية والسلطان، ثم تحدثنا عن بعض الشبهات التي يلقيها بعض أعداء الحق في طريقنا. وأيضا استندنا واستأنسنا في هذا كله بأقوال كثير من العلماء من السلف السابقين ومن الخلف ومن المعاصرين، لتصبح هذه القضية في حِسِّنا قضية أبده من البدهيات، وأوضح من الوضوح، حتى نستقيم على أمر الله، وحتى نذهب في إقامة هذا المجتمع إلى منتهى الخطوات والأمور، مهما كلفنا ذلك من بذل المهج والنفوس والأموال في سبيل ذلك.

ونستكمل -إن شاء الله- الحديث عن نشأة المجتمع المسلم، على ضوء هذه المقررات التي ينبغي أن تكون قد أصبحت بدهية واضحة. وكما قلنا إننا لا نحتاج من أجل هذه القضية إلى استجماع أدلة كثيرة، فنصف ما قلناه، وربع ما قلناه يكفي للدلالة على صحة هذه القضية وصدقها، وعلى مواجهة الجاهلية ومن يعارضنا من علماء أو غير علماء، فلا يجوز لنا أن ننهزم أو نتردد أو نهتز إذا ظلوا يطالبوننا بالأدلة تلو الأدلة، فإننا نقف عند الدليل الذي نعتقد أنه يكفي، فنقول لهم: آمنوا أو لا تؤمنوا، فهذا لا يعنينا، فلا بد من وضوح منهج الاستدلال، وطبيعة المنهج القرآني في عرض القضية، وطريقة الأنبياء في عرض القضية، ثم طريقة المحاجّة بيننا وبين الذين يعادوننا في هذا الحق في أي وقت وفي أي مجال إن شاء الله تعالى.

قضايا هامة متعلقة بنشأة المجتمع المسلم

مازلنا نتحدث عن نشأة المجتمع المسلم، ومازال هذا العنوان أو هذا الموضوع يحتاج منا إلى وضع قواعد كثيرة قبل أن نسير مع بقية الفصل، ذلك لأن نشأة المجتمع المسلم لا بد -كما قلنا- أن يقوم على تصور واضح، ومنهج واضح، وأن نتبين قواعده التي يقوم عليها.

وقد تحدثنا فيما سبق عن أهمية هذه النشأة وضرورتها، ثم تحدثنا عن الجاهلية، باعتبارها المؤسسة أو البناء الذي لا بد أن يواجهه القائمون بالحركة الإسلامية، وقلنا إن هذا التجمع الجاهلي لا يقوم على أساس نظري فقط، ولا يقوم على مجرد فلسفة ولا مجرد أماني وشعارات، وإنما هو مؤسسة متكاملة، لها نظامها، ولها قوتها، ولها فلسفتها، ولها أيضا قيمها. ومن أجل هذا كان لا بد للإسلام أن يواجه الجاهلية بقوة مكافئة، بل بقوة تتغلب عليها، فتكون أقوى منها في كل شيء؛ سواء في قواعدها النظرية والتصورية، أو في منهجها العملي بكل ألوانه، أو بقيمها وموازينها، أو بحركتها وتنظيمها.

وتحدثنا عن الجاهلية، وتعريفات الجاهلية، وتصوراتنا عن الجاهلية.. وإن كنا بطبيعة الحال لم نستقص، ولم نفصل التفصيل الكبير، ذلك لأن هذا الأمر سيصاحبنا على مدار الفصول جميعها، بحيث يتبين من خلال المحصلة النهائية حقيقة الجاهلية بكل ألوانها وبكل عناصرها.

كما تحدثنا أيضا عن شهادة أن لا إله إلا الله، باعتبارها القاعدة التي يقوم عليها المجتمع المسلم، والتي ينبغي أن يقوم عليها المجتمع الإنساني كله أصلا، حيث أن الله عز وجل خلق البشر لعبادته، ولتحقيق ألوهيته في الأرض، ولتقرير هذه الألوهية، في مواجهة الجاهلية التي تعتدي على حق الله عز وجل.

وقلنا إن شهادة لا إله إلا الله لا توجد فعلا ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليها اعتبار قائلها مسلما أو غير مسلم.

والآن أمامنا عدة موضوعات في غاية الأهمية أيضا، ولها ارتباط قوي وضروري بنشأة المجتمع المسلم وخصائصه..

المسلم النظري والانخراط في الجاهلية

يتكلم هنا الأستاذ سيد رحمه الله، بعد أن عرض هذه الحقيقة سريعا، فيقول:

"ولكن الإسلام -كما قلنا- لم يكن يملك أن يتمثل في "نظرية" مجردة، يعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ويزاولها عبادة، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلا. فإن وجودهم على هذا النحو -مهما كثر عددهم- لا يمكن أن يؤدي إلى "وجود فِعْلي" للإسلام.."

ويستعمل الأستاذ سيد هنا هذا التعبير الجديد، وهو تعبير "المسلم النظري"، وهو لا شك تعبير جديد له دلالاته وله إيحاءاته.. فيقول **"لأن الأفراد "المسلمين نظرياً"، الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية.. سيتحركون -طوعاً أو كرهاً، بوعي أو بغير وعي- لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده، وسيدافعون عن كيانه، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه، لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا.. أي أن الأفراد "المسلمين نظرياً" سيظلون يقومون "فعلاً" بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون "نظرياً" لإزالته، وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لإقامة المجتمع الإسلامي!"**

لا شك أن هذه قضية من أهم القضايا التي تقتضيها شهادة ألا إله إلا الله بصورتها الصحيحة، فالإسلام لم يكن يوما ما مجرد اعتقاد وجداني، أو اقتناع عقلي، أو حتى مجرد مشاعر مهومة. ولا يمكن أن يوجد الإسلام بهذه الطريقة، حيث يظل قابعا في القلوب، أو في العقول، أو مجرد مشاعر وعواطف تستثار أحيانا وتخمد أحيانا أخرى.

ولكن الإسلام لا بد أن يكون حركة ظاهرة تغذي المجتمع الإنساني بكل ما يحتاجه هذا الكائن العضوي من وظائف الحياة جميعا.

ولذلك حينما يقف المسلم الذي يعتقد هذا الاعتقاد الصحيح، وتتعامل أو تتفاعل في نفسه مشاعر الحب أو الولاء لهذا الدين.. لا يمكن ولا يستطيع -إن كان صادقاً- أن يبقى عضوا، أو يبقى خلية عاملة في اتجاه مضاد لما يريد ولما يعتقد ولما يحب.

فحينما يؤمن الإنسان بحقيقة لا إله إلا الله.. حينما يعرف الإنسان مقام الألوهية.. حينما يدرك الإنسان المسافة بينه وبين مقام الألوهية.. حينما يعرف دوره المحدد في الأرض.. حينما يعرف قيمته التي هو فيها في الحقيقة..

وحينما يعرف أيضا الهدف والغاية التي خُلق من أجلها..

ثم حينما تتفاعل في نفسه مشاعر الإجلال والتوقير والحب والشوق والتوكل، وكل ما ينبثق عنها من اليقين النفسي والقلبي والعقلي الذي يكمن في حقيقة لا إله إلا الله.. لا يمكن أن يعيش هذا الإنسان بعد ذلك -إن كان صادقا- بلا سلوك من شأنه أن يقوض ذلك المجتمع الذي يقوم ليحطم هذه الحقيقة، وليصد الناس عن هذا الدين، وليحرم البشرية من كل مباهج الحياة حينما تبعد عن دين الله عز وجل. فلا شك أن هذا الإنسان يكون مسلما نظريا كما يعبر عنه الأستاذ سيد.. وليس في الإسلام مثل هذا الوضع أبدا، ولا يقبل الإسلام مثل هذا أبدا، لأن الإسلام لا بد أن يغير، ولا بد أن يخلق الإنسان خلقا جديدا.. ولا بد أن ينقله من تلك الوهدة والمستنقع الذي يعيش فيه حينما يعيش في الجاهلية إلى تلك الروضة الندية وذلك المجتمع الرفيع الذي يقوم على شهادة ألا إله إلا الله.

والإسلام لا يمكن أن يقبل من هذا الإنسان إلا أن يتحول ولاؤه وتتحول حياته وتتحول حركته لكي يقيم هذا المجتمع، فينشئ المجتمع الذي يقوم على لا إله إلا الله. فالذي لا يفعل ذلك لا يكون مسلما حقيقيا، وإنما يكون مسلما نظريا.. أي أنه مشروع إسلامي، وليس إسلاما حقيقيا. قد يصبح بعد ذلك مسلما حقيقيا حينما يتحرك وحينما يتغير وحينما يُغيِّر.. أما قبل ذلك فلا، لأنه مازال عضوا عاملا في بناء المجتمع الجاهلي، يغذيه بوجوده وبكفاياته ونشاطاته وقواه وماله واقتصاده وكل حياته.

لكن حينما يبدأ المسلم في التغير.. حينما يبدأ ولاؤه يتغير.. حينما تبدأ حركته في اتجاه مضاد لمسيرة المجتمع الجاهلي.. حينما يمسك بالمعاول لكي يحطم أسس هذا المجتمع الجاهلي، لينقضه ويحطمه من خلال الحركة الوئيدة القائمة على المنهج الإسلامي الصحيح.. حينذاك نقول إنه انتقل من ذلك الإسلام النظري إلى أن يكون مسلماً حقيقيا يحقق عبوديته لله فعلاً، ويحقق ولاءه لله فعلاً.

هذه القضية لا يفهمها كثير من الناس. والناس يتصورون -كما صُوِّر لهم- أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، ويفهمون من هذه المقولة أنها مجرد نطق كلمات وحروف، وبالتالي فهم قد انتقلوا بهذه الألفاظ من الجاهلية إلى الإسلام، أو من الكفر إلى الإيمان. وهذه ليست حقيقة، لأن القول ليس من شأنه وحده أن يغير الإنسان، وإنما القول -كما قلنا قبل ذلك في مفهوم اللغة- أنه إقرار، وأن هذا الإقرار يقتضي مقتضيات، وأن هذه المقتضيات لا بد أن تنفذ في الواقع.

ولم يفهم الجيل الأول أبدا، ولم يفهم علماء السلف أبدا من هذا الحديث أنه مجرد قول، وإنما فهموا أنه اعتناق ويقين بلا إله إلا الله، يقتضي منهم أن يتحركوا، وأن يتغيروا، وأن يغيروا أيضا.

فالإسلام لا يعترف بهؤلاء المسلمين النظريين، ويعتبرهم كائنات غير قادرة على أن تكمل النشأة الإيمانية والإسلامية. فهم يقفون عند نقطة الاقتناع العقلي أو التفاعل الشعوري دون أن يتقدموا خطوة إلى الأمام، بينما المجتمع الجاهلي يكتسحهم معه حيث يسير، ويأخذهم معه في نفس الاتجاه الذي يسير فيه. وهم في الحقيقة لم يؤدوا للإسلام شيئا.. بل بالعكس هم صدوا عن سبيل الله حينما يقولون ما لا يفعلون، وحينما يعتنقون ما لا يعملون.

هذه القضية المهمة ترتبط، أو يتفرع منها، أو يتصل بها، بعض القضايا المهمة. وهي قضايا تحتاج إلى حديث طويل، وكتابات أيضا مُمحِّصَة.

حكم المجتمعات القائمة اليوم والعقبات أمام الدعاة

وكما قلت: يبقى من القضايا المتعلقة بشهادة ألا إله إلا الله باعتبارها هي قاعدة الوجود الإسلامي والمجتمع الإنساني؛ يبقى قضيتان مهمتان هما:

الحكم على هذه المجتمعات بألوانها المختلفة: هناك مجتمعات ترفع راية الكفر، والناس تحتها أيضا يعلنون كفرهم، ويحدث تقابل بين الراية وبين وجود الناس تحتها، فهم مؤمنون بالراية، ويعترفون بها.

فلا خلاف على هذا المجتمع؛ فالمجتمع الذي تتفق رايته مع واقع الناس يأخذ صفة الراية التي يرفعها المجتمع. فإن كانت الراية المرفوعة، أو كانت التصور المرفوع، أو الفلسفة المرفوعة، أو الشعارات المرفوعة هي الجاهلية، أو هي الكفر بآيات الله، أو الصد عن سبيل الله، أو اعتناق دين غير دين الإسلام، والناس تحت هذه الراية أيضا يؤمنون بذلك، ولا يدَّعون غير ذلك الادعاء، فالمجتمع صورته تكون واضحة جلية، بحيث لا يختلف عليها اثنان.. إن هذه الراية راية الكفر، سواء كانت في الماضي أو الحاضر، شيوعية، رأسمالية، وثنية، إلحادية، فارسية، رومانية.. أو أي شيء آخر.. والناس تحتها أيضا يؤمنون بهذه الشعارات، ويعملون على ضوئها، ويتحمسون لها، ويجاهدون في سبيلها ويقتلون.. فهذه المجتمعات واضح أنها مجتمعات كافرة، ليس هناك إمكان أن يختلف اثنان على هذه الصورة الواضحة.

وأيضا، حينما تكون الراية المرفوعة هي راية الإسلام، وحينما تكون الشريعة هي التي تهيمن على المجتمع، والناس الذين تحتها أيضا يؤمنون بهذه الشريعة، ويعملون من أجلها، ويقاتلون في سبيلها.. فهذا أيضا مجتمع لا يختلف عليه الناس أنه مجتمع قد أسلم أمره لله، وأنه قام فعلا على حقيقة لا إله إلا الله؛ اعتقاداً وعملاً وولاءً وإيماناً.

لكن يأتي الإشكال حينما تكون الراية مختلفة عن واقع الناس.. تكون الراية مثلا راية كافرة.. راية علمانية.. راية شيوعية.. راية رأسمالية.. والذين تحتها يزعمون أنهم مسلمون، وأنهم يريدون الإسلام، وأنهم من ذراري المسلمين. هذه الصورة هي صورة لم يحدث مثلها في التاريخ بهذا الشكل أبدا؛ أن يكون هناك راية مرفوعة، وحكم ونظام يعلن علمانيته، ويرفض الإسلام شريعة وواقعا وسلوكا وأخلاقا وقيما.. ثم الناس الذين تحته يزعمون أنهم مسلمون. هذه الصورة لم تحدث في تاريخ البشرية قبل ذلك.. وما يقال إنه حدث أيام التتار لم يكن بهذا الشكل أبداً.. الذي حدث كان صورة شديدة الوضوح.. أن هناك حكاما غلبوا أهل البلد المسلمين على السلطة، لكن ظل أهل البلد يكرهونهم ويقاومونهم، ولا يوالونهم، ويصرون على إسلامهم في السر والعلن.. وهذا الذي أجبر التتار بعد قليل أن يعتنقوا الإسلام وأن يحكموا بالإسلام. فالصورة التي يقال كثيرا أنها حدثت أيام التتار ليست هي هذه الصورة أبدا.. نعم حاول التتار أن يحكموا المسلمين "بالياسق"، وحاولوا أن يفعلوا ما شاءوا، ولكن الذي حدث أن المسلمين لم ينساقوا وراءهم، ولم تظهر الأحكام الكافرة في هذا المجتمع، ولم يرضَ بها هذا المجتمع، ولم يستسلم لها، وظلت هناك فجوة بين الحكام وبين المجتمع واضحة وجلية.

ولعله وُجِد هناك -كطبيعة بشرية- بعض الأفراد أو بعض المجموعات التي استمالها التتار، والتي أرادت الدنيا على حساب الآخرة. لكن هؤلاء كانوا قلة وندرة لا يُعتد بها.. أما جسد الأمة، أو جسد دار الإسلام فلم تخضع ولم ترض أبدا بهذا الحكم الكافر.

الواقع المعاصر ليس كذلك.. ولعل أعداء الإسلام قد أخذوا دروسا من الماضي، فحاولوا قبل أن يرفعوا الشريعة وقبل أن يزيلوا راية الإسلام التي كانت مُعلَنة أن ينخروا في جسد الأمة أولا بحيث أصبحت قواعد المجتمع الإسلامي قواعد نخرة، غير قادرة على القيام، وغير قادرة على حمل هذه الراية العظمى. فحينما سقطت الراية سقط المجتمع كله، وانساق المجتمع كله وراء هذا السقوط بشراهة غير مفهومة، إلا أنهم قبل ذلك لم يكونوا على شيء.. وهذا هو الغثاء الذي تحدث عنه رسول الله ﷺ؛ أن الأمة سيأتي عليها وقت تصبح غثاء قبل أن تسقط، فسقطت لأنها غثاء. أما بعد السقوط فليسوا غثاء.. فقد أصبحوا شيئا آخر ليس له صلة بالأمة المسلمة، وليست لهم صلة بحقيقة الإسلام.

فالغثاء الذي جاء في الحديث عن أواخر هذه الأمة حين قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٢١] غثاء ضعيف غير قادر على المقاومة.. فلما سقطت الراية ودخل الأعداء سار الغثاء مع التيار، لأنه غثاء لا يستطيع أن يصمد، ولا يستطيع أن يقف.

فالصورة التي تعيشها المجتمعات المعاصرة هي أن الراية واضحة العلمانية، واضحة الكفر، واضحة المحادة لله ورسوله، والاستهزاء بدين الله، والعمل ليل نهار على طمس نور الله، وعلى قتل كل نبتة يمكن أن تكون قد نبتت أو بدأت تنبت في غيبة عنهم.. فيقتلونها.. ثم نجد الجموع من الجماهير مازالت تزعم أنها مسلمة، وقد ترك لها أعداء الإسلام الفرصة لأن يتوهموا هذا الوهم؛ أنهم مازالوا مسلمين ما دام هناك مساجد، وما دام هناك صوم، وهناك أذان، وكذا وكذا.. فتركوهم يتوهمون ذلك. وهم لم يتركوهم في هذه الحالة عن رغبة منهم، وإنما أيقنوا أنهم لن يستطيعوا أن يقتلعوا الإسلام شكلا وموضوعا، فرضوا بأن يظل الشكل موجودا دون أن يكون الجوهر موجودا، فتركوا للناس أن يُخدعوا بهذه المظاهر الإسلامية، بينما هم في حقيقة حياتهم لا يمارسون الإسلام.

فهذه الصورة؛ صورة الراية العلمانية المرفوعة، والناس يزعمون أنهم ضد هذه الراية بادِّعائهم الإسلام.. هذا موضوع يُصَعِّب على الدعاة اليوم بيان الإسلام، ويصعب على الناس فهم الإسلام أيضا، لأنهم يتوهمون أنهم مسلمون، وأنهم يعيشون بالإسلام، ويقولون لا إله إلا الله، ويصومون ويحجون ويحتفلون بالأعياد الإسلامية، ويذهبون لمكة، وأسماؤهم إسلامية، والمساجد مفتوحة والأذان يتردد والقرآن يُتلى.

---

٢١ سنن أبي داود ج٤. ص١١١.

فهذه الصورة الموجودة لا شك أنها تصنع غَبشاً، وتصنع عقبة أمام الناس أن يقال لهم أنتم لستم على شيء.. فحينما ندعو الناس في أمريكا فطبيعي أن نقول لهم أنتم لستم على شيء، وهم يقولون فعلا نحن لسنا على ذلك الشيء الذي تريدون، نحن لسنا على دين محمد، ولسنا مسلمين بالمفهوم الذي تريدون، فنحن بمفهومكم كفار.. فهم لن يعارضوا في ذلك.

لكن المجتمع الذي نعيش فيه، أو المجتمعات التي كانت إسلامية، واجتاحها الغزو الفكري وزحزحها عن الحق وعن الدين الحق.. هذه المجتمعات هي التي يوجد فيها الغَبش الذي يسبب عقبة أمام الدعاة. وحينما يُدعى الناس إلى الإسلام في هذه المجتمعات ترتفع أو تخرج لنا صيحات تقول إن الناس مسلمون ما داموا يقولون لا إله إلا الله. ونحن قد رددنا على هذه الشبهة. أو أن الناس جهلة لا يعلمون إلا ما وصلهم، فهم مسلمون لأنهم يعملون ما يعرفون.. وهذه أيضا ليست حقيقة، لأن الناس يعرفون أكثر كثيرا مما يعملون، وهم قد دُعوا إلى الإسلام من خلال المجددين، ومن خلال الدعوات الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي، وحتى هذه اللحظة هناك من يُبيّن لهم حقيقة الإسلام.. لكننا نجدهم يتجهون في الاتجاهات المضادة بإصرار وبتحمس. فالحقيقة أنهم يعرفون ما هو الإسلام.. والذي يسمع ما يقال في أية إذاعة من الإذاعات العربية والتي بها محطات للقرآن الكريم يجدهم يتحدثون عن حقائق الإسلام؛ من أول حقيقة العقيدة إلى آخر نقطة فيه بوضوح كامل، سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر.. فادعاؤهم هذا ليس حقيقيا.

هل الحجة قائمة على هذه المجتمعات؟ وقضية العذر بالجهل

والموضوع الذي يجب أن نقف عنده الآن هو: هل الحجة قائمة على هذه المجتمعات أم لا؟ وهل الجهل بأصول الإسلام وبما هو معلوم من الدين بالضرورة موجود في هذه المجتمعات أم ليس موجودا؟

هذا موضوع مهم لأن من أكثر الأمور التي تغبش على الناس، بل تغبش على كثير من الحركات الإسلامية، بل على كثير من العلماء أو المفكرين الذين يتحدثون عن الإسلام قولهم؛ إن الناس لم تقم عليهم الحجة، وإن العلماء يقولون: لا يكفر الناس إلا إذا قامت عليهم الحجة. فهذه القضية قضية مهمة؛ قضية متى تقوم الحجة؟

وهذا أمر جدير بأن نتناوله ونبين وجه الحق فيه وقد كان بعض السلف يقول: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند ورود الشهوات، ولا شك أننا محتاجون إلى بصر نافذ، لأن الشبهات كثيرة، ولأن أعداء الإسلام، وأيضا الذين يحبون الإسلام يقعون في سقطات كثيرة جدا وكبيرة جدا بسبب أنهم لا يستخدمون عقولهم. وقد قلنا فيما سبق إن الإسلام يخاطب البصيرة، ولا يخاطب العقل وحده، ولا يخاطب القلب وحده، ولا يخاطب الحس وحده، وإنما يخاطب الإنسان كله.

والبصيرة في المفهوم الإسلامي تعني كل أدوات الوعي الإنساني، وكل طرق الوعي وأدوات الوعي التي يعي بها الإنسان الأشياء. فالإنسان يعي بعقله، ويعي بوجدانه، ويعي بحسه، ويعي بعواطفه، ويعي بفطرته. فالبصيرة هي المخاطبة بالخطاب الإسلامي. فلذلك كان الله سبحانه وتعالى يحب للناس أن يكون عندهم بصيرة نافذة عند ورود الشبهات، وعقل كامل عند ورود الشهوات، لأن الشهوة تسكر العقل، فلا بد أن تواجه الشهوات بالعقل الكامل الناضج الذي يعرف خطر الشهوة، ويعرف حكم الشهوة،

ويعرف حدود الشهوة، ويعرف مآلات هذه الشهوة أيضا.. فيحكم شهوته بعقله الكامل. كما أنه حينما ترد الشبهات يحتاج إلى بصيرة تضيء له ما ادلهم من أمور حينما تأتي سُحبٌ ورعود هذه الشبهات لكي تعصف بتوازن الإنسان، فيفقد قدرته على الرؤية الواضحة. فلذلك أعجبني هذا التعبير جدا من بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند ورود الشهوات.

وسنحاول هنا أن نجلي قضية الحجة وقيامها.

المفروض أن الحجة تقوم بالرسل وبالكتب. ولا شك أنه كلما جاء رسول من عند الله كان يقيم الحجة على قومه بنفسه وبمنطقه وبما جاء به من عند الله عز وجل. وكل رسل الله كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، ثم يجتال الشيطان الناس عن الحق فيبعدون عنه، فيحتاجون إلى رسول جديد.. وهكذا.

حتى كان خاتم النبيين ﷺ، والذي جاء ليكون هو خاتم الأنبياء، وجاء بالحجة التي تصلح أن تكون حجة دائمة إلى آخر الزمان.

فإذا كان الناس قبل محمد ﷺ يعيشون في ظلام الجهل، فإنهم بعد محمد ﷺ لم يعودوا كذلك. فقبل رسول الله ﷺ لم يكن هناك كتاب صحيح، فقد حُرِّفت التوراة وحُرِّف الإنجيل، وضاعت صحف إبراهيم وكثير من آثار الأنبياء، ولم يبق إلا بقايا من أهل الكتاب يعرفون الحقيقة، ولكنهم قد لا يستطيعون أن يواجهوا بها الناس، أو حتى يدعوا إليها.

لكن بعد أن جاء الرسول عليه الصلاة والسلام، والذي مثّله الله عز وجل بالسراج ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، هو ذلك النجم الوضاء الذي يضيء بنوره كل شيء، لذلك سميت الشمس بالسراج، بينما سمي القمر بالنور، لأن القمر ليس نيرا بذاته، فهو جسم معتم يضيء بانعكاس ضوء الشمس عليه، لكن الشمس جسم مضيء يشع نوره على البشرية، أو على الكون كله، أو على ما وصلت إليه أشعته.. فمُثِّل رسول الله ﷺ بالسراج.

فبعد مجيء رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يعد هناك ظلام، وقامت الحجة على البشر. وكما أن الشمس تطلع على الناس، ويراها الناس كلهم، ولا يصح لأحد أن ينكر وجود الشمس ولا نورها ولا حرارتها.. فكذلك لا يصح ولا يقبل من أحد أن ينكر قيام الحجة عليه بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ. فالقرآن هو السراج الذي يضيء للبشرية طريقها إلى يوم الدين، وسنة الرسول ﷺ أيضا سراج آخر يضيء للبشرية حياتها. فلم يعد هناك عذر لأحد أن يقول إن الحجة لم تقم عليه.

والذي نريد أن نقوله ونقرره: أن هناك فرقاً بين قيام الحجة وبين فهم الحجة. فالحجة تقوم بمجرد وجودها، وليست متوقفة على فهم الناس لها. وسنتحدث بالتفصيل عن هذه المسألة. فالحجة قائمة منذ أن جاء محمد ﷺ بالقرآن، والله عز وجل تعهد بفضله وكرمه أن يحفظ للبشرية هذا النور وهذه المثابة حتى يوم الدين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فكل من بلغه هذا الكتاب وكل من علم برسالة محمد ﷺ لم يبق عنده عذر. فالحجة قامت بوجود القرآن ووجود سنة رسول الله ﷺ.

أما عن الفهم.. فالحجة تقوم بمجرد وجودها ولا تتوقف على الفهم، وسنبين ذلك من خلال هذه الرسالة المفيدة لأحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي هو إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.. وعنوان الرسالة "حكم تكفير المعين، والفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة".. وسنقتطف منها مقتطفات ليست كثيرة.

ابتداءً يقول ناشر الرسالة: "إن قضية التكفير والتضليل والتبديع قضية لها جذورها في تاريخ الطوائف الإسلامية، وكانت سِمةٌ ظاهرة وعلامة بارزة للخوارج ومن نحى نحوهم، ثم جعلت سُبَّة، فامتطى الكثير ذراها وتمسكوا بشعفها وتمثلوا بها للنيل ممن حقق التوحيد والمتابعة، ليخلصوا من ذلك إلى توسيع دائرة الإسلام ولو جيء بالمكفرات الظاهرة".

فقضية التكفير قضية قديمة، وقد جاء وقت في تاريخ هذه الأمة الإسلامية كثرت فيه الطوائف الضالة، وأساء الناس الظن بعضهم ببعض في عقائدهم. كان الناس يتضاربون بالكفر بسهولة، حتى أنه كان بعض الناس يأخذوا حججاً مكتوبة من العلماء بأنه مسلم ويستبقيها معه، حتى إذا كفره أحد يقول هذه حجتي من الإمام الفلاني بأنني مسلم. فقد حدث اضطراب في المجرى الثقافي والمجرى العقيدي في حياة المسلمين، بحيث أصبح التكفير تُهمة سهلة الورود.. الناس يتداولونها ويتراشقون بها بسهولة. ونتيجة لذلك أصبح الناس يخشون على أنفسهم أن يُتهَموا بالتكفير. وبطبيعة الحال حدثت فوضى هائلة في هذا الموضوع، بحيث أصبح الناس يكفّرون بحق وبغير حق، وأصبح الإنسان يخشى على نفسه من أن يرمى بالكفر مع يقينه بإسلامه نتيجة لما ساد المجتمع المسلم في وقت من الأوقات من الفرق الكثيرة التي شككت الناس بعضهم في بعض. فقامت حملة -بطبيعة الحال- ضد هذا التكفير الفوضوي، وأصبح هناك حساسية من أن يُكَفَّر أحد. وبالتالي تميعت القضية، ولم يقف الناس عند الوسط المعتدل؛ أن يكفر من يستحق التكفير، وأن يعصم من التكفير من عصمه الله من ذلك. وأصبح مجرد تناول قضية التكفير أو الحديث عنها قضية حساسة، بحيث استغلها أعداء الإسلام واستغلها المفرطون في أن يخوفوا الناس من أن يكفروا أحدا، حتى ولو سُبَّ الرسول ﷺ، وحتى لو سُبَّ القرآن، وحتى لو سُبَّ الله، فيقولون: لا نستطيع أن نكفره، نتوقف فيه، ونكل أمره إلى الله. فأصبحت قضية التكفير، أو قضية إصدار حكم على الأعيان أو على الطوائف أو على المجتمعات قضية ذات حساسية مرضية، كان الغرض منها في أول الأمر هو تنظيم هذا الأمر حتى لا يكون فوضى، ولكنه استُغل بحيث أصبح -كما يقول الأستاذ سيد في الظلال- جريمة معلقة في رقبة كل إنسان يجرؤ أن يتلفظ بتكفير؛ سواء المجتمع، أو الطوائف، أو أحد من الأعيان.

ولا شك أن هذه القضية تقابل العاملين الآن الذين يدعون إلى الحق ويدعون إلى التوحيد الصحيح، ويحكمون بحكم الله عز وجل في أمر هذه المجتمعات وفي أمر هذه الطوائف وفي أمر هذه الدول والمناهج وفي أمر بعض الأفراد.. فأصبح هذا الأمر يُنظر إليه كأمر مخيف لا يجوز الاقتراب منه، وأنه لا يجوز التكفير بأي حال من الأحوال، حتى أنني قرأت للأستاذ حامد أبو النصر مرشد الإخوان السابق مقالة يقول فيها: أننا لا نكفر أحداً على الإطلاق، هو قالها كذلك، وسمعت أحد الناس في المعتقل يقول: أنا لا أستطيع أن أكفر اليهود والنصارى! فالأمر صار رَدّة فعل للحديث في قضية الإسلام وقضية التوحيد الحق، وما يستتبعه من الولاء والبراء، وما يستتبع هذه القضية من إصدار أحكام على بعض الأوضاع، أو على بعض الطوائف، أو على بعض النظم، أو حتى على بعض الأشخاص. فصارت قضية يستغلها أعداء الإسلام، ويجعلونها تهمة يؤخذ عليها بالنواصي

والأقدام. وكما يقول الأستاذ سيد في تفسير سورة الأنعام: "ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة. فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا. حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير المسلمين"[٢٢]، ويقول -وقوله في هذا الموضوع حق- "أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة، ولا يعوقها غبش، ولا يميعها لبس. فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم "المسلمون" وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم "المجرمون".. كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان. وأنهم وقومهم على مفرق الطريق، وأنهم على ملة وقومهم على ملة. وأنهم في دين وقومهم في دين:

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥]"..

وقال: "إنه لا بد أن تُحَدد الرايات والشارات، وتُزال الأقنعة، وتتحدد الأمور تحديداً واضحاً، حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة"[٢٣].

وهذه مهمة الرسل أن يأتوا بالحق الصريح الذي يفرق بين الظلام والنور، وبين الكفر والإيمان، وبين الجاهلية والإسلام، وبين الضلال والهدى.. وما لم يفعل الأنبياء ذلك فلا يكونوا قد قاموا بمهمتهم.

والأنبياء جميعا جاءوا ونجحوا بفضل الله سبحانه وتعالى أولا، وبإخلاصهم وبإصرارهم على أن يضعوا منارات الهدى، وأن يحددوا مع أقوامهم الفواصل الواضحة.. كما أمر الرسول ﷺ أن يقول لقومه ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون]، وكما أمر الرسول ﷺ في قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

فتهمة التكفير، أو التعرض لعقائد الناس هي مهمة الأنبياء، جاءوا ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وجاءوا ليقولوا للناس إنكم على باطل، وإننا ندعوكم إلى الهدى، وجاءوا ليقولوا للناس: إنكم لستم على شيء، وأمروا أن يواجهوهم بحقيقتهم؛ بحقيقة أنهم كافرون، وأنهم ليسوا على شيء.

ولكن لكل شيء ضوابطه حتى لا يكون الأمر فوضى، وكما يحدث في الواقع الآن -كما شاهدنا من بعض الحركات والجماعات الإسلامية- أنهم أيضا يسرفون في إصدار أحكام الكفر حتى على بعضهم البعض، لمجرد خلاف فرعي بسيط، أو مجرد تناطح في الأفكار، أو في أي شيء.. وهذا لا يجوز.. لا بد أن يكون للأمر ضوابطه، حتى لا يصبح الأمر فوضى تغري أعداء الإسلام بأن يخوفوا الناس من الاقتراب من هذه القضية. وهذه الضوابط تجعل القائمين بالحق قادرين على توصيل الأمر للناس بصورته الصحيحة التي لا إفراط فيها ولا تفريط.

٢٢ في ظلال القرآن. ج٢. ص١١٠٧.

٢٣ المصدر السابق. الموضع نفسه.

سبق أن قلت فإن الحجة تقوم بمجرد وجودها، وليست متوقفة على الفهم، وأن التعريف -كما يسميه صاحب الرسالة المنوه بها آنفاً والذي يعني به هنا "التبيين والإعلام"- إنما يكون في الأمور الخفية، وليس في أصول الإسلام.. فالذي يدوس على المصحف لا يقال إننا لا بد أن نعرفه أن هذا كفر.. هذا العمل كفر بذاته، لا يسأل صاحبه ولا يعرَّف، لأن هذا أصل. والذي ينكر سنة الرسول ﷺ كذلك، فهذا أصل لا يعرّف صاحبه ولا يبين له، وإنما يستتاب.. والاستتابة غير البيان والتعريف، أو غير التعليم.

لكن الأمور الخفية التي قد تخفى على الناس، مثل بعض البدع، أو بعض الأقوال الفرعية، إذا وقع فيها بعض الناس لا بد أن يعرّفوا بخطورتها، وبأنها تكفِّر، فيعودون عنها. لكن الأمور الأصلية؛ من الأصول التي جاء بها الرسول ﷺ وجاء بها القرآن والسنة إذا أنكرها الناس أو اعتدوا عليها يصبحون بها كافرين بمجرد ذلك.. وهذه هي القضية الأولى.

القضية الثانية: أنه حتى لو وجد خلاف بين أهل العلم في بعض الحالات الخاصة هل يعذر صاحبها أم لا كأهل الفترة؟ فإن كلا الفريقين متفق على أن هؤلاء لا يكونون مسلمين. والاختلاف الحاصل بين الجمهور وبين البعض إنما هو في هل يعذرون في الآخرة أم لا. فالاختلاف هو عن الجزاء الأخروي.. أما الوضع في الدنيا فالإجماع أنهم ليسوا مسلمين.

وهذه القضية مهمة جدا، لأنه حتى لو كان هؤلاء سيعذرون في الآخرة، لكن واقعهم في الدنيا أنهم ليسوا مسلمين، وقد يعذرهم الله عز وجل بما يعلم سبحانه عنهم. وهؤلاء قد جاء حديث بامتحانهم في العرصات يوم القيامة.. فيمتحنون إن كانوا فعلا لم يبلغوا، أو لم يصلهم البلاغ.. وكما سيُحاجّ الأصمُ والأحمقُ والذي مات في الفترة اللهَ سبحانه وتعالى يقولون: يا رب ما علمنا، فيعيد الله عز وجل لهم قواهم، ثم يختبرهم.. هكذا ورد في الحديث[٢٤].

فهذه القضية الثانية مهمة، لأن الناس يتشدقون بالحديث وهم يجهلون أن الحجة قائمة بمجرد وجودها، وهذا أمر متفق عليه. لكن الخلاف فيما لو لم تصل الحجة.. فحتى لو لم تصل لا يكون هؤلاء مسلمين.

يقول الشيخ إسحاق في هذه الرسالة (ولغة الرسالة فيها قدر من الصعوبة، لكن الأمر واضح إن شاء الله) يقول: "مسألتنا هذه، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، وأن من عبد مع الله غيره فقد أشرك الشرك الأكبر الذي ينقل عن الملة.. هي أصل الأصول، وبها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وقامت على الناس الحجة بالرسول وبالقرآن. وهكذا تجد الجواب من أئمة الدين في ذلك الأصل عند تكفير من أشرك بالله، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.. لا يذكرون التعريف في مسائل الأصول، وإنما يذكرون التعريف في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض المسلمين، كمسائل نازع بها بعض أهل البدع كالقدرية والمرجئة، أو في مسألة خفية كالصرف والعطف.."[٢٥]. فالتعريف هنا -كما قلنا بمعنى التبيين وشرح الحجة- لا يكون في أمر الأصول.. فيستتاب من وقع في ذلك، ولكن ليس المطلوب أن يعرّف، ولا يتوقف تكفيره على التعريف، لأن الأمر في باب الأصول.. فلا يجوز فيه التعريف.

---

٢٤ أخرجه أحمد من حديث الأسود بن سريع -رضي الله عنه-، قال علي بن المديني: إسناده صحيح.

٢٥ الصرف والعطف: نوعان من السحر.

ويضرب مثلا بعُبَّاد القبور، فيقول: "وكيف يعرفون عُبَّاد القبور وهم ليسوا بمسلمين؟ ولا يدخلون في مسمى الإسلام، وهل يبقى مع الشرك عمل؟ والله عز وجل يقول ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].. ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨].. ويقول ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات. ولكن هذا المعتقد يلزم منه معتقد قبيح، وهو أن الحجة لم تقم على هذه الأمة بالرسول والقرآن، نعوذ بالله من سوء الفهم الذي أوجب لهم نسيان الكتاب والرسول، بل أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة والقرآن وماتوا على الجاهلية لا يسمون مسلمين بالإجماع، ولا يستغفر لهم، وإنما اختلف أهل العلم في تعذيبهم في الآخرة"..

ويُنقَل عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قوله: "إن من ارتد عن الإسلام بعد النبي ﷺ كالذين في زمن أبي بكر -رضي الله عنه- حكموا عليهم -أي الصحابة- بالردة بمنع الزكاة، وكأصحاب علي، وأهل المسجد الذين بالكوفة، وبنو عبيد القداح، كل هؤلاء حكموا عليهم بالردة بأعيانهم". فحينما تحدث دلائل الكفر -حتى ولو على الأعيان- يحكم عليهم بالكفر، وليس هناك تردد في ذلك.

ويقول: "والإمام ابن تيمية صرَّح بأن المعين لا يكفر إلا إذا قامت عليه الحجة، فإذا كان المعين يكفر إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، وخلا عما يعذر به فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن، مع قول الله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ [الكهف: ٥٧] وقوله تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]."

فيفهم من كلام ابن تيمية في هذا، وكلام العلماء أنه لا يكفر إلا إذا قامت عليه الحجة بمعنى أن تكون وصلته الحجة وعرف بها، وليس بمعنى أن يفهمها، وإلا لو كان هذا الأمر لما كفر أحد! وكما يقول في موضع آخر "وإلا قامت عليهم الحجة ألا يكفروا النصارى ولا اليهود لأنهم لا يفهمون"، والتعريف والتبيين -كما قلنا- يكون في المقالات الخفية التي قد يخطئ الضال في فهمها، فهذا لا يكفر لأنه لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها.. يقول "ولكن الأمور الظاهرة التي يعلم المشركون واليهود والنصارى أن محمد ﷺ بعث بها وكفر من خالفها مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له ونهيه عن عبادة أحد سواه من النبيين والملائكة فإن هذا أظهر شعائر الإسلام فهذا لا يعذر به أحد". ويقول: "وأبلغ من ذلك أن منهم من صنف في الردة كما صنف الرازي في عبادة الكواكب، وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين"، وهذا لفظ ابن تيمية. ويقول هنا: "تأمل تصريحه (أي ابن تيمية) ردة الفخر الرازي عن الإسلام مع كونه من أكابر أئمة الشافعية فهذا يرد انكارهم التعرض للمعين". فإذا ثبت المكفِّر للمعين يكفر، ولا شيء فيها. ويقول: "والمقصود أن الحجة قامت بالرسول والقرآن، فكل من سمع بالرسول وبلغة القرآن فقد قامت عليه الحجة، وهذا ظاهر في كلام شيخ الإسلام عند قوله. فمن المعلوم أن قيامها ليس بأن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر الصديق، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، وخلا عن شيء يعذر به فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن مع قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]."

ويكرر مرة أخرى فيقول: "أما أصول الدين التي وضحها الله في كتابه فإن حجة الله هي القرآن، فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة، ولكن أصل الإشكال أنهم لم يفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقيام الحجة وبلوغها نوع، وفهمهم إياها نوع آخر... وقد ذكر الشيخ سليمان بن عبد الله رحمة الله عليه في شرح التوحيد (هذا أحد أحفاد محمد بن عبد الوهاب) أن من تكلم بكلمة التوحيد وصلى وزكى لكن خالف ذلك بأفعاله وأقواله من دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والذبح لهم أنه شبيه باليهود والنصارى في تكلمهم بكلمة التوحيد ومخالفتها، وعلى هذا يلزم من قال بالتعريف للمشركين أن يقول بالتعريف لليهود والنصارى، ولا يكفرهم إلا بعد التعريف، وهذا ظاهر بالاعتبار جدا". ويقول إن العلامة ابن القيم رحمه الله جزم بكفر المقلدين لمشايخهم في المسائل المكفرة إذا تمكنوا من طلب الحق ومعرفته وتأهلوا لذلك وأعرضوا ولم يلتفتوا، ومن لم يتمكن ولم يتأهل لمعرفة ما جاء به الرسل فهو عنده من جنس أهل الفترة ممن لم تبلغه دعوة لرسول من الرسل، وكلا النوعين لا يُحكَم بإسلامهم، ولا يدخلون في مسمى المسلمين حتى عند من لم يكفر بعضهم.

ونحن نعرف أن ابن القيم قال في كتاب "طريق الهجرتين" هذا الكلام حينما صَنَّف أنواع الكفار، وجاء للطبقة السابعة عشرة؛ وهم المقلِّدون، وقال عنهم: إنهم حمير الكفار. يقول: "ويجلو عنك بقايا هذه الشبهة قول ابن القيم رحمه الله في كتاب طبقات المكلفين (يعني به كتاب طريق الهجرتين)؛ لما ذكر رؤوس الكفار الذين صدوا عن سبيل الله، وأن عذابهم مضاعف، ثم قال: الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلِّدين وجهَّال الكفر وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبع، يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة ولنا أسوة بهم، ومع هذا فهم مسالمون لأهل الإسلام، غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلمته، بل هم بمنزلة الدواب، وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالا مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين؛ لا الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم".

ويتابع كلام ابن القيم فيقول "والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان برسوله، واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل، فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارا، فإن الكافر من جحد توحيد الله تعالى، وكذب رسوله؛ إما عنادا، وإما جهلا وتقليدا لأهل العناد، فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله تعالى في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وإن الأتباع مع متبوعيهم، وأنهم يتحاجون في النار".. ثم ذكر آيات وأحاديث في هذا الأمر، وهذه الآيات معروفة في كتاب الله.

ويتكلم الكاتب عن قضية تحريم موالاة أعداء الله، فيقول: "في حديث ثوبان -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال (لا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي المشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)".. ولا شك أن هذا حادث في واقع المسلمين..

"ويقول أبو الوفاء بن عقيل: إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد، ولا إلى ضجيجهم بلبيك، ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة".

فقضية الولاء قضية حاسمة ومحددة للموقف، وموضوع الصلاة والحج وغيره لا قيمة له مع موالاة أعداء الله، أو مع عدم العداء لأعداء الله. وفي الحديث عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، قال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، لينـزعن الله عن صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن)، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال (حب الدنيا وكراهة الموت).

ويذكر قول حذيفة -رضي الله عنه- "ليتّقِ أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر"، وتلا آية سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وعاتب عمر -رضي الله عنه- أبا موسى في جعل النصراني كاتبا وقال: ما لك وله قاتلك الله، أما اتخذت حنيفيا مسلما؟ وتلا عليه هذه الآية أيضا.. هذا مع استخدامه، فكيف بموالاته وإكرامه. يقول: "وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن وادّ المشركين، فقال تعالى ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ومن المعلوم أن من وادَّ أحداً فهو عنه راض، فإذا رضي عنه رضي بدينه، فصار من أهل ملته وهو لا يشعر.. وأكثر الناس يفطن للمعصية ووسائلها، ولا يفطن للشرك ووسائله". وهذه حقيقة، فكثير من الناس يتحرجون جدا من أن يزني أو أن يرابي، لكنه يقع في الشرك كثيرا وهو لا يدري.

يقول: "ولما نهى الله عن موالاة أعدائه من الكفار والمشركين، وأباح التقية مع الإكراه قال ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وهذا من أعظم الوعيد والتهديد لمن تدبر كتاب الله وعقل عن الله أمره".

يقول أيضا أن البعض لا يرى هجر أعداء الله أو الذين يوالون المشركين، فيقول رداً على ذلك: "أولا إن الهجر المشروع قد قام الدليل عليه، وأشار جلّ من السلف إليه، وهو مراتب، وله أحوال وتفاصيل على القلب واللسان والجوارح.. قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ [مريم: ٤٨] وقال تعالى عن أصحاب الكهف ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الكهف: ١٦]، وقد هجر النبي ﷺ الثلاثة (الذين خلّفوا) وقصتهم مشهورة.

ويقول عن الآية في سورة الممتحنة في قول القرآن عن إبراهيم ومن معه؛ "قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤].. فانظر إلى هذا البيان الذي ليس بعده بيان، حيث قال أيضا ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا ﴾ أي ظهر، هذا هو إظهار الدين، فلا بد من التصريح بالعداوة، وتكفيرهم جهاراً، والمفارقة بالبدن. ومعنى العداوة أن تكون في عدوة والضد في عدوة أخرى. وكان أصل البراءة المقاطعة بالقلب واللسان والبدن. وقلب المؤمن لا يخلو عن عداوة الكافر، وإنما النزاع في إظهار العداوة، فإنها قد تخفى لسبب شرعي وهو الإكراه، مع الاطمئنان، وقد تخفى العداوة لمستضعف معذور عذره القرآن،

وقد تخفى لغرض دنيوي، وهو الغالب على أكثر الخلف، هذا إن لم يظهر منه الموافقة. ودعوى من أعمى الله بصيرته وزعم أن إظهار الدين هو عدم منعهم ممن يتعبد أو يدرس دعوى باطلة، فزعمه مردود عقلا وشرعا، وليهنأ من كان في بلاد النصارى والمجوس والهند ذلك الحكم الباطل، لأن الصلاة والأذان والتدريس موجود في بلدانهم، وهذا إبطال للهجرة والجهاد، وصد للناس عن سبيل الرشاد".

فلا شك أن هذا الكلام واضح في الفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، وأن التحرج من أمر التكفير إذا كان بضوابطه ليس من الشرع وليس من الدين في شيء، وحتى الذين يعذرون بجهل بعض الناس واعتبارهم من أهل الفترة لا يعطونهم صفة الإسلام.. وبالتالي، فالواقع الذي نعيشه في أحسن الصور -إذا تصورناهم لم تبلغهم الحجة كما يزعم البعض من المفكرين المعاصرين- أنهم إذا اعتُبروا حتى من أهل الفترة فهم ليسوا مسلمين، إنما هم مدعوون إلى شريعة الله وإلى دين الله من جديد، ليدخلوه من جديد.. وليسوا يستصحبون أصل الوراثة بقولهم إن آباءهم مسلمون، أو أنهم كانوا في يوم ما مسلمين. فالواقع أنهم ليسوا كذلك.. فهم لا يعرفون الإسلام، ولا يدركون حقيقة الإسلام.

وبصدد الحديث أيضا عن قضية الجهل يقول الأستاذ محمد توفيق بركات بعد أن تحدث عن النقد الموجه للأستاذ سيد في قضية التكفير، ودافع عنه دفاعا طيبا، يقول[٢٦]: "وتُعرَض هنا شبهة واحدة بالنسبة للحاكمين بغير ما أنزل الله، وللمحكومين الراضين بغير حكم الله؛ وهي الجهل، فإن كثيرا من الناس يقول إن ما ذكرتموه صحيح في أمر تكفير من لا يتحاكم إلى شرع الله... ولكن الناس يجهلون وجوب التحاكم إلى شريعة الله، ويجهلون أن الرضا بغيرها كفر.. ولم يترك سيد قطب هذه النقطة أيضا دون توضيح.. يقول (الأستاذ سيد): ومرة أخرى أحدد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع عن دين الله، حكما معلوما من الدين بالضرورة، لأنها تخرجه من عبادة الله وحده، وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الله قطعا، وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه، وكلها سواء في ميزان الله عز وجل. ويقرر يوسف عليه السلام أن اختصاص الله سبحانه بالحكم تحقيقا لاختصاصه بالعبادة هو وحده الدين القيم ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠] وهو تعبير يفيد القصر، فلا دينا قيّما سوى هذا الدين الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].. وكونهم لا يعلمون لا يجعلهم على دين الله القيم. فالذي لا يعلم شيئا لا يملك الاعتقاد فيه، ولا تحقيقه. فإذا وُجِد ناس لا يعلمون حقيقة هذا الدين لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين، ولم يقم جهلهم عذرا لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام.. ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداءً، فاعتقاد شيء فرع عن العلم به، وهذا منطق العلم والواقع، بل منطق البداهة الواضحة".. انتهى كلام الأستاذ سيد.

يكمل محمد توفيق بركات كلامه فيقول[٢٧]: "فسيد قطب رحمه الله يبني حكمه هذا على تسلسل منطقي واضح:

٢٦ سيد قطب حياته ومنهجه في التغيير والنقد الموجه إليه. ص٢٠٦.

٢٧ المصدر السابق. ص٢٠٧.

أ- مصطلح العبادة في الإسلام لا ينحصر في تقديم الشعائر، بل يشمل الأخلاق والقوانين وكل شؤون الحياة، فلا تتحقق صفة العبادة إلا لمن يقدم الشعائر إلى الله، ويتلقى منه منهج حياته بكل شعبها.

ب- وأنه لا تتحقق صفة الألوهية كاملة لله إلا أن يكون حاكما أيضا، فإفراد الله سبحانه بالحاكمية جزء من إفراده بالألوهية، وذلك مقتضى التوحيد الخالص. وهذان أمران لا ينكرهما مسلم، والجهل بهما جهل بأمر معلوم من الدين بالضرورة، وهو جهل لا يقوم عذرا، لأن الأمور المعلومة من الدين بالضرورة لا يعذر أحد بجهلها، ومن وقع في نقيضهما عن جهل كمن وقع في نقيضهما عن علم، وهذا أمر مقرر ثابت في الأصول وفي العقيدة الإسلامية.

وبما أن بيان كفر هذا النوع من الناس فرع من الاعتقاد بمعنى العبادة والحاكمية في الإسلام، فإن سيد قطب قد أصر عن وجوب الكشف عنه، فضلا عن ضروراته العملية للحركة الإسلامية. فكشف هذه الحقيقة ينزع الستار الخادع عن الأنظمة القائمة، وعمن يساندها، وهو أمر ضروري لانطلاق الحركة الإسلامية، لأن استبانة سبيل المجرمين هدف قرآني ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥].. إن الاندفاعة الكبرى نحو العمل لا تتم فقط بأن يعرف المرء أنه هو نفسه على الحق، ولكن بأن يعرف أيضا أن عدوه على الباطل والكفر، وكشف هذه الحقيقة ربما أعاد الكثيرين من الغافلين إلى رشدهم حين يرون الهوة السحيقة التي انحدروا إليها حين خرجوا من دين الله وهم يحسبون أنهم مهتدون. وقد تنبه أعداء الإسلام إلى هاتين الفكرتين، وحرصوا دائما على رفع لافتات إسلامية على الأوضاع المخالفة لدين الله، حتى أنهم بدأوا يسمون حركة كمال أتاتورك -عدو الإسلام- ثورة تجديد إسلامية، بعد أن كانوا يطمعون أن تكون هذه الحركة الخبيثة قد قضت على الإسلام في تركيا"..

ويواصل توفيق بركات حديثه قائلا: "ومما يؤكد دقة سيد قطب رحمه الله أن الكتب المؤلفة في العقيدة تنص على هذه المسألة؛ من ذلك ما قاله الدكتور سعيد رمضان البوطي في كتابه "كبرى اليقينيات الكونية"، يقول: إذن فالحاكمية هي لله وحده، هو المشرع لعباده في شتى شئونهم المتعلقة بدنياهم وآخرتهم، وهو المرجع في كل مشكلة من مشاكلهم، وإقامة كل تنظيم ودستور لحياتهم، ومن جحد ذلك فهو كافر بالله ورسوله، وإن ادَّعى بلسانه الإيمان بالله ورسوله، وصلى وحج وصام، قامت على ذلك أدلة العقل والنقل من الكتاب والسنة، وتم على ذلك إجماع المسلمين كلهم.. انتهى كلام البوطي. ولذا كان سيد قطب يقول: إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية، والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعا. وإن نقطة البدء في أي حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف، وإظهارها على حقيقتها؛ شركا وكفرا، ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم. وأشد ما تعانيه الحركات الإسلامية هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين، واختلاط الشارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق. ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام "تهمة تكفير المسلمين"، ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله". انتهى ما نقلناه من كتاب محمد توفيق بركات.

فقضية إقامة الحجة قضية مهمة، والجهل في الأصول لا يعتد به، وحتى من يقول بعذر أهل الفترة، أو من لم يصلهم شيء عن دين الله عز وجل؛ إما لحداثة عهدهم بالإسلام، أو عدم وصول الحجة لهم، هؤلاء لا يعدون مسلمين حتى يشهدوا الحق كما ينبغي أن يكون.

شروط شهادة ألا إله إلا الله

ولقد سبق أن قلنا قبل ذلك أن شهادة ألا إله إلا الله لا بد لها من سبعة شروط، حتى تحقق النجاة لصاحبها فلنعد الآن التذكير بها والتأكيد عليها:

لا بد لشهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط لا تنفع صاحبها إلا باجتماعها:

أحدها: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك.

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

هذا من شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن محمد بن القاسم.

فهذه الشروط لا بد أن تتحقق ليتحقق الإسلام.

وكما قلنا بأن الشهادة معناها الإخبار عن يقين، وعن علم واضح.

جاء في كتاب "إبطال التنديد باختصار شرح التوحيد" للعلامة حمد بن علي بن عتيق عند ذكر حديث عتبان قال رسول الله ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).. جاء ما يلي: "وقال الحسن: معنى هذه الأحاديث؛ من قال هذه الكلمة، وأدى حقها وفريضتها. وقيل إن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك.. وهذا هو قول البخاري. قال بعض المحققين: قد تتخذ أمثال هذه الأحاديث ذريعة إلى طرح التكاليف ورفع الأحكام وإبطال الأعمال، معتقدين أن الشهادة وعدم الشرك كاف، وربما يتمسك بها المرجئة، وهذا الاعتقاد يستلزم طي بساط الشريعة وإبطال الحدود والزواجر، ويوجب أن يكون التكليف بالترغيب في الطاعات والتحذير عن المعاصي والجنايات غير متضمن طائلا، بل يقتضي الانخلاع عن ربقة الدين والملة، والانسلاخ عن قيد الشريعة والحكمة والسنة، والولوج في الخبط، والخروج عن الضبط.

فقوله (من شهد) فلا ريب أن الشهادة لا تكون شهادة إلا إذا كانت عن علم ويقين وصدق، وأما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع، فيكون الشاهد والحالة هذه كاذبا لجهله بمعنى الذي شهد به. وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيا وإثباتا، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك (لا إله)، وأثبتت الإلهية لله وحده بقولك (إلا الله)، قال الله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].. فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضال، وهم الأكثرون، فقلبوا حقيقة المعنى، وأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك، واتخذوا ذلك دينا، وشبهوا وزخرفوا.. وأخذوا التوحيد بدعة، وأنكروا على من دعاهم إليه، فلم يعرفوا منها ما عرفه أهل الجاهلية من كفار قريش".

وهو يقول إن كفار العهد المعاصر لم يفهموها ولم يعملوا بها، بينما كفار قريش كانوا يفهمونها، ولكنهم يرفضونها عن علم.

ويأتي السؤال بعد ذلك: حينما تكون الراية علمانية، والناس الذين تحتها يزعمون الإسلام.. فما هو الحكم؟

يحكم على المجتمع كله بأنه مجتمع كافر مشرك، لأنه يستظل بشريعة الطاغوت.. أما الناس فيقرر وضعهم حسبما يقرر كل فرد منهم موقعه من الإنكار ومن الولاء.. فلا بد من الإنكار على الطاغوت، ولا بد من الولاء لجماعة المسلمين.. فبهذا ينقذ نفسه من جريمة الكفر المعلقة على رقبة كل إنسان في هذا المجتمع.

والذي يريد أن يستخلص نفسه من الكفر لا بد أن ينكر الباطل، وأن يوالي أهل الحق. وحينما نحكم بالشرك على المجتمع في عمومه بينما نتوقف أو نتريث حتى نتبين حال الأفراد، فإن هذا يتمشى مع الأصول الشرعية؛ فالعموم يمكن أن يطلق عليهم حكم عام، ولكن يبقى أن يحدد موقع كل واحد من الأعيان على حدة من خلال موقعه. ولنا في ذلك الدليل والاطمئنان بما حدث لرسول الله ﷺ؛ فقد كانت مكة دار كفر رغم وجود الرسول ﷺ والصحابة فيها، وأيضا في الحديث الذي جاء عن الجيش الذي يخسف به بين المدينة ومكة، فقالت عائشة: أيخسف به يا رسول الله وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال (نعم، ثم يبعثون على نياتهم)[٢٨].. فالحكم العام لا يعني استغراق جميع أفراد الأعيان بهذا الحكم، وإنما يكون هو الحكم الغالب باعتبار الراية المرفوعة، وباعتبار اختفاء الشريعة الإسلامية، فيحكم على المجتمع أنه مجتمع كافر ومجتمع كفار، ثم يبقى للأعيان عصمتهم؛ من يتبين منه حالة الإسلام يحكم له بالإسلام. فإذا كان الله عز وجل وهو قادر على أن ينقذ الصالحين من الخسف بأي طريقة.. لكن أن يؤخذوا بمصير الهالكين معنى ذلك أن الحكم العام قد يستغرق الناس جميعا، ولذلك في سورة الأنفال يقول الله عز وجل ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فتأخذ الجميع، حتى ولو كان هناك بعض الأفراد الصالحين، فتعمهم، ثم يبعث الله الناس على نياتهم.

وهناك نص عن الإمام ابن تيمية رحمه الله يقول: "ويجوز، بل يجب قتال هؤلاء التتار، وإن تكلموا بالشهادتين وانتسبوا إلى الإسلام، وجب قتالهم بسنة رسول الله ﷺ واتفاق أئمة المسلمين، وهذا مبني على أصلين: أحدهما المعرفة بحالهم، والثاني معرفة حكم الله فيهم وفي أمثالهم.

٢٨ البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها.

أما الأول: فكل من باشر القوم يعلم حالهم، وهو متواتر بأخبار الصادقين. ونحن نتكلم على جملة أمورهم بعد أن تبين الأصل الآخر الذي يختص بمعرفته أهل العلم، فنقول: كل طائفة خرجت عن شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة؛ مثل أن تركوا الصلاة، أو منعوا الزكاة، أو أعلنوا بالبدع المناقضة للإسلام في العقائد أو العبادات، أو احتكموا إلى الطاغوت، ونحو ذلك.. فالواجب على المسلمين قتالهم باتفاق أئمة المسلمين، وإن تكلموا بالشهادتين، فيجب قتالهم على نحو ما فعل أبو بكر والصحابة بأهل الردة وبالخوارج، حتى يكون الدين كله لله.

وأما الأصل الآخر: وهو معرفة أحوالهم، وهذا معروف"[٢٩].

فإذن العبرة بأمرين؛ بمعرفة حكم الله، والأمر الثاني معرفة الحال.

وفي كثير من الأحيان، حينما نناقش بعض مفكري هذا الزمان يقول أحدهم: من أين لك أن تحكم على الناس وهم يقولون لا إله إلا الله.. والجواب: أنا أحكم من واقع حياتهم.. واقع حياتهم الذي أعرفه، بل أعرف نفسي قبل أن أعرف هذا الحق، أين كنت أنا قبل أن أعرف الإسلام؟ فكل واحد منا قبل أن يعرف الإسلام يعرف أنه لم يكن مسلما بمفهوم الإسلام الحقيقي، ويعرف من خلال واقع الناس أنهم ليسوا على شيء.

فمعرفة الحال أحد القرائن والعلامات الأساسية التي يُستند إليها في الحكم على الناس.. فلا يقال إنكم تشقون عن القلوب.. نحن لا نشق عن القلوب، وإنما الظاهر والمعلن هو الكفر بآيات الله، والاستهزاء بآيات الله، والعبث بآيات الله، وعدم الحكم بشرع الله، والضرب على أيدي من يطالب بشريعة الله واعتباره خارجا عن المجتمع ومجرما ومستباح الدم.. وما يمكن أن يوجد أكثر من ذلك من الظواهر التي تجعلنا نطمئن إلى أنهم ليسوا على شيء.

يقول ابن تيمية: "والأصل الآخر؛ وهو معرفة أحوالهم، يقول: وهم يقاتلون على مُلْك "جنكيز خان" فمن دخل في طاعتهم وطاعة شريعة جنكيز خان الكفرية التي يسمونها الياسق جعلوه وليا لهم وإن كان كافرا، ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوا لهم وإن كان من خيار المسلمين".

فالتتار وجنكيز خان وأولاده كان هذا حالهم؛ الذين يتبعونهم على سياستهم الكفرية، وعلى أحكامهم وشرائعهم الطاغوتية يجعلونه وليا لهم وإن كان كافرا.. ومن خرج على ذلك جعلوه عدوا لهم وإن كان من خيار المسلمين..

يقول "ولا يقاتلون على الإسلام، ولا يضعون على أهل الذمة جزية.. بل جنكيز خان أعظم من فرعون وهامان ضرراً، فإنه علا في الأرض وجعل أهلها شيعا، وأهلك الحرث والنسل، ورد الناس عن دين الأنبياء إلى ما ابتدعه من جاهليته وسياسته الكفرية المفسدة. ولو قلت ما رأيت منهم وما سمعت ما وسعه هذا المكان" -هذا كلام ابن تيمية- "ومعلوم من دين الإسلام أن من جَوَّز اتباع شريعة غير الإسلام فإنه كافر، ومن فر إليهم من أمراء العسكر فحكمه حكمهم، فيه من الردة بقدر ما تركه من شرائع الإسلام، فعلينا أن نقاتلهم، ولو كان فيهم من هو مكره لا نلتفت إليه، لأن الله تعالى يخسف بالجيش الذي يغزو الكعبة مع

---

٢٩ مختصر الفتاوى المصرية. ص٥٠٥.

علمه سبحانه وتعالى بمن فيهم ممن هو مكره، ثم يبعثهم على نياتهم. ومن زعم أن هؤلاء التتار يقاتلون كالبغاة فقد أخطأ خطأ قبيحا، فإن هؤلاء التتار لا شبهة لهم، بل يسعون في الأرض فسادا، خارجين عن شرائع كل دين.

ثم لو قُدِّرَ أنهم يتأولون لم يكن تأويلهم سائغا، بل تأويل الخوارج ومانعي الزكاة أوجه من تأويلهم. وإذا قُدِر على كافر حربي فنطق بالشهادتين وجب الكف عنه، بخلاف الخارجين عن الشريعة؛ كالمرتدين الذين قاتلهم أبو بكر-رضي الله عنه- أو الخوارج الذين قاتلهم علي -رضي الله عنه- وكالتتار، وأمثال هذه الطوائف ممن نطق بالشهادتين ولا يلتزم شرائع الإسلام. وأما الحربي فإذا نطق بها كف عنه، ثم إن لم يصل فإنه يستتاب، فإن صلى وإلا قتله الإمام، وليس لأحد من الرعية قتله، إنما يقتله ولي الأمر عند مالك والشافعية وأحمد، وعند أبي حنيفة يعاقبه بما دون القتل.

وأما إذا كانت هناك طائفة ممتنعة عن الصلاة ونحوها فهؤلاء يقاتلون كقتال المرتدين والخوارج، ومن قدر عليه يجب قتله. فيجب التفريق بين المقدور عليه وبين قتال الطائفة الممتنعة التي تحتاج إلى قتال".

ويقول توفيق بركات في الحديث عن **قضية جاهلية المجتمع**، وأن هذا دار كفر، يقول[٣٠]: "إن الفقهاء مجمعون على أن دار الإسلام هي التي تُحكم بشريعة الله، ودار الكفر هي التي لا تحكم بشريعة الله. وقالوا إن الديار التي كانت يوما ما إسلامية ثم خرجت عن الإسلام إما أن تكون دار حرب أو دار ردة. وأحكام دار الردة أشد قسوة من أحكام دار الكفر".

ولذلك هو يسخر من الذين يقولون إن هؤلاء مسلمون وارتدوا، وليسوا كفارا كفرا أصليا.. يقول: "هؤلاء لا يعرفون أنهم بهذا يحكمون عليهم حكما أشد، لأن أهل الردة ودار الردة لا يعذرون، أي لا يكف القتال عنهم حتى يعودوا للإسلام".

فالقضية إذن واضحة في أن الحكم العام على المجتمع حكم شرعي، ومستأنس له من السيرة، ومن قول الله سبحانه وتعالى في كتابه؛ كما قلنا في الآية ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وحول معنى لا إله إلا الله أيضا، جاء في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي[٣١] ما يلي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].. يقول: "قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لنسألن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا.. وفي البخاري: قال عدة من أهل العلم ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي عن لا إله إلا الله. قال القرطبي: وهذا قد روي مرفوعا؛ روي الترمذي الحكيم قال حدثنا الجارود قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال (عن قول لا إله إلا الله)، قال أبو عبد الله: معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها، وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيله العمل، فقال ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، فلم يقل (عما كانوا يقولون)، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عملا للسان، فإنما المعنيُّ به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قول والعمل عمل، وإنما قال رسول الله ﷺ (عن لا إله إلا الله) أي عن الوفاء بها والصدق بمقالها، كما قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتحلي ولا الدين

---

٣٠ سيد قطب . خلاصة حياته . منهجه في الحركة .. المؤلف : محمد توفيق بركات.

٣١ ج١٠. ص٥٩-٦٠.

بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.. ولهذا لما قال رسول الله ﷺ (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة)، قيل: يا رسول الله وما إخلاصها: قال (أن تحجزه عن محارم الله) رواه زيد بن أرقم. وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله عهد إليّ ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وجبت له الجنة)، قالوا: يا رسول الله وما الذي يخلط بلا إله إلا الله؟ قال (حرصا على الدنيا وجمعا لها ومنعا لها، يقولون قول الأنبياء، ويعملون عمل الجبابرة). وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ردت إليهم، وقال الله كذبتم).. أسانيدها في نوادر الأصول. وعن حذيفة -رضي الله عنه- بسند صحيح في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾.. ﴿ .. الظالمون ﴾.. ﴿ .. الفاسقون ﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧].. قال رجل أمام حذيفة: إن هذا في بني إسرائيل، فقال حذيفة: نِعمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كانت لكم كل حلوة ولهم كل مُرّة، كلا والله لتسلكن طريقهم قدّ الشراك. وعن ابن عباس نحوه. وأقول: هذه الآية وإن نزلت في اليهود لكنها ليست مختصة بهم، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكلمة (من) وقعت في معرض الشرط، فتكون للعموم.. وهذه الآية متناولة لكل من لم يحكم بما أنزل الله، وهو الكتاب والسنة.

وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي).. وهذا حديث صحيح رواه الترمذي في سننه."

وتعليقا على **قضية لا إله إلا الله ووجود أي مانع من تحققها**.. يقول ابن تيمية في آخر كلامه عن كفر مانعي الزكاة: "والصحابة لم يقولوا لمانع الزكاة؛ هل أنت مقر بوجوبها، أو جاحد لها؟ هذا لم يعهد عن الصحابة بحال، بل قال الصدّيق لعمر -رضي الله عنه- والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فجعل المبيح للقتال مجرد المنع، لا جحد الوجوب. وقال الإمام اسحاق بن راهويه أحد الأئمة المشهورين: أجمع المسلمون أن من سب الله أو رسوله أو دفع شيئا مما أنزل الله أنه كافر بذلك وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله". (المصدر: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ).. (والنص الأسبق عن مجموعة التوحيد النجدية).

فواضح إذن من حديثنا عن قضية لا إله إلا الله، وعن تعاملنا مع المجتمع وحكمنا على المجتمع، وأيضا بالنسبة للأفراد إن كانوا تحت راية هم يقفون معها ويقرون بها فحكمهم حكم الراية بطبيعة الحال، وإن كانت الراية تخالف ادِّعاء الناس فيُنظر إلى حال الناس كأفراد، ويحكم على الأفراد وعلى الأعيان بحال كل فرد بعينه، أما على العموم فيحكم عليهم حسب الراية المرفوعة وحسب الشريعة التي تحكمهم.

تطبيق القواعد السابقة على الواقع المعاصر

وهذا حينما نطبقه على واقعنا المعاصر يصبح الأمر واضحا جدا على كافة الجوانب؛

فأولا: في قيام الحجة، فهي قائمة بالقرآن وسنة رسول الله ﷺ، بصرف النظر عن فهمهم لهذه الحجة، فإنه لا عذر بالجهل في أمر الأصول.

والأمر الثاني: أنه في أحسن الأحوال إذا نُظِرَ إلى قول من يعذرون الناس بعدم وصول الحق لهم، أو عدم وضوح الأمر لهم، حتى هؤلاء الذين يُعذرون بجهلهم.. فهذا العذر يفيدهم في الجزاء الأخروي، أما في الدنيا فالعلماء مجمعون على أن أهل الفترة ومن كان مثلهم لا يسمّون مسلمين، ولا يُدعى لهم، ولا يُصلى عليهم.

وبالنسبة للحكم على الأفراد والحكم على الجماعة فكما قلنا إن كل إنسان يحكم عليه بموقعه كما أفادتنا السنة وكما أفادنا القرآن في هذا الأمر وأن العموم يأخذ صفة الراية، أما الأفراد فيتحدد موقعهم من الإسلام بحسب سلوكهم.

وهذا يُرجعنا مرة أخرى إلى ما بدأنا الحديث عنه؛ في أن الإسلام لا يعتد بالمسلمين نظرياً، وأنه لا بد أن يتحول الإنسان الذي يعتقد هذا الاعتقاد الحق إلى عامل على هدم وتقويض الجاهلية..

الخاتمة: كيف يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى في واقع الأرض

يقول الأستاذ سيد **"ومن ثم لم يكن بُدْ أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أي العقيدة) في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى.. لم يكن بُدْ أن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغاءه، وأن يكون محور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله ﷺ ومن بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته -وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع الحركي الجاهلي- أي التجمع الذي جاء منه -ومن قيادة ذلك التجمع- في أي صورة كانت، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتي كانت لقريش، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الإسلامي الجديد، وفي قيادته المسلمة.**

ولم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم في الإسلام، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا. لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم، لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعاون، له وجود ذاتي مستقل، يعمل أعضاؤه عملا عضويا -كأعضاء الكائن الحي- على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه، ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي، تنظم حركتها وتنسقها، وتوجههم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامي، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي.

وهكذا وجد الإسلام.. هكذا وجد متمثلاً في قاعدة نظرية مجملة -ولكنها شاملة- يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي، مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع.. ولم يوجد قط في صورة

"نظرية" مجردة عن هذا الوجود الفعلي.. وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة أخرى، ولا سبيل لإعادة إنشائه في ظل المجتمع الجاهلي في أي زمان وفي أي مكان بغير الفقه الضروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية."

وبهذا يكون قد أصبح واضحا أن وجود الجماعة المسلمة ضرورة إيمانية، وليس ضرورة تنظيمية فقط.. ضرورة إيمانية لا يتم الإسلام إلا بها، ولا يتم إقامة الإسلام ولا تحقيق هذا الدين بدون التجمع العضوي الإسلامي، والذي ينبغي أن يقوم بمجرد أن يوجد ثلاثة يشهدون أن لا إله إلا الله، ويعتقدون عقيدة الحق، ويكون ولاؤهم خالصا لله ورسوله ولقيادة هذا التجمع، وينفصلون بمشاعرهم وبقيمهم وبموازينهم عن المجتمع الجاهلي؛ تصورا وقيادة ونظاما وقيما وسلوكا. ويكون واضحا تماما أن الإسلام يرفض تماما فكرة المسلمين النظريين، الذين يعتنقون أو يفهمون الإسلام ولا يتحركون به، ويظلون أعضاء عاملين في المجتمع الجاهلي، يغذونه بقوتهم وبحركتهم، ولا يعملون على تقويضه وعلى إلغائه كما يريد منهم الإسلام.

هذا المجتمع المسلم الذي نحن بصدد الحديث عن نشأته، والذي تكلمنا عنه كل هذا الكلام الطويل، والذي كان من الضروري أن نؤصله وأن نفصله ليتضح لنا ضرورة قيام هذا المجتمع، وأن هذا المجتمع ليس موجودا في الواقع، وأن ادعاء الناس الإسلام، أو نطقهم بشهادة ألا إله إلا الله، أو وجود أي مظهر من المظاهر الإسلامية، أو حتى بعض السلوكيات الإسلامية.. كل هذا لا يخدعنا عن حقيقة الواقع وأنه ليس واقعا إسلاميا، وأننا ينبغي أن ندعو الناس إلى الإسلام من جديد، وأن نبين لهم أنهم ليسوا على شيء. وهذا الموضوع سنتحدث عنه في فصول قادمة.. سنتحدث عن منهج البناء، ومنهج الدعوة، ومنهج البلاغ، ومنهج التربية، ومنهج المفاصلة، ومنهج التعامل مع الجاهلية.. كل هذه فروع للمنهج الإسلامي سنتحدث عنها في فصول قادمة.. وسنتحدث أيضا عن طبيعة هذا المنهج، وعن قضية المرحلية، وقضية الأولويات، وقضية تنظيم وتحديد خطوات المنهج الإسلامي.

ولكننا نريد أن نختم هذا الفصل بهذه القضية التي ينبغي أيضا أن تُستكمل، لنكمل بها سمات المجتمع المسلم الذي نريد إنشاءه..

يقول الأستاذ سيد **"وبعد: فإن الإسلام -وهو يبني الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج، ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي، ويجعل آصرة هذا التجمع هي العقيدة- إنما كان يستهدف إبراز "إنسانية الإنسان" وتقويتها وتمكينها وإعلائها على جميع الجوانب الأخرى في الكائن الإنساني، وكان يمضي في هذا على منهجه المطَّرد في كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه.."**

فإلى جانب أن نشأة المجتمع المسلم ضرورة إيمانية، واستجابة لغاية الوجود الإنساني، واستجابة لمراد الله سبحانه وتعالى في إقامة المجتمع المسلم الذي يعبد الله وحده، ويقر بألوهيته في الأرض، ويحارب الطاغوت الذي يريد أن يعتدي على ألوهية الله، ويقوض أركانه، ليكون الدين كله لله.. إلى جانب ذلك كله فإن الإسلام من خلال تحقيق هذا المجتمع يستهدف إبراز "إنسانية الإنسان".. لأن إنسانية الإنسان لا تتحقق في الحقيقة إلا في المجتمع المسلم.. أما حينما يكون الناس في الجاهلية فإنهم يفقدون أول ما يفقدون إنسانيتهم، ويكونون كالأنعام.. بل هم أضل.

وهذه الحقيقة بجانب أنها نتيجة طبيعية لقيام المجتمع المسلم على أساس التصور الصحيح، لكنها في ذات الوقت تعطي للمجتمع المسلم تلك الميزة الرائعة؛ وهي تحقيق إنسانية الإنسان كما ينبغي له كسيد للكائنات الموجودة على الأرض، ولتميز ذلك الإنسان بكل الخصائص التي أفرده الله بها وميزه الله بها. والجاهلية تريد أن تنتكس بهذا الإنسان عن هذه المكانة إلى مكانة الحيوان.. بل أضل. فضلا عن سوء نية الجاهلية في هذا، لأنها تعلم أن الإنسان حينما ينحدر إلى درك الحيوان، أو أسفل منه فإنه ساعتها لا يكون قادرا على أن يكون عبدا لله.

ولأنها تصد الإنسان عن عبادة الله فهي تحرص الحرص كله على أن تنزله إلى دركات الحيوان، بل هي في الحقيقة تنزله إلى درك أحط من درك الحيوان. لأنه -كما قلنا- إن الحيوان يؤدي دوره الذي خلق من أجله كما أراد له الله، فهو يؤدي دوره، ويخلص في أداء هذا الدور، ولا يحيد عما أراد الله له.

أما الإنسان حينما ينزل بنفسه إلى مستوى الحيوان، أو أقل وأضل، فإنما يخرج بذلك عن مهمته وعن دوره، ويخرج بذلك أيضا عن عبوديته لله عز وجل، وينقلب محادّا لله عز وجل، ومحادا لنفسه أيضا، ومشقيا لنفسه ويكون كما عبر القرآن الكريم قد سفه نفسه ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي حقرها وأهانها.

فأعداء الإسلام يريدون أن ينزلوا الإنسان إلى الدرك الحيواني. ولذلك يطلقونه في عالم الغرائز والشهوات، لكي ينحسر عن دائرة الإنسانية إلى دائرة الحيوانية، ولكي يلبّسوا على الناس هذا يجعلون ذلك في صورة نظريات علمية، هي في الحقيقة جهالة علمية كما يعبر عنها الأستاذ سيد في هذا النص.. يقول **"إن الكائن الإنساني يشترك مع الكائنات الحيوانية -بل الكائنات المادية- في صفات توهم أصحاب "الجهالة العلمية!" مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان، ومرة بأنه مادة كسائر المواد! ولكن الإنسان مع اشتراكه في هذه "الصفات" مع الحيوان ومع المادة له "خصائص" تميزه وتفرده، وتجعل منه كائناً فريداً، كما اضطر أصحاب "الجهالة العلمية!" أخيراً أن يعترفوا والحقائق الواقعية تلوي أعناقهم لياً، فيضطرون لهذا الاعتراف في غير إخلاص ولا صراحة!"**

فتعبير الجهالة العلمية تعبير -فعلاً- رائع ومعبر، وهو مانع للوهم في هذا، فمن ناحية هم يستعملون العلم ويلبسون لباس العلم، ويمكن أن يستغلوا بعض سنن ونواميس الكون في محاولة إثبات ما يقولون.. لكن الحقيقة أنهم لا يصلون إلى الحقيقة كما هي، فهم يحققون جهلا حتى ولو كان باسم العلم، أو حتى مع استغلال بعض سنن الله، فهم يرون في الإنسان بعض سمات الحيوان -كما يقرر فرويد، وكما يقرر كل العلماء الماديين- فهم يقررون أن الإنسان عبارة عن شهوات وغرائز فقط، والمدرسة السلوكية تنزع عن الإنسان حتى الإرادة، فتجعله ينغمس في الشهوات وفي الجريمة وفي الانحرافات على غير إرادة منه، فهو ينطلق إليها حسب الدوافع، أو ما يسمونه بالشرط المنعكس.. بمعنى أنه ينطلق استجابة لأي عامل يؤثر فيه، فهو ينطلق في اتجاهه كما أراد له هذا العامل بلا إرادة ولا وعي ولا مسئولية ولا فهم.

والشيوعيون يجعلون الإنسان عبارة عن مادة.. فالذي خلقه هي المادة. وهو أيضا عبارة عن كائن يأكل ويشرب ويمارس الجنس، وليس أكثر من ذلك. والجانب المعنوي كله لا وجود له في النظرية العلمية المادية كما يسمونها.

فسواء الذين يقولون عن الإنسان إنه حيوان، أو الذين يقولون إنه مادة؛ كلاهما يخدع الجماهير ببعض وجوه الشبه التي توجد في الإنسان من الحيوان ومن المادة، سواء في التفاعلات، أو في طبيعة المزاوجة، لأن الكون كله خلق على سنة الزوجية، سواء في عالم المادة، أو في عالم النبات، أو في عالم الحيوان، أو في عالم الإنسان.

لكن الحقيقة أنهم يخفون الحقيقة التي اضطروا أن يعترفوا بها؛ أن الإنسان متفرد عن كل هؤلاء كما يقول جوليان هكسلي الذي يسمى أبو الداروينية الحديثة (نيو داروينيزم)، وهو قد اعترف في كتاباته أن الإنسان شخص غريب جدا عن عالم الحيوان، وأن بينه وبين عالم الحيوان فجوة كبيرة جداً جداً.. ويقول إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعرف معنى الإرادة ومعنى الإصرار، وهو أيضا المخلوق الوحيد الذي يعاني من الصراع.. ومعنى أنه يعاني من الصراع أنه يختار، وأنه يقف دائما على مفرق طريق، وأنه يختار، فيحدث عنده صراع بين ما يريده وبين ما يراد منه. فاعترف جوليان هكسلي اعترافا صريحا بتفرد الإنسان عن سائر المخلوقات.. حتى أنه يقول إن ما وصل إليه العلم الحديث عن الإنسان قريب جدا مما قررته الأديان، لكنه ليس بالضبط كما تقول الأديان!! لأنه يستكبر على أن يعترف أن ما قالته الأديان حق كامل.

فأصحاب الجهالة العلمية يريدون أن ينزعوا من الإنسان هذه الهالة الرائعة؛ وهي هالة الإنسانية.

ولكن الإسلام يأتي ليقرر أن الإنسان متفرد، وأن الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان، أو بينه وبين المادة هي خصائص يستطيع الإنسان أن يعليها وأن يرفعها، ليجعل منها خصائص إنسانية ومشاعر إنسانية وشهوات إنسانية.. فيتعامل مع كل الشهوات بطريقة الإنسان، وليس بطريقة الحيوان.. ومن ثم يقف أيضا على مستوى لا صلة له بالحيوان كثيرا، حتى وإن اشترك في ظاهر السلوك أو في شكل العمل مع الحيوان.

والإسلام يتعامل مع الإنسان بعيداً عن كل روابط الجاهلية، التي هي في الحقيقة روابط الحيوان. فروابط الجاهلية -كما قلنا- هي روابط الحيوان؛ من جنس أو أرض أو فصيلة أو نوع.

ولكن الإسلام يتعامل مع الإنسان ككل، على أن نوع الإنسان كله واحد.. ويخاطبه خطابا واحدا، ويطالبه بمطالب واحدة، وأنه لا يفرق بين الناس إلا بالعقيدة فقط، وليس بأي فارق من فوارق الزمان ولا المكان ولا الجنس أو الأرض أو اللغة.. فلا يعترف الإسلام بأن كل هذه العوامل لها تأثير في عمل فواصل وحواجز بين الناس. ولذلك اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق؛ العربي، والفارسي، والشامي، والمصري، والمغربي، والتركي، والصيني، والهندي، والروماني، والإغريقي، والإندونيسي، والإفريقي.. إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتشارك -متمازجة متعاونة متناسقة- في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما عربية.. إنما كانت إسلامية. ولم تكن يوما ما قومية.. إنما كانت دائما عقدية. وهذا ما يحاول أعداء الإسلام أن يضغطوا عليه ويموهوه؛ فيصفون الحضارة التي أنشأها الإسلام بأنها حضارة عربية.. ويذكرون دائما الحضارة الإسلامية بأنها حضارة العرب.. بينما هم يعرفون أن الذين كان لهم باع واسع جدا

في علوم الإسلام وحضارته لم يكونوا عربا، بل كانوا من الموالي، أو كانوا من العجم وليسوا من العرب على الإطلاق.. ولكن الإسلام جمعهم على قدم المساواة وبآصرة الحب وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة، فبذلوا جميعهم أقصى كفاياتهم، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة.. تجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها، بلا عائق.. وهذا ما لم يجتمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ.

ونحن نعرف أن الإمبراطورية الرومانية جمعت أجناسا عديدة، ولكنها لم تمزج بينهم، ولم تجمعهم على قيمة عليا لم تجمعهم على آصرة العقيدة.. وإنما كان التجمع في الإمبراطورية الرومانية تجمعا طبقيا على أساس طبقة السادة وطبقة العبيد، أو طبقة الأشراف وطبقة العبيد.

وكذلك في عصرنا الحاضر قامت تجمعات كالإمبراطورية البريطانية، التي كانت تجمعاً قومياً استغلالياً، استغل الأقوام الذين جمعتهم الإمبراطورية البريطانية أو الانجليزية على أنهم عبيد، بينما بريطانيا فوق الجميع. ونحن نعرف أن الانجليزي يكون "جنتلمان" جدا داخل الجزيرة البريطانية، أما إذا خرج إلى المستعمرات فهو روماني غليظ القلب وغليظ التعامل.. حتى أنه في البلاد التي استعمرها كان إذا أراد أن يركب الحصان ركع له الإفريقي أو الباكستاني أو الهندي ليقف على ظهره ليركب حصانه.. هكذا كانوا يعاملون العبيد، ويعدونهم أجناسا من دماء غير دمائهم، ومن درجة غير درجتهم. وهذه هي فكرة الشعب المختار الذي يريد اليهود أن يبثوها في العالم بوصفهم هم شعب الله المختار كما يزعمون.

فالإمبراطورية الرومانية جعلت نفسها أيضا الشعب المتميز.. وكذلك فعلت الإمبراطورية البريطانية.. والأمريكان يعدون العالم خدماً للأمريكان، يعبثون في كل مكان كما يشاءون.

فهذه المجتمعات مجتمعات كلها تقوم ابتداء على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها، وتنميتها وتمكينها، باعتبار أن المطالب الأساسية للإنسان هي الطعام والمسكن والجنس؛ وهي مطالب الحيوان الأولية، تستوي في ذلك الشيوعية والرأسمالية والرومانية القديمة، والإمبراطورية البريطانية والفرنسية والأمريكية.. فكلها تنزل بالإنسان إلى ذلك المستوى الهابط البشع المقيت.

لكن الإسلام هو الذي تفردَّ وحده بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان، وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني، وما يزال متفردا. والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر، يقوم على أي قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة.. إلى آخر هذا النتن السخيف، هم أعداء الإنسانية حقا.. هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله، ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق.. وهم الذين يقول الله سبحانه في أمثالهم ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]..